بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

Copyrigh © Ravza Yayınları, 2017

اسم الكتاب
اَلاِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِي اَلسَّنُوسِي وَمَنْهَجُهُ فِي التَّأْسِيسِ

المؤلف
علي محمد محمد الصلابي

مدير دار النشر
مصطفى قصادار

ISBN
978-

الطبـع والتجليد
دار الروضة للطباعة والنضر والتوزيـع

التصميم
Ahmet Kahramanoğlu

الطبعة الأولى
2017

Sertifika No
31896

Basım Yeri ve Yılı
Ravza Yayıncılık ve Matbaacılık
Kale İş Merkezi No: 51-52
Davutpaşa / İstanbul
Tel: 0212 481 94 11

Kasım 2017

RAVZA YAYINLARI

Büyük Reşitpaşa Cad. No: 22/42
Fatih / İstanbul / Türkiye

Tel: 0090 212 528 46 17
Fax: 0090 212 514 27 31

www.ravzakitap.com
ravzasiparis@hotmail.com

مِنْ أَعْلَامِ التَّصَوُّفِى السُّنِّيِّ: ٥

الإمَامُ

مُحَمَّدُ بْنُ عَلِي السَّنُوسِي وَمَنهَجُهُ فِي التَّأْسِيسِ

(التعليمي والحركي والتربوي والدعوي والسياسي)

تأليف

علي محمد محمد الصلابي

دار الروضة
للطباعة والنشر والتوزيع

فهرس

مُقَدِّمة ٧

المدخل: أحوال العالم الإسلامي قبيل ظهور الحركة السنوسية ١٥

الفصل الأول: الإمام محمد بن علي السنوسي ٢٧

المبحث الأول: اسمه ونسبه وشيوخه ورحلاته في طلب العلم ٢٧

المبحث الثاني : أسباب اختيار ابن السنوسي برقة مركزاً لدعوته ٦٥

المبحث الثالث : إقامة ابن السنوسي في الحجاز وعودته إلى برقة ٧٢

الفصل الثاني: البعد التنظيمي، والمنهج التربوي،

والبعد السياسي عند ابن السنوسي ١٠٧

المبحث الأول : البعد التنظيمي عند ابن السنوسي ١٠٧

المبحث الثاني : المنهج التربوي ١٢٨

المبحث الثالث : البعد السياسي عند ابن السنوسي ١٥١

الفصل الثالث: أسلوبه الدعوي، وثروته الفكرية، وصفاته الربانية ١٦١

المبحث الأول: الأسلوب الدعوي عند ابن السنوسي ١٦١

المبحث الثاني : الجانب الفكري عند ابن السنوسي من خلال كتبه. ١٧٠

المبحث الثالث : من أهم صفات ابن السنوسي ١٩٤

الخلاصة ٢٠٧

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ

مُقَدّمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

[ال عمران: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ ۝} [آل عِمرَان: ٢٠١]

[النساء: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝} [النِّسَاء: ١]

[الأحزاب: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝} [الأحزَاب: ٠٧-١٧].

أما بعد:

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

هذا الكتاب يتحدث عن الحركة السنوسية في ليبيا وقد سميته (الإمام محمد بن علي السنوسي، منهجه في التأسيس التعليمي، الحركي، التربوي، الدعوي).

وقد ذكرت في مقدمة الكتاب الأول من سلسلة (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي): أن اهتمامي بالتاريخ كانت بدايته خلف أسوار السجن السياسي

في ليبية، وقد أكرمني الله تعالى أن ألتقي في مدرسة يوسف عليه السلام ببعض وجهاء بلادنا المعتقلين من ذوي الثقافات المتنوعة، والخبرات المتعددة، والاتجاهات المتباينة، وقد حرصوا على توريث تجاربهم وخبراتهم، وتاريخهم للأجيال القادمة، وقد استمعت إلى بعض أبناء الحركة السنوسية وهم يتحدثون عن ما قام به الدعاة والمجاهدون من أبناء الحركة في إعزاز دين الله، ونصرة أهله والدعوة إليه في الصحراء الكبرى، وغرب ووسط إفريقية، وبلاد الحجاز، ومصر والشمال الإفريقي، وكان لذلك الحديث أثره في نفسي، ومن ثم اهتممت بجمع المعلومات عن كل ما يتعلق بالحركة السنوسية، من أجل دراستها، دراسة تحليلية وافية، والكتابة عنها، وكنتُ شديد الفرح بكل معلومة أحصل عليها من أفواه رجال الحركة، فأكتبها على أوراق الصابون، وأوراق البسكويت، وأوراق حليب الكورنيش بوساطة أقلام الرصاص، والجرافيت التي كنا نستخرجها من بطاريات الشحن الصغيرة؛ لأنه كان من الصعوبة بمكان الحصول على أوراق أو أقلام في المعتقل.

وبعد خروجي من السجن في (١٩٨٨/٣/٣ م) وقد أكرمني الله بوضوح الهدف، والشعور بوجوب الدعوة إلى الله تعالى، والاستعداد للتضحية في سبيلها.

قال الشاعر:

خرجنا من السجن شُمَّ الأنوفِ كما تخرج الأسْدُ من غابها
نمرّ على شَفَرات السيوف ونأتي المنية من بابها

وعندما خرجنا من المعتقل، كانت الصحوة الإسلامية قد امتدت في شرايين المجتمع الليبي، لقد غمرتني سعادة كبرى بظهور التيار الإسلامي، وامتلاء المساجد وانتشار الحجاب، وظهور التدين في

المناسبات الاجتماعية؛ إلا أنه بعد احتكاكي ببعض أبناء الصحوة، لاحظت أنها عاطفة جياشة ينقصها العلم الشرعي من الكتاب والسنة، كما وأنني لمست انقطاعاً واضحاً عند هذا الجيل المبارك عن تاريخ أجداده، وجهادهم ضد فرنسة في وسط إفريقية والصحراء الكبرى، وجهادهم العظيم ضد إيطالية في طول البلاد وعرضها، وجهادهم ضد بريطانية على الحدود المصرية الليبية، وللأسف الشديد لا يتذكرون من فتوحات الصحابة والتابعين لليبية والشمال الإفريقي إلا ثقافة ضحلة لا تسمن ولا تغني من جوع، لذلك ازدادت

قناعتي بأهمية كتابة تاريخ بلادنا؛ ليس عن الحركة السنوسية فقط، بل ليمتد من الفتح الإسلامي إلى العصر الحديث، وبعد خروجي من بلادنا العزيزة لطلب العلم التحقت بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، وكانت فكرة كتابة التاريخ قد استقرت في ذهني، وشرعت في تنفيذها مستعيناً بالله العليم الحكيم، ومتضرعاً إلى التواب الرحيم أن يُلهمني الصواب، وييسر لي الأسباب، وبعد عشر سنين ظهرت تلك الفكرة بفضل الله ومنه وتوفيقه إلى حيِّز الوجود في سلسلة صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي؛ طبع منها ستة كتب، وانتشرت في المكتبات العربية، والمعارض الدولية، ووصلت إلى كثير من القراء، فكانت بين مادح وذامٍّ، ومنتقد ومستدرك؛ قال الشاعر:

إن تجد عيباً فسدَّ الخللا — جل من لا عيب فيه وعلا

– وقال الشاعر:

من الذي ما ساء قط — ومن له الحسنى فقط

– وقد وصلتني ملاحظات علمية قيِّمة أشكر إخواني على حسن نصحهم، وجميل إهدائهم، وتشجيعهم، وأدعو الله العلي الكبير أن يوفقني وإياهم لخدمة دينه وسنة نبيه (ص)، وتاريخ الإسلام المجيد.

وها أنا الان أقدم للجزء الأول من الكتاب السابع، وقدِ اطَّلع

عليه بعض المختصين بعلم التاريخ، وقد قال أحد المؤرخين: إن ما يقوم به هذا الباحث الشاب رد عملي على كل من يريد أن يفصل ليبية عن جذورها الإسلامية الممتدة في أعماق التاريخ، ومن النوادر اللطيفة عندما كنت أكتب في هذا الكتاب طرق باب بيتي مجموعة من الشباب الليبي المهاجر، فأدخلتهم وأكرمتهم وبدأت أحدثهم عن الدرر، والجواهر، والأمجاد العظيمة التي يزخر بها تاريخ بلادنا المعاصر، فقال لي أحدهم: لا نريدك أن تكتب التاريخ، وإنما نريدك أن تصنعه؛ فقلت لهم: أنتم تصنعونه وأنا أكتبه، فضحك الجميع، وما كانت تلك الكلمة لتثنيني عن هدفي الذي هيمن على نفسي ومشاعري وأحاسيسي، فبذلت له وقتي وجهدي ومالي سائلاً المولى عز وجل أن تكون أعمالي خالصة لوجهه الكريم.

إنني كلما توغَّلت في دراسة التاريخ ازددت قناعة بأهميته في تكوين الأمم، وتربية الشعوب، وتحقيق الامال، وبناء الدول، ومحاربة الباطل، وإزالة الظلم ،

ونشر العدل. وقد أيقنت أن الأيام دُولٌ، وأن الأحداث تتكرر على اختلاف في الزمان والمكان، ولكنها تتكرر في إطارها العام، والتاريخ يمد القارأى بخصائص وسمات الأحداث، فيسهل عليه الاتعاظ والاعتبار بأحوال الدول والشعوب والأمم والجماعات.

إن هذا الجزء الأول من الكتاب السابع يعرّف القارأى الكريم بالإمام محمد بن علي السنوسي؛ الذي يعتبره الكثيرون حامل لواء النهضة الحديثة في ليبية، ومُرْسي قواعدها، ومُوْقد جذوة الإيمان في قلوب قبائلها.

يتحدَّث هذا الكتاب عن حياة هذا الإمام الذي بارك الله في علمه وعمله، وأحيا الله به شعباً حمل لواء الدعوة والجهاد في الصحراء الكبرى، ووسط إفريقية، ولم يتردد في بذل ماله ورجاله من أجل نصرة دين الله تعالى.

ويسلط الأضواء على جوانب متعددة في منهج الحركة السنوسية، ليبين للقارأى الكريم أن شعب ليبية عندما أكرمه الله تعالى بداعية رباني؛ استطاع أن يفجر طاقته الكامنة، وتحول إلى مجتمع إسلامي قوي حمل مشاعل النور في قلب إفريقية المظلمة، وبذل الغالي والنفيس في سبيل الإسلام، وقارع الاستعمار الفرنسي والإيطالي والإنكليزي في ملحمة من أروع ملاحم التاريخ المعاصر في الصراع بين الكفر والإيمان، والحق والباطل، والهدى والضلال.

ويوضح للقارأى الكريم أن ابن السنوسي يعتبر رائداً من رواد مدرسة الإصلاح الإسلامي في الشمال الإفريقي ووسطها وغربها، عمل على نشر الإسلام الصحيح، ومحاربة البدع، والخرافات، والشعوذة بأنواعها وأشكالها، التي لحقت به في عصورها المتأخرة في مشرقه ومغربه على حد سواء.

إن هذا الجهد المتواضع يميط اللثام عن شخصية علمية دعوية ربانية كان لها أثر ولا زال في ليبية خصوصاً، وإفريقية عموماً، ويجيب القارأى عن كثير من الأسئلة التي يحتاجها المهتمون بدراسة الدعوات الإصلاحية، والتي يبحث عن إجابتها دعاة الإسلام في ليبية خصوصاً.

ما هي رحلات ابن السنوسي العلمية؟ وما هي العلوم التي درسها؟ ومن هم شيوخه؟ وما سر نجاحه؟ وما هي صفاته؟ وكيف تعرَّف على أحوال المسلمين

وأخلاقهم؟ وكيف استطاع أن يتصل بالكثير من القادمين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي؟ وما هي خطة عمله التي سار عليها؟ وهل استفاد من حركة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب، وتجربة محمد علي باشا حاكم مصر؟ وما هو أسلوبه في التعامل مع الدولة العثمانية، وعلمائها؟ كيف تعامل مع الطرق الصوفية، والقبائل البدوية، والقبائل الوثنية؟ وما هي حقيقة الزوايا السنوسية؟ وهل استطاع ابن السنوسي أن يجعل من قبائل ليبية قوة إسلامية يُحْسبُ لها حسابها الإقليمي، والدولي؟ وهل كانت

مفاهيم الحركة السنوسية سلفية؟ وما هي علاقة ابن السنوسي بحركة الجهاد ضد إيطالية وفرنسة؟ وهل كان من الممكن أن يخرج أبطال الجهاد، من أمثال أحمد الشريف، وعمر المختار وغيرهم لولا الله ثم جهود ذلك المصلح العظيم؟

نعم علامات استفهام كثيرة نحاول الإجابة عنها في الجزء الأول، ثم الجزء الثاني بإذن الله تعالى.

هذا وإنني لم اتِ بجديد، وإنما وفقني الله تعالى للجمع والترتيب والتحليل، فإن كان خيراً؛ فمن الله وحده، وإن أخطأت السبيل فأنا عنه راجع إن تبين لي ذلك، والمجال مفتوح للنقد، والرد والتعليق والتوجيه، كما أقرر بأنني قد استفدت كثيراً في كتابي هذا من الجهود التي سبقتني، ككتاب (السنوسية دين ودولة) لمحمد فؤاد شكري، و(الحركة السنوسية) للدجاني، و(برقة العربية أمس واليوم) للأشهب، و(السنوسي الكبير) للأشهب، و(الفوائد الجليلة في تاريخ العائلة السنوسية) لعبد القادر بن علي، و(المجموعة المختارة) للإمام ابن السنوسي التي أعاد طباعتها محمد عبده بن غلبون وإخوانه، وغيرها من الكتب، وقد دونت ما اختصرته من مباحث وأشرت إليه في هامش الكتاب للأمانة العلمية، كما أنني انتهجت منهجاً دعوياً تاريخياً يعتمد على توسيع النقاط البيضاء المشرقة، وتضييق النقاط السوداء المظلمة، وليس معنى هذا التحكم في الحقيقة التاريخية، بل كشف الحقائق النيرة، وتجريدها مما قامت به أقلام الأعداء من الدس والكذب والافتراء والتضليل، ومساهمة مني في علاج الهزيمة النفسية التي يمر بها شعبنا المظلوم ومتضرعاً إلى الله تعالى الحي القيوم أن يحيي شعبنا وأمتنا بالإيمان والقران الكريم، وسنة سيد الخلق أجمعين.

وقد قمت بتقسيم الجزء الأول من الكتاب السابع في السلسلة التاريخية إلى مقدمة، وثلاثة فصول، وخاتمة، وهي كالاتي:

الفصل الأول: الإمام محمد بن علي السنوسي، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: اسمه ونسبه وشيوخه ورحلاته في طلب العلم.

المبحث الثاني: أسباب اختيار ابن السنوسي برقة مركزاً لدعوته.

المبحث الثالث: إقامة ابن السنوسي في الحجاز وعودته إلى برقة.

الفصل الثاني: البعد التنظيمي، والمنهج التربوي، والبعد السياسي عند ابن السنوسي، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: البعد التنظيمي.

المبحث الثاني: المنهج التربوي.

المبحث الثالث: البعد السياسي.

الفصل الثالث: أسلوبه الدعوي، وثروته الفكرية، وصفاته الربانية ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الأسلوب الدعوي.

المبحث الثاني: الجانب الفكري عند ابن السنوسي من خلال كتبه.

المبحث الثالث: من أهم صفات ابن السنوسي.

ثم نتائج البحث.

وأخيراً: أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصاً لوجهه الكريم، وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب.

«سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، واخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين».

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

علي محمد محمد الصلابي

المدخل
أحوال العالم الإسلامي قبيل ظهور الحركة السنوسية

بدأ الضعف والانحلال يَدِبُّ في أوصال الأمة الإسلامية بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي الذي هزم الصليبيين، وطهَّر بلاد المسلمين منهم، ومما زاد الأمر سوءاً احتلال التتار للممالك الإسلامية، وتمزيقهم للأمة، والعمل على إزالة معالمها الحضارية، والدينية، والعلمية، وشاءت إرادة الله النافذة أن يلطف بهذه الأمة، فأكرم الله العثمانيين بالتمكين، وكان قمة ذلك التمكين في زمن السلطان محمد الفاتح؛ الذي أجرى الله على يديه فتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية عام (٧٥٨ هـ/٣٥٤١ م)، وبذلك عادت للأمة هيبتها، وقوتها، ومجدها، وعزتها، وتولى العثمانيون زعامة الأمة الإسلامية، وكان الشعب العثماني قد تميز بالحماس، وحب الجهاد، وعشق الشهادة في سبيل الله، وسلامة الفطرة، والبعد عن الأمراض الاجتماعية التي أصابت غيره من الشعوب، أضف إلى ذلك القيادة الربانية التي كانت تقود الشعب نحو ساحات الوغى، وتعمل على نشر الإسلام، وتزيل العوائق من أمام الأمم المفتوحة، ليُعرضَ عليها الإسلام صافياً نقياً من كل شائبة، وهيمن الإسلام من جديد على زعامة العالم وقيادته،

وأصبحت الدولة العثمانية تحكم في ثلاث قارات: أوروبة، وإفريقية، واسية، وتوغلت في أوروبة، حتى بلغت الجيوش العثمانية أسوار فيينة، وكانوا سادة البحر المتوسط من غير نزاع، وقد جمعوا بين السيادتين: البرية، والبحرية، وبين السلطتين: الروحية والساسية.[١]

«ولكن من سوء حظ المسلمين أخذ الترك في الانحطاط، ودب إليهم داء الأمم من قبلهم: الحسد والبغضاء، واستبداد الملوك وجورهم، وخيانة الأمراء وغشهم للأمة وإخلاد الشعب إلى الدعة والراحة. وكان شر ما أصيبوا به الجمود في العلم والجمود في صناعة الحرب، وتنظيم الجيوش».[٢]

وأخذت ملامح القوميات العرقية تظهر على مسرح الأحداث في الدولة، وتفجرت الثورات في البلقان، وشرعت في تشكيل جمعيات قومية سراً، وعلناً، وبدأت التوجهات العلمانية تظهر في الأمة، وعمل اليهود والنصارى على تقوية هذه الاتجاهات المفسدة. فاليهود أرادوا الانتقام لأن العثمانيين منعوهم من فلسطين، والنصارى يريدون أن ينتقموا لحملاتهم الصليبية التي فشلت في تحقيق أهدافها أمام جهاد عماد الدين، ونور الدين، وصلاح الدين.

كانت الأحزاب العلمانية، والجمعيات السرية، والعصبيات القومية، تنخر في كيان الدولة العثمانية؛ فظهر من يدعو إلى القومية الطورانية، والعربية، والكردية... إلخ، وبدأت الثورات تتفجر في البلدان، وأخذت الحركات الانفصالية تتكاثر، وأخذت الدول الأوروبية في دعمها، وتعد المشاريع لاقتسام تركة الرجل المريض، وكان العالم الإسلامي انذاك منضوياً تحت لواء الدولة العثمانية التي فقدت عوامل النهوض، وأهملت شروط التمكين، وتباعدت عن أسبابه، وتخلفت عن ركب الحضارة، فدخلت الأقاليم الإسلامية في دوامة التدهور،

---

[١] انظر: إمام التوحيد، محمد بن عبد الوهاب، ص (٨، ٩).

[٢] انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، للندوي، ص (١٤٨).

والظلام الحالك، والمحنة الشاملة، والجهل المطبق، والظلم الفادح، والفقر المدقع، فتفجرت الثورات بدوافع مختلفة، فمرة بدوافع العِرْق والقومية، وأخرى دفاعاً عن النفس ضد الجور، والتعسف والظلم، وتارة بدافع الحقد، والتعصب، وكانت اليهودية والصليبية خلف تمزيق السلطنة، وإضعافها، فكثرت مصائبها، وتعددت جبهاتها، وأصبح مركز الخلافة مفككاً، ضعيفاً، متدهوراً، منحلاً، وقد أصيبت الولايات، كالجزائر، وتونس، وليبية، ومصر، والشام، والحجاز، بالضعف الشديد، والتدهور المريع، بسبب الظلم والاستبداد، وانتشار الجهل، وجمود العلم، وغياب القادة.

وصاحَبَ هذا الانهيار في كيان الدولة أحداثٌ خطيرة، كان لها أثر فعال على المسلمين وجميع جوانب حياتهم: الفكرية والدينية والعلمية والسياسية؛ فمن ذلك:

أ- احتل الفرنسيون مصر عام (١٧٩٨ م)، وظلوا فيها حتى عام (١٨٠١ م)، وتمكَّن محمد علي باشا من الانفراد بحكمها بعد خروج فرنسة (١٨٠٥ ١٨٤٨ م)، وكان هذا الرجل مصيبة كبرى على الأمة، واستطاعت الدول الأوروبية، والمحافل الماسونية أن تحقق أهدافها بوساطته، فعمل على:

١- تحطيم الدولة السعودية الأولى التي كانت خنجراً مسموماً في ظهر الأطماع البريطانية في الخليج العربي خصوصاً، والمشرق عموماً.

٢- فتح البلاد على مصراعيها لإقامة مؤسسات معادية للدين الإسلامي والمسلمين؛ كالمحافل الماسونية، والإرساليات التبشيرية، والأديرة والكنائس، ومدارس تتعهد التيارات المعادية للإسلام، وبث الأفكار المعادية للأمة.

٣- أتاح الفرصة لشركات أوروبية تحكمت في اقتصاد البلاد.

٤- منح امتيازات واسعة للأوروبيين، ومنع المسلمين منها.

٥- خنق التيار الإسلامي الأصيل، وضيق على العلماء والفقهاء، ولم

يسمح للمسلمين أن يتكتلوا من أجل أهدافهم السامية، وغير ذلك من المساوأى.

ب- وفي عام (١٨٣٠ م)، احتلت فرنسة الجزائر، وفشلت الدولة العثمانية في منعها، وحاولت فرنسة جعل الجزائر قطعة منها، ثم امتد نفوذها إلى تونس عام (١٨٨١ م)، ودخلت إلى السودان الغربي.

ج- احتلت بريطانية عدن عام (١٨٣٩ م)، وبدأت في توسيع نفوذها وسلطانها على دول الخليج العربي، وبعض بلاد الشام، وحاولت الدولة العثمانية وقف السرطان الصليبي الذي أنهك جسم الأمة؛ ولكنها فشلت، وأصبحت الأمة تعاني من الاثار المترتبة بسبب ابتعادها عن شرع الله تعالى؛ فمن الناحية الاجتماعية: تفشى الجهل، وأصبح عاماً شاملاً لكل الديار الإسلامية، وضمر الإيمان، وتقاعست النفوس، وكان النزاع بين الأمراء مستمراً على حطام الدنيا، وأصبح كل حزب بما لديهم فرحين، وولاة الدولة العثمانية همهم جمع الأموال، وتكثير الأملاك إلا من رحم الله، وأخذ الظلم الذي استشرى يعجل بزوال الدولة العثمانية، أما من الناحية العلمية؛ فأصبحت الأمة في ليل حالك وظلام دامس؛ وتفشى الجهل

في كل طبقات الأمة وفي جوانبها الثقافية كالأدب، والعلم، والصناعات ... وكان العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه مصاباً بالجدب العلمي، وشبه الشلل الفكري، وأصبح في حالة غيبوبة، واستولى عليه النعاس الشديد، ومات فيه النشاط، والحيوية، والإبداع، والاجتهاد في العلم والدين، والأدب، والشعر، والحكمة، ودخلت الأمة في نفق التقليد الأعمى، وكان مظلماً شديد الظلمة.

وأصبحت الجامعات الكبرى كالأزهر، والزيتونة تهتم بالمتون، وتترقى في الشروح، ومن بلغ الذروة في العلم والمعرفة فهم ما في الحواشي، وعاش العالم الإسلامي في عزلة سياسية وعلمية مخيفة، فلا علاقة له بشعوب الأرض إلا من خلال النزاع السياسي، والصدام

العسكري، فتجمدت حياته العلمية، وانتهت إلى ترديد كتب وعبارات الأقدمين، والمجتهد النحرير من يفهمها.[٣]

«وأصبح العلم مع الزمن احتكاراً لأسر معينة، وغدت طبقة العلماء طبقة اجتماعية ذات امتيازات خاصة، واتخذت موقفاً صلباً ضد كل تجديد في عالم الفكر، فقد قاوموا إدخال المطابع إلى الدولة وطباعة الكتب الدينية الإسلامية».[٤]

وكان العلماء هم المشرفين على التربية والتعليم في الدولة، ولم يستطع العلماء أن يجعلوا للتعليم في المدارس والمعاهد برنامجاً متطوراً يتناسب مع عصرهم، وقد تحدث بعض المفكرين عن عيوب التعليم متخذين من الأزهر الشريف مثلاً على ما وصلوا إليه؛ فقد قال محمد خليل المرادي عن عيوب التعليم في الأزهر ما يلي:

١- قبول أبناء الأكابر والأغنياء في الأزهر ممن لا يتمتعون بمستوى تعليمي جيد.

٢- تدني مستوى الأساتذة.

٣- استئثار بعض الأساتذة بتعليم كثير من المواد؛ بحيث يعينون بدلاء عنهم مقابل مرتب زهيد.

٤- تحديد الموضوعات، وضيق النظر في التدريس، فقد كان الهدف في التعليم تلقي بعض المعلومات المحدودة، أما تجاوز هذه المعلومات أو مجرد

التساؤل عن صحتها، فقد يثير الشكوك ومقاومة العلماء، أو قد يصل إلى حد العقاب والطرد من المعهد أو فقدان مصدر العيش ناهيك عن التشهير[٥]. هذه أهم ملامح الحياة الأدبية والعلمية في ذلك العصر.

---

[٣] انظر: إمام التوحيد، ص (١٧)

[٤] انظر: زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص (٦).

[٥] انظر: الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، علي المحافظة، ص (١٤ ١٥).

أما من الناحية الصناعية:

فقد ضيع المسلمون الأعمار، وأخلدوا إلى التقليد الأعمى، ورضوا بالجمود، ولم يبتكروا في الصناعات، بل أضاعوا ما كان لديهم من صناعات قديمة، وفقدوا مهارتهم، وحاول السلطان العثماني سليم الثالث[٦] أن يهتم بالإصلاح الصناعي، فأنشأ مدارس جديدة، وكان يعلم بنفسه في مدرسة الهندسة، وألف جيشاً على الطراز الحديث، فثار عليه الجيش لغرابة ذلك، وتم قتله.

ومن الناحية الدينية:

«كان علماء الدين في الدولة العثمانية يعتبرون أنفسهم حماة الشريعة والحريصين على التمسك بمذهب أهل السنة، إذ كان دين الدولة الإسلام ومذهبها الرسمي هو المذهب الحنفي، وكان على رأس هؤلاء العلماء شيخ الإسلام، ووظيفته شبيهة بوظيفة الخليفة العباسي الذي كان يقيم في القاهرة في ظل حكم المماليك، وكان مركزه معادلاً لمركز الصدر الأعظم (رئيس الوزراء)، ويتمتع شيخ الإسلام بصلاحية إصدار الفتاوى في القضايا الكبرى، كأن يصدر فتوى بعزل السلطان أو إعلان الجهاد، ولكنه من الناحية العلمية يعين من قبل السلطان ويلي شيخ الإسلام في منصبه(قاضيا العسكر) في الروملي، والأناضول، وقاضي إستانبول، ويليهم عدد من القضاة يكونون جميعاً مع شيخ الإسلام (المجلس الأعلى للعلماء)» .[٧]

وجمد المسلمون في علوم دينهم، فليس لديهم إلا ترديد بعض الكتب الفقهية، والنحوية، والصرفية، ونحوها، وجمدوا على فقه المذاهب، وجل همهم التعمق في الحواشي، وحفظ المتون، دون القدرة على الاجتهاد.

---

[٦] انظر: ترجمته في كتاب: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، الكتاب السادس من هذه السلسلة.

[٧] انظر: الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، ص (١٢).

وجعلوا لكل مذهب من المذاهب الفقهية مفتياً وإماماً، وتعددت الجماعات في المسجد الواحد كل ينتصر لمذهبه، وكل يصلي خلف إمام حسب المذاهب المتواجدة في ذلك المسجد، كما أن الإفتاء في أي مسألة حسب مذهب السائل، وحرم على الناس خروجهم عنها، وأغلق باب الاجتهاد بمغاليق من حديد، وكان علماء الدين كما وصفهم المؤرخ الجبرتي: «إنهم قد زالت هيبتهم من النفوس، وانهمكوا في الأمور الدنيوية والحظوظ النفسانية والوساوس الشيطانية، ومشاركة الجهال في الماتم، والمسارعة إلى الولائم في الأفراح والماتم، يتكالبون على الأسمطة، كالبهائم، فتراهم في كل دعوة ذاهبين، وعلى الخوانات راكعين، ولما وجب عليهم من النصح تاركين».[٨]

أمور يضحك السفهاء منها ويبكي من عواقبها اللبيب

وعندما دخل نابليون بونابرت مصر غازياً، استفاد من أمثال أولئك العلماء وألَّف منهم ديوان القضاء، وقال: «إني أستعين بهم لاتقاء أكثر العقبات؛ إذ إن أكثرها دينية، ولأنهم لا يعرفون أن يركبوا حصاناً، ولا أن يقوموا بأي عمل حربي، وقد استفدت منهم كثيراً، واتخذتهم وسيلة للتفاهم مع الشعب».[٩]

وليس معنى ذلك أنه لم يكن لبعض العلماء دور في محاربة نابليون؛ بل إن ثورات القاهرة المشهورة ضد الاحتلال الفرنسي قادها علماء الأزهر، ولقد تعرضت لها في كتابي (الدولة العثمانية).

لقد انتشرت في ذاك العصر الدعوات المنحرفة، والأفكار المسمومة، وكثرت مظاهر تقديس القبور، وطلب الحاجات من أصحابها، وبناء القباب الضخمة عليها والصلاة حولها، وارتكاب البدع الخطيرة، وانتشر التصوف المنحرف في أرجاء البلاد الإسلامية، شرقها وغربها، عربيها

---

[٨] انظر: إمام التوحيد، ص (٢٢).

[٩] انظر: انتشار دعوة الشيخ خارج الجزيرة العربية، ص (١٢).

وعجميها، لقد ضاع مفهوم العبادة الصحيح، والولاء والبراء، وانحرفت الأمة عن كتاب ربها وسنة رسولها (ص)، فكان من الطبيعي أن تتعرض لضربات أعدائها، وأطماعهم الشريرة، فإذا نظرنا للدولة العثمانية، نجدها قد انقلبت إلى مطايا استبداد وفوضى واغتيال، وكثر السلب

والنهب، وفقد الأمن، وانحرف بعض السلاطين عن الصواب؛ يقول محمد كمال جمعة: «وكانت قصور السلاطين والوزراء وكبار رجال الدولة مملوءة بالجواري والسبايا، وكان بعض أولئك السبايا أجنبيات من بلاد أجنبية فكن عيوناً لدولهن على الدولة العثمانية».[١٠]

«وقد تعالى سلاطين هذه الدولة على الرعية، فإذا خاطبوا الرعية كانوا لا يوجهون الخطاب إليهم مباشرة بل يقولون لولاتهم: بلغوا عبيد بابنا العالي».[١١]

وكانت الدولة العثمانية في اخر زمانها لا تحارب التصوف المنحرف بمختلف طرائقه وبصوره التي بعدت عن الإسلام بعداً شاسعاً، وكانت قد دخلت عليه عادات بعضها نصرانية، كالرهبانية، واللعب بذكر الله، وابتداع أساليب فيه، كالرقص، والغناء، والصياح، والتصفيق... إلخ.

فإذا نظرنا إلى بلاد فارس؛ نجد الدولة الصفوية الرافضية قد عاصرت الدولة العثمانية، وكانت تدعي الإسلام وهي دولة رافضة على مذهب الإمامية، وكانت تغالي في الرفض حتى إنها حاربت الدولة العثمانية لأنها منسوبة إلى السنية أشد الحرب بتحريض من النصارى والصليبيين، واستجابة لمعتقدهم الفاسد.

أما إذا نظرنا إلى بلاد الهند؛ فقد كانت الدولة المغولية؛ لكنها كانت بقية، ورثها أبناء ملك الهند المغولي أكبر خان، وقد قرب الشاعر الشيعي المسمى الملا مبارك ووليده أبا الفائز، (وكان شاعراً متصوفاً)، وأبا الفضل (وكان فيلسوفاً على طريقة الصوفية المنحرفة)، وجعل فتح

---

[١٠] انظر: انتشار دعوة الشيخ خارج الجزيرة العربية، ص (١٢).

[١١] انظر: المصدر السابق نفسه، ص (١٣).

الله الشيرازي من أكابر علماء الشيعة من فارس مستشاره الشرعي، وهو شديد الوطأة على علماء أهل السنة، وألغى اللسان العربي من بلاطه وجعل الفارسي مكانه، وكان ميالاً إلى التصوف المنحرف ويراه أرقى طريقة إسلامية، وهو على طريقة تصوف أهل وحدة الوجود، وله عقائد أخرى؛ منها: تناسخ الأرواح، أخذه عن البراهمة.[١٢]

مما دعا الشيخ العالم ولي الله الدهلوي (ت ١١٧٦ هـ) في نهاية هذا العصر المغولي أن يقوم بجهود تكسر الجمود، وتطلق العقول لتتمشى مع صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان[١٣]، ولكن انتهت دولة المغول في الهند، وطمعت البرتغال الكافرة في مسلمي الهند بسبب فساد ملوك هذه الدولة المغولية، وقامت حروب داخلية كثيرة، وتغلب فيها الهندوس، واستعمرتها شركة الهند الشرقية الإنكليزية حوالي (١١٧٥ هـ).[١٤]

وأما المغرب الأقصى: كانت دولة العلويين تعاني من خلافات القبائل وثورات البربر ونزاع الطامعين على العرش، وتحاول جاهدة في الحفاظ على نفسها أمام أطماع الدول الاستعمارية، وقد كان لها قبل ذلك القرن أسطول بحري قوي حمى حدودها البحرية، وفرض احترامها على الدول الأوروبية، ولكنها خسرته في عهد السلطان سليمان الذي أهمله واختار اتباع طريقة عقد المعاهدات مع الدول الأوربية، وعندما حاول ابنه السلطان عبد الرحمن إعادة بناء الأسطول وقفت له تلك الدول بالمرصاد وأجبرته على التخلي عن عزمه.[١٥]

وبدأت الدول الأوروبية تستقطع من العالم الإسلامي دولاً كلما أتيحت لها الفرصة، لقد اهتز المسلمون لاحتلال الصليبيين لأجزاء

[١٢] انظر: موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه، للمودودي، ص (٦٩ ٧٩).

[١٣] المصدر السابق نفسه، ص (٧٩، ٨٠).

[١٤] انظر: انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ص (٢٠، ٢١).

[١٥] انظر: الحركة السنوسية، ص (١٢).

من الوطن الإسلامي اهتزازاً عنيفاً، كما أثر عليهم احتكاكهم بالغرب، واطلاعهم على تقدمه، بالإضافة إلى إحساس بعضهم بتخلف المسلمين وانحطاطهم.

ومن هنا نبعت حركات الإصلاح التي تتابعت في العالم الإسلامي منذ النصف الثاني للقرن الثامن عشر، بتأثير عوامل عديدة؛ منها: إحساس بعض العلماء الربانيين بسوء الأوضاع في العالم الإسلامي، وتحدي العالم الصليبي الأوروبي للعالم الإسلامي واحتلاله أجزاء منه، فقامت حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد، وكان الدافع لها إحساس مؤسسها بانحطاط المسلمين، وتأخرهم؛ لقد أذن الله سبحانه وتعالى بظهور دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب، بعدما أطبقت الجهالة على الأرض، وخيمت الظلمات على البلاد، وانتشر الشرك والضلال

والابتداع في الدين، وانطمس نور الإسلام، وخفي منار الحق والهدى، وذهب الصالحون من أهل العلم فلم يبق سوى قلة قليلة لا يملكون من الأمر شيئاً، واختفت السنة وظهرت البدعة، وترأس أهل الضلال والأهواء، وأضحى الدين غريباً، والباطل قريباً، حتى لكأن الناظر إلى تلك الحقبة السوداء المدلهمة ليقطع الأمل في الإصلاح، ويصاب بيأس قاتل في أي محاولة تهدف إلى ذلك.

فكانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعد البداية الحقيقية لما حدث في العالم الإسلامي من يقظة جاءت بعد سبات طويل، وما تمخض عنها من صحوة مباركة ورجعة صادقة إلى الدين.[١٦]

لقد كان أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عظيماً في العالم الإسلامي، ويكفي في ذلك أن تكون عقيدة أهل السنة اخذة في الظهور والزيادة والقوة، بعد أن كانت غريبة ومحاربة في أكثر البلاد، وبدأت الأمة تلتمس كتاب الله وسنة رسوله، لتسير على هدى الإسلام الصحيح في حياتها.

---

[١٦] انظر: الانحرافات العقدية والعلمية، للزهراني (٣٥٨/٢).

وظهر الإمام محمد بن علي السنوسي بدعوته الإسلامية بعد وفاة محمد بن عبد الوهاب بعشرات السنين، وكان لدعوته أثر في مسيرة الأمة الإسلامية في الشمال الإفريقي، وغربها ووسطها، وكذلك في الحجاز وغيرها من أقطار العالم الإسلامي، ونترك للصفحات القادمة إعطاء القارأى الكريم صورة واضحة عن حياته، ورحلاته، وأعماله، وكيف عاش واقع المسلمين المؤلم، وخطر الأوروبيين المحدق، فاندفع يعمل محاولاً الإصلاح، وما العوامل التي أثرت عليه ودفعته إلى القيام بحركته؟ وما مؤلفاته وأفكاره؟ وما نظامه الحركي الذي سار عليه حتى وصل إلى ما وصل إليه؟.

الفصل الأول
الإمام محمد بن علي السنوسي

المبحث الأول
اسمه ونسبه وشيوخه ورحلاته في طلب العلم

أولاً: اسمه ونسبه:

هو الشيخ محمد بن علي بن السنوسي بن العربي بن محمد بن عبد القادر بن شهيدة بن حم بن يوسف بن عبد الله بن خطاب بن علي بن يحيى بن راشد بن أحمد المرابط بن منداس بن عبد القوي بن عبد الرحمن بن يوسف بن زيان بن زين العابدين بن يوسف بن حسن بن إدريس بن سعيد بن يعقوب بن داود بن حمزة بن علي بن عمران بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي.[١٧]

ولد سنة (١٢٠٢ هـ) صبيحة يوم الإثنين الموافق الثاني عشر من ربيع الأول عند طلوع الفجر، ولذلك سماه والده محمداً تيمناً باسم النبي (ص)، وكانت ولادته بضاحية (مَيْثا) الواقعة على ضفة وادي شِلْف

---

[١٧] انظر: المجموعة المختارة للإمام السنوسي، ص (٧).

بمنطقة الواسطة التابعة لبلدة مستغانم في الجزائر[١٨]، وتوفي والده بعد عامين من ولادته، وتولت عمته فاطمة تربيته وتنشئته تنشئة صالحة، وكانت من فضليات أهل زمانها، ومتبحرة في العلوم

ومنقطعة للتدريس والوعظ، يحضر دروسها ومواعظها الرجال.[١٩]

واهتمت السيدة فاطمة بابن أخيها الذي أظهر حباً عظيماً لتحصيل العلوم، فأخذ يطلب العلوم من شيوخ مستغانم، وغيرها من البلاد المجاورة لها، مع تعهد عمته له، ومن أشهر شيوخه في تلك المرحلة، ممن أخذ عنهم القران الكريم مع القراءات السبع: محمد بن قعمش الطهراوي زوج عمته، وابنه عبد القادر؛ وكانا عالمين جليلين صالحين، وابن عمه الشيخ محمد السنوسي الذي تولاه بعد وفاة عمته في الطاعون عام (١٢٠٩ هـ) وعمره لم يتجاوز السابعة، وأتم على ابن عمه حفظ القران الكريم برواياته السبع مع علم رسم الخط للمصحف والضبط وقرأ عليه الرسالات الاتية: مورد الظمان، المصباح، العقيلية، الندى، الجزرية، الهداية المرضية في القراءة المكية، حرز الأماني للشاطبي، وغيرها مما هو من وظائف قارأى القران.[٢٠]

وبعد أن أتم ما يلزمه من لوازم حفظ القران وإتقانه شرع ابن عمه الشيخ محمد السنوسي في تعليمه العلوم العربية ثم الدينية بالتدريج، وتربيته على العمل بما تعلم، وكان يزوده بتراجم العلماء والقادة والفقهاء، وتوفي ابن عمه عام (١٢١٩ هـ) فجلس محمد بن علي عند شيوخ من مستغانم؛ وهم: محيي الدين بن شلهبة، ومحمد بن أبي زوينة، وعبد القادر بن عمور، ومحمد القندوز، ومحمد بن عبد الله، وأحمد الطبولي الطرابلسي، وكلهم من جهابذة العلماء في زمانهم، ومكث يطلب العلم في مستغانم سنتين كاملتين

---

[١٨] انظر: الفوائد الجلية في تاريخ العائلة السنوسية، عبد القادر بن علي (٨/١).

[١٩] انظر: السنوسية دين ودولة، د. محمد فؤاد شكري، ص (١١).

[٢٠] انظر: الفوائد الجلية (١٠/١).

وفي أوائل (١٢٢١ هـ) خرج من مستغانم إلى بلدة مازونة ومكث بها سنة واحدة، وتتلمذ على مجموعة من المشائخ؛ هم: محمد بن علي بن أبي طالب، أبو رأس المعسكري، وأبو المهل أبو زوينة.[٢١]

وبعد ذلك رحل إلى مدينة تلمسان وأقام بها ما يقارب السنة، وتتلمذ على كبار شيوخها.

ثانياً: نبوغ مبكر:

كان الشيخ محمد بن علي السنوسي في صغره يميل إلى الانزواء والانفراد، ويمضي وقتاً طويلاً في التفكير العميق، ويتألم من حال الأمة وما وصلت إليه من الضعف والهوان والضياع، وكان يبحث عن عوامل النهوض، وأسباب توحيد صفوف الأمة، وإحياء الملة الإسلامية، وحدث ذات مرة أن وجده بعض العلماء جالساً فوق كثيب من الرمال تظهر على صفحات وجهه المشرق علامات التفكير العميق، فلما سألوه عن السبب في ذلك، أجاب بأنه: «يفكر في حال العالم الإسلامي الذي لا يعدو عن كونه قطيعاً من الغنم لا راعي له؛ على الرغم من وجود سلاطينه وأمرائه ومشايخ طرقه وعلمائه، فمع أن هناك عدداً كبيراً من المرشدين وعلماء الدين الموجودين في كل مكان، فإن العالم الإسلامي لا يزال مفتقراً أشد الافتقار إلى مرشد حقيقي يكون هدفه سوق العالم الإسلامي أجمع إلى غاية واحدة ونحو غرض واحد، والسبب في هذا انعدام الغيرة الدينية لدى العلماء والشيوخ، وانصرافهم إلى الخلافات القائمة بينهم؛ التي قد فرقتهم شيعاً وجماعات، فأصبحوا لا يُعْنَونَ بنشر العلم والمعرفة، ولا يعملون بأوامر الدين الحنيف، وهو دين توحيد أساسه الاتحاد وجمع الكلمة.

زد على هذا أن على هؤلاء العلماء والشيوخ واجب عظيم في حق الملة الإسلامية، إذ إن الشعوب المجاورة في السودان والصحراء من

---

[٢١] المصدر السابق نفسه (١/١١).

إفريقية الغربية لا تزال تعبد الأوثان، ومع هذا فإنهم بدلاً من وعظ هذه الشعوب الوثنية وإرشادهم إلى الدين القويم، ما زالوا يفضلون القبوع في كل مسجد من مساجد المعمورة غير عاملين بعلمهم، لا هَمَّ لهم إلا راحة أجسامهم، حريصين على لذاتهم، غير قائمين بواجبات مراكزهم، لا ضمائر لهم تؤنبهم على إهمالهم إرشاد هؤلاء المساكين، الوثنيين». [٢٢]

ومع ذلك فقد بُلِّغ السيد من القوافل الواصلة إلى بلده مستغانم أن الإسلام مغلوب على أمره في كل محل، «وأن المقاطعات والخطط المعمورة تذهب من أيدي المسلمين في كل وقت وبسرعة البرق، فالإسلام في حالة التدهور المخيف».

ثم ختم كلامه بقوله: «هذا ما أفكر فيه! فلما سألوه: وماذا يجب على المسلمين عمله لتلافي ما ذكرت، أجاب: سأجتهد، سأجتهد». [٢٣]

لقد كان تفكيره في حال الأمة مبكراً، واجتهد في البحث عن العلل والأسباب التي أدت إلى التدهور والضعف المخيف في كيان الأمة، وذكر أن من أسباب هذا الضياع فقدان القيادة الراشدة، وغياب العلماء الربانيين، وانعدام الغيرة الدينية، والانشغال بالخلافات التي فرقتهم شيعاً وجماعات، والتفريط في حق دعوة الناس إلى الإسلام، وضياع الأقاليم الإسلامية، ولذلك اهتم بالبحث عن عوامل النهوض؛ فرأى أن بدايتها في الإيمان العميق الذي هو أساس كل خير وسبب لحصول البركات ونزول الأرزاق، قال تعالى: [الأعراف: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ} [الأعراف: ٦٩]

إن الإيمان هو القضية الأولى والأساسية لهذه الأمة، فإذا تخلف المسلمون عن غيرهم في وسائل الحياة الحرة الكريمة فمردُّ ذلك إلى انحرافهم عن فهم الإسلام فهماً سليماً، وعن ضعف إيمانهم بقِيمه

---

[٢٢] انظر: السنوسية دين ودولة، ص (١٣).

[٢٣] انظر: المصدر السابق نفسه.

ومُثُلِه، ولا سبيل إلى إصلاح حالهم ومالهم إلا بالإيمان على الوجه الذي بيَّنه الله في كتابه، ورسوله (ص) في سنته. وهو أن يكون طاقة دافعة إلى العمل، وقوة محركة للبناء، وحافزاً طبيعياً للتفوق.[٢٤]

وقد وصل إلى حقيقة مهمة؛ ألا وهي أهمية العلم في نهوض الأفراد والجماعات والأمم، لأن العلم ظهير الإيمان، وأساس العمل الصالح، ودليل العبادة.[٢٥]

لقد كان شغفه بالعلم عظيماً، ورحم الله أبا إسحاق الألبيري عندما قال:

فَلَوْ قَدْ ذُقْتَ من حلواه طَعْماً　　　لاثرتَ التعلُّم واجتهدْتَا
ولم يشغلْكَ عنه هوىً مطاعٌ　　　ولا دنيا بزخْرُفِهَا فُتِنْتَا
ولا ألهاكَ عنه أنيقُ روضٍ　　　ولا خِدْر بزينَتِها كَلِفْتَا[٢٦]
فقُوْتُ الرُّوح أرواحُ المعاني　　　وليس بأن طَعِمْتَ ولا شربْتَا

ثالثاً: الرحلة إلى فاس:

وكانت المرحلة الثانية في الطلب، حيث قصد مدينة فاس في المغرب الأقصى ومكث فيها سبع سنوات تقريباً، فأخذ العلم بالرواية عن أفاضل علماء فاس؛ مثل: حمودة بن حاج، وحمدون بن عبد الرحمن، والطيب الكيراني، ومحمد بن عامر المعواني، وأبي بكر الإدريسي، وإدريس بن زيان العراقي، ومحمد بن منصور، ومحمد بن عمر الزروالي، ومحمد البازعي، والعربي بن أحمد الدرقاوي، وكان العربي الدرقاوي من شيوخ الطريقة الشاذلية، وتبحر ابن السنوسي في معرفة الطرق الصوفية إلى جانب التفقه في علوم الدين، وتحصل على إجازات من علماء راسخين، وأصبح مدرساً بالجامع الكبير بمدينة فاس، ونال المشيخة الكبرى بها.[٢٧]

---

[٢٤] انظر: التمكين للأمة الإسلامية، محمد السيد، ص (٤١).

[٢٥] المصدر السابق نفسه، ص (٦٢).

[٢٦] انظر: عشرون قصيدة في الزهد، محمد أحمد، ص (٤٦).

[٢٧] انظر: السنوسية دين ودولة، ص (١٤).

وأقبل الناس عليه لما رأوا من صلاحه وتقواه وفهمه الدقيق لعلوم الشريعة، وروحه الفياضة وعقله المتنور، وفكره الناضج، وخشيت حكومة السلطان سليمان من نفوذه وبدأت العراقيل، ووجد أن لا فائدة تُرْجى من بقائه بفاس، وقرر الارتحال عنها بعد أن تبلورت أصول الدعوة في ذهنه، وعزم على محاربة الأوهام والخزعبلات التي أبعدت الإسلام عن حقيقته، وحالت بينه وبين أتباعه من أن يحقق لهم ما حققه في عهده الأول من رفعة، وتلك هي الوسيلة الوحيدة التي تمنح المسلمين القوة، وتمكن لهم من دفع عدوهم عنهم، كما أن تجربته مع السلطان أكسبته خبرة في التعامل مع الحكام في المستقبل، ولقد لاحظ في فاس تباعد الأمة عن دينها وعقيدتها وانحرافها عن كتاب ربها وسنة نبيها، وكيف بدأ الغزو الأوروبي يؤثر على المدن المغربية؟ وكيف دخلت البلاد في الصراعات والخلافات الداخلية؟ ولعل الذي جعله يبقى في المغرب الأقصى مدة سبع سنين متتالية جامع القرويين الذي وجد فيه جماعة من العلماء الذين ذكرت بعضهم، وكان يتشوق إلى لقائهم.[٢٨]

ولقد تعمق إحساسه بالخطر الأوروبي، وشعر بالأخطار التي كانت تتهدد هذه البلاد من الدول الصليبية، ولقد سمع بعض الناس يتحدثون عن النكبات التي حاقت

بها من هذه الدول منذ قرنين من الزمن، حين احتل الإسبان أجزاء كثيرة منها، كالمرسي الكبير، ووهران، وعنابة، وتنس، ومدينة الجزائر، ومستغانم (مسقط رأسه)، وما زالت أعمالهم الشنيعة وأفعالهم القبيحة يرويها جيل عن جيل من القتل الذريع، والسبي الشنيع، وإهدار كل حرمة، وتحويل المساجد إلى كنائس كانت تلك الأمور محل تأمل وتفكر من قبل ابن السنوسي.[٢٩]

---

[٢٨] انظر: دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية، للحاجري، ص (٢٧٨).

[٢٩] المصدر السابق نفسه، ص (٢٧٩).

لقد كانت تجربة فاس ثرية بالنسبة لابن السنوسي، وقد نقل لنا شكيب أرسلان عن أحمد الشريف السنوسي ما درسه جده في فاس والشيوخ الذين أخذ عنهم؛ فقال: «ومنهم العلامة الهمام سيدي محمد بن الطاهر الفيلالي الشريف العلوي؛ قرأت عليه: (مختصر السعد)، و(جمع الجوامع)، و(السُلَّم)، وجملة صالحة من مختصر الشيخ خليل، وهو يروي عن الحافظ بن كيران والعلامة الزروالي وشيخهم العلامة ابن الشقرون بأسانيدهم السابقة، وغيرهم من أماثل علماء فاس، ومنهم العلامة المتقي المتفنن أبو المواهب سيدي أبو بكر بن زياد الإدريسي؛ حضرته في علوم كثيرة وقرأت عليه الفرائض والحساب والأربعين ومضاعفاتها، والأسطرلابيين وصناعتها، والعلوم الأربعة: الرياضة والهندسة والهيئة والطبيعة، والأرثماطقيقي، والمساحة، والتعديل، والتقويم، وعلم الأحكام والنسب والوقف والتكسير والجبر، والمقابلة وغيرها.. إلخ»[٣٠] ولقد بقي ابن السنوسي مهتماً بهذه العلوم وقام بتدريسها لبعض طلابه ومريديه.

ويمكن للباحث أن يلاحظ عدة عوامل أثرت في شخصيته لما كان في الجزائر، وظهور خطوط واضحة بعد انتهاء تجربة المغرب الأقصى في فاس، أما العوامل التي أثرت في شخصيته لما كان في الجزائر؛ فمنها:

١- ولادته في بيت شريف مشهور بالعراقة والأصالة، وتأثره بتاريخ أجداده الأدارسة الذين حكموا المغرب، ولذلك صمم على السير في طريق أجداده، ولقد برز اهتمامه بتاريخ أجداده في الكتاب الذي ألفه فيما بعد عنهم وسماه (الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية).

٢- نشأته في بيئة علمية حببت إليه العلم، وفتحت عينيه على حقائقه الكثيرة، فأبوه وعدد من أجداده كانوا من الفقهاء والعلماء.

٣- تأثره بعمته فاطمة التي أشرفت على تربيته في طفولته الأولى، وقد بقي ابن السنوسي في كهولته يذكر بعض توجيهاتها له.

---

[٣٠] انظر: الحركة السنوسية للدجاني، ص (٤٧) نقلًا عن حاضر العالم الإسلامي.

٤- التقاليد والأعراف التي ورثتها أسرته ساعدت في صقل شخصيته، من ذلك اهتمام الأسرة بتربية علمية عملية؛ فيها الدراسة وفيها الفروسية.[٣١]

٥- تأثر ابن السنوسي مما كان يراه من ظلم الولاة العثمانيين، ومن الثورات التي كانت تقوم بها القبائل ضدهم.

٦- لمس أطماع الدول الأوروبية في بلاده.

وأما الخطوط العريضة التي اتضحت في شخصيته بعد الإقامة بفاس؛ فمنها:

١- الصوفية التي تعمَّق ابن السنوسي في دراستها، وساعدته الظروف على ذلك؛ حيث كانت فاس مركزاً نشطاً للطرق الصوفية، وميداناً خِصْباً لنشاطها، ومعلوم لدى الباحثين أن الشمال الإفريقي على وجه خاص حافل بالحركات الصوفية ولدى أهلها اهتمام كبير بها. وكان من الطبيعي أن يتأثر ابن السنوسي بالنظام المغربي للصوفية.

ولقد استمر اهتمامه بالصوفية حتى اخر حياته، وبقي خطها واضحاً في شخصيته، حتى إنه نظم طريقة خاصة عرفت باسمه، وكتب كتاباً سماه (السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين)؛ تحدث فيه عن الطرق الصوفية عامة، ووصف الطريقة المثلى التي رضي بها والتي عرفت بنسبتها إليه[٣٢]، وكانت تجربته في الصوفية قد أعطته خبرة في التعامل معها؛ فهو لم يقبل الصوفية على إطلاقها، ولم يرفضها بالجملة، بل قيدها بالكتاب والسنة، وجعل طريقته مبنية على «متابعة السنة في الأقوال والأحوال والأشغال بالصلاة على النبي في عموم الأوقات»[٣٣]، وقد اهتم

بالصوفية اهتماماً كبيراً، وظهرت هذه النزعة في منهجه التربوي الذي جعله لأتباعه، والذي سنفصله في الصفحات القادمة بإذن الله تعالى.

---

[٣١] انظر: الحركة السنوسية، للدجاني، ص (٤٣).

[٣٢] إمام التوحيد محمد بن عبد الوهاب، للقطان، ص (١٠٩).

[٣٣] انظر: السلسبيل، ص (٧).

٢- اهتمامه بالدراسة الفقهية، فقد واصل ابن السنوسي في فاس دراسته الفقهية على المذهب المالكي، ودرس كتب الفقه على يد شيوخه، وقد ذكر في مقدمته (للموطأ) أنه أخذه على طريقتي المغاربة والمشارقة، وذكر اثنين من شيوخه المغاربة؛ وهما: محمد بن عامر المعداني، ومحمد بن عبد السلام الناصري، ولقد ظهرت سعة اطلاعه في الفقه المالكي وفقه المذاهب الأخرى في تأليفه، ولقد بقي اهتمامه بالجانب الفقهي حتى اخر حياته، واستمر على المذهب المالكي مع اجتهاده فيه ومخالفته للمالكية في مجموعة من المسائل سنبينها في الصفحات القادمة إن شاء الله، ونلاحظ بأن اهتمام ابن السنوسي بالتصوف والفقه أكسبت حركته طابعاً مميزاً، فهو لم يغلُ في صوفيته، ولم يغرق في شطحاتها، كما أنه لم يغلُ ولم يقف عند الحروف الفقهية، ولم يتجمد في فهم أحكامها؛ بل زاوج بين دراستها، فأكسب صوفيته طابع السنة، ولجمها بحدود الشرع، وأعطى فقهه رونقاً وروحانية متألقة بعيدة عن الجمود.

٣ اهتمامه بالحركات الإصلاحية، والوقوف في وجه الحكام ضد انحرافهم، والوقوف معهم لتحقيق الإصلاح، وتنظيم تكتل شعبي يسند هذه المطالبة ويعززها، فقد زاد هذا الاهتمام بفاس عاصمة الدولة المغربية ومركزها المهم في نشر الوعي، وإشعاع العلم.[٣٤]

يقول الدكتور محمد فؤاد شكري: «ولما كان حبه لمنفعة المسلمين ورغبته في أن يرى العدل باسطاً جناحه على أهل السلطنة وعلى شعوب الإسلام طرّاً، هي كل ما يريد في حياته، فقد أكثر من الموعظة الحسنة في أثناء دروسه، وجرب مع الأهلين وأصحاب الشأن في فاس طرق الإرشاد بالحسنى تارة وبالشدة أخرى، ولكن دعوته إلى العدل والخير، وجمع كل المسلمين، وتطهير النفوس والابتعاد عن المنكر؛ لم تثمر ثمرتها، بل إن كل ما حدث هو تنبه حكومة السلطان مولاي

---

[٣٤] انظر: الحركة السنوسية، للدجاني، ص (٥١).

سليمان إلى هذه الدعوة، وتلمس الخطر من جانبها، خشية أن تنقلب الدعوة الدينية إلى أخرى سياسية، قد تعصف بالسلطنة.

وعلى ذلك فقد شددت الحكومة في مراقبة السيد، فوجد ألا فائدة ترجى من بقائه في فاس، وقرر الارتحال».[٣٥]

رابعاً: الأسباب التي جعلت ابن السنوسي يغادر فاس:

في عام (١٢٣٥ هـ)[٣٦] غادر ابن السنوسي فاس إلى الجزائر، وقد ذكر المؤرخون عدة أسباب جعلته يغادر فاس؛ منها:

١- أن فتناً كثيرة ثارت في فاس، حيث عمَّت الفوضى المدينة، واضطر أهل الحل والعقد أن يقوموا بضبطها. ثم حدثت فتنة أخرى بسبب نزاع جرى بين القاضي والمفتي رفع أمره للسلطان سليمان، فأخَّر المفتي عن الفتوى، فغضب للمفتي جماعة من المدرسين وطلبة العلم، وتحزبوا على القاضي، فكتبوا رسماً يتضمن الشهادة بجوره وجهله،[٣٧] ثم اضطرمت نار الفتنة حتى انتهت بخروج أهل فاس على السلطان سليمان، وعزموا على بيعة المولى إبراهيم بن يزيد زوج ابنة السلطان، فامتنع أولاً فهددوه قائلين: «إن لم نبايعك بايعنا رجلاً من ال المولى إدريس رضي الله عنه» فخاف خروج الأمر من بينهم فوافق[٣٨]، وكان من العلماء الذين حضروا البيعة محمد العربي الدرقاوي؛ وهو أحد أساتذة ومشايخ ابن السنوسي، ولم يكن دور ابن السنوسي كبيراً في تلك الأحداث، وكانت الأحوال في فاس تدعو ابن السنوسي للمغادرة، وخصوصاً بعد أن استطاع السلطان سليمان استعادتها ودخول شيخه الدرقاوي إلى السجن وتزعزع مركز العلماء والطلاب الذين وقفوا ضد السلطان سليمان، ولا شك أن تلك

---

[٣٥] انظر: السنوسية دين ودولة، ص (١٤).

[٣٦] انظر: سياحتي في صحراء إفريقية الكبرى، لصادق المؤيد، ص (٦٦).

[٣٧] انظر: الاستقصاء، للناصري (١٤٦/٨).

[٣٨] المصدر السابق نفسه (١٥٠/٨).

الأحداث أكسبته خبرات كثيرة وأضافت إلى رصيده تجارب مهمة في حياته المستقبلية.[٣٩]

٢- ومن الأسباب التي شجعت ابن السنوسي على مغادرة فاس: أنه كان قد أخذ حظاً وافراً من الدراسة على علمائها، وتاقت نفسه للأخذ على علماء جدد، ولذلك نراه في طريق عودته من فاس يدخل في أعماق صحراء الجزائر، ليتعرف على أشهر الزوايا، وليقابل مقدميها، حتى بلغ عين مهدي[٤٠]، فمكث فيها مدة قصيرة، ثم قصد (الأغوات) التي كانت تمتاز بموقعها في جنوب الجزائر بوصفها ملتقى القوافل الاتية من السودان الغربي. وفيها مكث بعض الوقت يلقي دروساً في الفقه والشريعة، ثم ارتحل منها إلى مسعد، ثم إلى جلفة، ثم إلى بوسعدة، وهو في أثناء رحلته يعظ ويدرس ويفقه الناس بأمور دينهم[٤١]، وكان لرحلته في جنوب الجزائر أثر في نضوج شخصيته، وفي إعداده لما أخذ نفسه به، فها هو ذا يشهد ذلك العالم الذي يختلف إلى حد بعيد عن العالم الذي عهده في مدن الجزائر، وفي فاس بالمغرب الأقصى، وها هو ذا يرى ميادين جديدة للدعوة والإصلاح تتفتح له، عالم بدوي بعيد عن صور الحضارة وتعقيداتها، ثم هو في الوقت نفسه ملتقى الإسلام والوثنية.

وقد كانت تلك البوادي، على سكونها وهدوئها، تضطرب بألوان من الحركات الدينية والأعمال التجارية، وكانت الزوايا الدينية التي يقوم عليها أصحاب الطرق الصوفية هي أهم مراكز هذه الحركات، أو لعلها المراكز الوحيدة لها، وكانت هذه الزوايا، أو هذه المراكز الثقافية، تقع في الغالب على طرق التجارة التي تربط السودان بالشمال، وتنتقل بوساطتها السلع في قوافل ما تزال رائحة وغادية.

---

[٣٩] انظر: الحركة السنوسية، ص (٥٥).

[٤٠] انظر: السنوسية دين ودولة، ص (١٤).

[٤١] انظر: الحركة السنوسية، ص (٥٧).

وفي هذه الزوايا يلتقي رجال القوافل القادمون من الجنوب والعائدون من الشمال، يجلسون إلى شيوخها، ويستروحون بالتلقي عنهم، والانغمار في جوهم، وبتبادل الأحاديث المختلفة عن البلاد التي جاؤوا منها أو مروا بها، وبذلك كانت تلك الزوايا محلاً ثرياً غنياً بالمعلومات[٤٢] وأخبار الشعوب الإسلامية، وفي هذه الزوايا كان نشاط ابن السنوسي في السودان الغربي يقوم بواجب الدعوة إلى الله تعالى، وقد أيقن أن من عوامل نهوض الأمة القيام بهذا الدور العظيم، فإن الإسلام

الذي امن به ابن السنوسي لا يكتفي بأن يكون في نفسه صالحاً مهتدياً، وإنما يريد منه أن يكون مصلحاً هادياً، متسلحاً بالعلم، ومتحلياً بالحلم، ومتجملاً بالصبر، ومتحرراً من كل القيود التي تشده إلى الأرض، وتقعد به عن كلمة الحق، وإظهار الإسلام لكل أنواع البشر، وفي كل البقاع، ولم يبال ابن السنوسي بالتعب والنصب في سبيل رسالته ودعوته، بل كان محتسباً الأجر والمثوبة عند الله تعالى، وكان يرى أن شرفه منوط بأداء تلك الرسالة المقدسة.

وقد مكث في تلك الديار ما يقارب العامين معلماً ومربياً وداعياً.

ولقد استفاد من هذه التجربة دروساً عظيمة جعلته يركز في مستقبله على دعوة البادية لما رأى فيهم من صفاء الفطرة، وجمال الخلق، وحب التدين وبعدهم عن الفساد وتعقيد الحياة الاجتماعية، وسيطرة الأهواء السياسية كما لاحظ ذلك في المدن التي عاش فيها.[٤٣]

٣ ومن الأسباب التي جعلته يغادر فاس رغبته الملحة لحج بيت الله الحرام، وزيارة مسجد النبي (ص)؛ ولذلك غادر بلاد السودان الغربي، في رفقة قافلة ذاهبة إلى المشرق.[٤٤]

---

[٤٢] انظر: دراسات وصور، للحاجري، ص (٢٨١، ٢٨٢).

[٤٣] دراسات وصور، للحاجري، ص (٢٨٢).

[٤٤] المصدر السابق نفسه، ص (٢٨٣).

خامساً: رحلته إلى المشرق:

كان التفكير عند ابن السنوسي للسفر إلى مكة طبيعياً، فهو من ناحية لابد أنه تاقت نفسه إلى بيت الله الحرام، وحلم طويلاً بالعيش في الأراضي المقدسة، وقضاء فريضة الحج. كما أنه رأى في الإقامة بمكة فرصة للقاء كبار علماء العالم الإسلامي، وقد استقرت في نفسه نصيحة أحد شيوخه؛ إذ قال له: «إن الارتحال المستمر صعب؛ فإذا أردت أن تستزيد من العلم فما عليك إلا السفر إلى مكة حيث يلتقي جميع علماء المسلمين»[٤٥] بالإضافة إلى التعرف على الشعوب الإسلامية عن قريب.

وقد ذكر بعض المؤرخين[٤٦] أن ابن السنوسي قبل أن يسافر إلى المشرق رجع إلى

بلده مستغانم، وفيها قام بإتمام أول زواج له؛ إذ بنى بإحدى بنات عمومته، ثم نشب بينه وبين أقاربه الأدنين خلاف حول أملاكه، واحتكم للقضاء، فحكم له بالأملاك والريع ولأقاربه بالسجن، فتنازل عن الريع وطلب إخلاء سبيلهم، فكان له ذلك. ثم إنه بعد ذلك صفى أملاكه وانتقل إلى جهة قسنطينة، وجاء عند عرب اسمهم أولاد نايل كانوا في جنوب شرق قسنطينة، فبنى عندهم زاوية، ومارس هناك الوعظ والتعليم والإرشاد.

وقرر ابن السنوسي بعد ذلك الارتحال إلى مكة، وعرض على زوجته أن ترافقه فلم ترغب في ذلك، فرأى أن يطلقها لعلمه بطول المدة التي يرغب فيها بالانقطاع عن بلده.[٤٧]

وولد له من زواجه الأول طفل توفي وهو صغير، ثم ماتت أمه بعد ذلك.[٤٨]

---

[٤٥] انظر: الحركة السنوسية، ص (٥٩).

[٤٦] منهم: أحمد الدجاني.

[٤٧] انظر: الحركة السنوسية، للدجاني، ص (٥٨).

[٤٨] انظر: الفوائد الجلية (١٣/١).

وغادر ابن السنوسي الجزائر ودخل تونس وقابس وجامع الزيتونة، واستفاد من شيوخها واستفاد الطلاب منه، وطلب منه التدريس ولبى الطلب، ثم واصل سيره ودخل طرابلس الغرب، وكان ذلك في حكم يوسف القرمانلي الذي كان مستقلاً عن الدولة العثمانية، فأكرم نزله، ومكث في مدينة طرابلس وضواحيها مدة للوعظ والإرشاد والتعليم ونفع العباد، ولم يترك بها مسجداً معروفاً إلا ألقى فيه دروساً، وتعلق به ال المنتصر وأصبحوا فيما بعد هم النائبين عنه في طرابلس، وسافر إلى زليطن للوعظ والإرشاد والدعوة، واستطاع أن يكسب لدعوته أنصاراً من مصراتة وزليطن وطرابلس. ومن أشهر الأسر التي أصبحت من ركائز الدعوة السنوسية فيما بعد: ال المحجوب، وال الاشهب، وال الدردني، وال عمران بن بركة، وال يوسف، وال ابن فرج الله، وال المقرحي، وال الثني، وال الغرياني، وال العيساوي، وال الغزالي، وال الهوني، وال الزناتي،[٤٩] وساعده على تعلق الناس به خلق كريم، وطلعة بهية، وقبول من رب العالمين.

ونستطيع أن نحدد تاريخ دخول ابن السنوسي طرابلس الغرب من حديث حفيده

أحمد الشريف؛ الذي تحدث عن اجتماع جده بأحد مريديه وهو عمران بن بركة: «فكان اجتماعه به أثناء مروره عليهم قادماً من المغرب إلى المشرق سنة ثمان وثلاثين بعد المئتين والألف في بلده زليطن بغرب طرابلس الغرب»[٥٠]

ومن خلال مروره على طول الساحل الإفريقي تعرف على أحوال مسلمي المغرب وكوَّن فكرة عن أوضاعهم، وأتاحت له تلك الرحلات التعرف على أناس كثيرين وعلى أماكن كثيرة، وقد استفاد من هذا التعارف فيما بعد عند عودته من الحجاز، وكان من طبيعة ابن السنوسي أن يوطد

---

[٤٩] المصدر السابق نفسه (١/١٥، ١٦، ١٧).

[٥٠] انظر: أحمد الشريف، ص (٨) نقلًا عن الدجاني، ص (٥٩).

علاقاته بمن يتعرف عليهم، ووثق صلته بأشخاص كثيرين، ونجح في كسب قلوب الكثيرين حتى إن رجلاً كعمران بن بركة كان يريد مرافقة ابن السنوسي، ولكنه طلب منه التريُّث والانتظار حتى يرسل له.[٥١]

وواصل ابن السنوسي سيره ودخل برقة، وقبل وصوله إلى مدينة إجدابية مر على نجع شيوخ المغاربة الشيخ علي لطيوش، فأكرمه وقام بخدمته خير قيام دون سابق معرفة، ورافقه إلى إجدابية وجهزه إلى أوجلة، ولم يمر ببنغازي ولا الساحل، وتعرف على الشيخ عمر بوحوا الأوجلي وكان في رفقته عبد له، وعبد الله التواتي، واستمر في رحلته مع الصحراء بوساطة القوافل حتى وصل القاهرة.[٥٢]

سادساً: دخوله القاهرة:

دخل ابن السنوسي مصر وكان الحكم انذاك لمحمد علي باشا وكان صاحب الجولة والصولة، وكان ذلك في عام (١٢٣٩ هـ/١٨٢٤ م) وكان محمد علي باشا قد قبض على زمام الأمور في مصر بقوة منذ سنة (١٨٠٥ م) وكانت فرصة لابن السنوسي ليتعرف على تجربة محمد علي باشا عن قرب، وقد لاحظ ابن السنوسي عدة أمور جعلته لا يرتاح إلى نوع الحكم الذي أقامه محمد علي باشا وطريقة الإصلاح، وازدادت قناعة ابن السنوسي فيما بعد بخطورة حركة محمد علي باشا التي كانت سياسته تخدم أعداء الإسلام، وهيأت سياسته المنطقة بأكملها لمرحلة استعمارية

ما زالت اثارها تعاني منها الأمة حتى اليوم، لقد استطاعت السياسة النصرانية الأوروبية أن تحقق أهدافها الاتية بوساطة محمد علي باشا:

١- تحطيم الدولة السعودية الأولى التي كادت أن تكون خنجراً مسموماً في ظهر الأطماع البريطانية في الخليج العربي خصوصاً، والمشرق عموماً.

---

[٥١] انظر: الحركة السنوسية، للدجاني، ص (٦٠).

[٥٢] انظر: الفوائد الجلية (١/١٥ إلى ٢١).

٢- فتح الأبواب على مصراعيها لإقامة مؤسسات معادية للدين الإسلامي والمسلمين في محافل ماسونية وإرساليات تبشيرية وأديرة وكنائس ومدارس في بذر التيارات القومية المعادية للإسلام، وبث الأفكار المعادية لمصالح الأمة الإسلامية. وقد فصلت ذلك في كتابي (الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط).

٣- إتاحة الفرصة لشركات أوروبية تتحكم في الاقتصاد.

٤- منح امتيازات واسعة للأوروبيين، ومنع أهالي مصر والشام من تلك الامتيازات.

٥- خنق التيار الإسلامي الأصيل، وضيق على العلماء والفقهاء، ولم يسمح للمسلمين أن يتكتَّلوا من أجل أهدافهم النبيلة.[٥٣]

وأما حالة الأزهر في ذلك الوقت فقد كان في انحطاط، فالعلوم التي تدرس فيه تراكم عليها الغبار لقدمها، وفقدت لمعانها وبريقها لانعدام الإبداع فيها والتزام التقليد؛ أما علماء الأزهر فقد عمل محمد علي باشا على إضعاف دورهم، ووقعت بينهم المنافسات والضغائن، واستعان بعضهم بالحكام واستعداء السلطة على بعضهم، وعمل محمد علي باشا على تقويض صف العلماء؛ كالخلاف الذي وقع بين الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الأزهر، وبين بعض المشايخ الاخرين؛ حيث ترتَّب على ذلك الخلاف صدور الأمر من محمد علي باشا إلى الشيخ الشرقاوي بلزوم داره وعدم الخروج منها ولا حتى إلى صلاة الجمعة،[٥٤] وسبب ذلك كما يقول الجبرتي: «أمور وضغائن ومنافسات بينه وبين إخوانه...، فأغروا به الباشا ففعل به ما ذكر، فامتثل الأمر ولم يجد ناصراً وأهمل أمره»[٥٥]

وقد أصيبت العلوم الدينية في الأزهر بالجمود والتحجر نتيجة لعدة عوامل؛ منها:

---

[٥٣] انظر: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، لعلي الصلابي، ص (٥٩٠).

[٥٤] المصدر السابق نفسه.

[٥٥] انظر: عجائب الاثار (١٣٤/٣).

١- الاهتمام بالمختصرات:

«فأصبح الفقهاء ينقلون أقوال من قبلهم، ويختصرون مؤلفاتهم في متون موجزة، ويأخذون هذه الأقوال مجردة من أدلتها من الكتاب والسنة، مكتفين بنسبتها إلى أصحابها»[٥٦]

ويذكر الإمام الشوكاني اهتمام الناس في عصره بهذه المختصرات، والخطورة التي تنطوي على ذلك فيقول: «قد جعلوا غاية مطالبهم ونهاية مقاصدهم العلم بمختصر من مختصرات الفقه التي هي مشتملة على ما هو من علم الرأي والرواية، والرأي الغالب، ولم يرفعوا إلى غير ذلك رأساً من جميع أنواع العلم، فصاروا جاهلين بالكتاب والسنة وعلمهما جهلاً شديداً، لأنه تقرر عندهم أن حكم الشريعة منحصر في ذلك المختصر، وأن ما عداه فضلة أو فضول، فاشتد شغفهم به وتكالبهم عليه، ورغبوا عما عداه، وزهدوا فيه زهداً شديداً»[٥٧]

٢- الشروح والحواشي والتقريرات:

انتشرت الشروح والحواشي والتقريرات في تلك الفترة في الأزهر الشريف وفي عموم الأمة، فكانت كالأغلال التي كبَّلت العقول وأدَّت إلى جمود العلوم، وكانت توجد بعض الحواشي والشروح المفيدة، ولكنها لا تكاد تذكر، وكانت مناهج التعليم بعيدة عن منهج أهل السنة والجماعة، وكان الأزهر مركزاً لعلوم المتكلمين البعيدة عن روح الإسلام، وأصيبت المناهج الإسلامية بالإضافة إلى الجمود بموجة من الجفاف: «... وأصبحت الدراسات الإسلامية دراسة لا حياة فيها ولا روح، وجرت عدوى هذه الدراسات إلى جميع أبواب الفقه؛ حتى الأبواب التي كانت يجب أن تكون دراسة الروح أهم عنصر فيها...»[٥٨]

---

[٥٦] انظر: واقعنا المعاصر، ص (٥٦).

[٥٧] انظر: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (٨٦/١).

[٥٨] المجتمع الإسلامي، محمد المبارك، ص (٢١٠).

٣- الإجازات:

من عوامل تدهور الحياة العلمية في الأزهر في تلك الفترة: التساهل في منح الإجازات؛ فكانت تعطى جُزافاً، إذ كان يكفي أن يقرأ الطالب أوائل كتاب أو كتابين مما يدرسه الأستاذ حتى ينال إجازة بجميع مروياته، وكثيراً ما أعطيت لمن طلبوها من أهل البلاد القاصية عن طريق المراسلة، فكان العالم في القاهرة يبعث إلى طالب في مكة بالإجازة دون أن يراه أو يختبره.[٥٩]

فكان ذلك التساهل من الأمور التي شغلت المسلمين عن تحصيل العلوم، كما كان ينبغي، وهكذا كان التساهل في منح الإجازات عاملاً مهماً من عوامل انحدار المستوى التعليمي وضعف العلوم الشرعية، حيث أضحى الهدف عند كثير من المنتسبين إلى العلم، حيازة أكبر عدد من هذه الإجازات الصورية التي لم يكن لها في كثير من الأحيان أي رصيد علمي في الواقع.[٦٠]

٤- رفض فتح باب الاجتهاد:

أصبحت الدعوة لفتح باب الاجتهاد تهمة كبيرة تصل إلى الرمي بالكبائر، وتصل عند بعض المقلدين والجامدين إلى حد الكفر، وكانت الدعوة إلى غلق باب الاجتهاد توارثها المتعصبون على مر العصور، وأصبح حرصهم في أواخر الدولة العثمانية ظاهراً، ونافحوا من أجل عدم فتحه، ومقاومة كل من يحوم حوله؛ ممَّا شجع المغتربين بالسعي الدؤوب لاستيراد المبادأى والنظم من أوروبة، ولقد ترتب على إغلاق باب الاجتهاد اثار خطيرة لا تزال أضرارها تنخر في حياة المسلمين إلى يومنا هذا. «فحين يتوقف الاجتهاد مع وجود دواعيه ومتطلباته فماذا يحدث؟

---

[٥٩] الانحرافات العقدية والعلمية، للزهراني (٥٩/٢).

[٦٠] المصدر السابق نفسه (٦٤/٢).

يحدث أحد الأمرين:

إما أن تجمد الحياة وتتوقف عن النمو، لأنها محكومة بقوالب لم تعد تلائمها؛ وإما أن تخرج على القوالب المصبوبة، وتخرج في ذات الوقت من ظل الشريعة؛ لأن هذا الظل لم يمد بالاجتهاد حتى يغطيها، وقد حدث الأمران معاً، الواحد تلو

الاخر.. الجمود أولاً، ثم الخروج بعد ذلك من دائرة الشريعة». [٦١]

لقد عانت الأمة من غلق باب الاجتهاد، وكانت الدولة العثمانية في أواخر عهدها لم تعطِ هذا الباب حقه، وكانت عجلة الحياة أسرع وأقوى من الجامدين والمقلدين الذين ردوا كل جديد، وخرج الأمر من أيديهم: «وهكذا توقفت الحركة العقلية عند المسلمين إزاء كل جديد تلده الحياة، والحياة ولود لا تتوقف عن الولادة أبداً، فهي تلد كل يوم جديداً لم تكن تعرفه الإنسانية من قبل، وكان من هذا أن مضى الناس من غير المسلمين يواجهون كل جديد، ويتعاملون معه، ويستولدون منه جديداً، وهكذا سار الناس من غير المسلمين قُدُماً في الحياة، ووقف المسلمون حيث هم لا يبرحون مكانهم الذي كان عليه الاباء والأجداد من بضعة قرون»[٦٢]

٥- التعصب المذهبي:

استمرَّ التعصُّبُ المذهبي في الأزهر يضعف المستوى التعليمي، وانحدرت العلوم، وتكبلت العقول والأفهام وفرَّق كلمةَ المسلمين وأفسد ذات بينهم، وزرع العداء والشقاق بين أفرادهم وجماعتهم بعد أن تحزبوا طوائف وجماعات، كل طائفة تناصر مذهبها، وتعادي غيرها من أجله، وفي تلك الفترة تفاقم هذا التعصب وعم الأقطار الإسلامية، ولم يسلم منه قطر ولا مصر؛ فالجامع الأزهر كان ميداناً رحباً للصراعات المذهبية؛ خصوصاً بين الشوافع والأحناف، وذلك من أجل التنافس

[٦١] انظر: واقعنا المعاصر، ص (١٥٩).

[٦٢] انظر: سد باب الاجتهاد وما ترتب عليه، د. عبد الكريم الخطيب، ص (١٤٤).

الشديد على مشيخة الأزهر.[٦٣] إن العصبية المذهبية أوجدت حواجز كثيفة بين المسلمين في القرون الأخيرة؛ فأضعفت شعورهم بوحدتهم الإسلامية اجتماعياً وسياسياً، وأورثت فيما بينهم من العداوات ما شغلهم عن أعداء الإسلام على اختلاف أنواعهم، وعن الأخطار المحدقة بالمسلمين والإسلام...؟[٦٤]

وكانت زيارته لمصر قد رسخت في نفسه ضعف دولة الخلافة من جهة، وزاد

ضعفها بظهور حكومة محمد علي باشا على مسرح الأحداث في مصر، وقد وصل إلى قناعة مهمة في الإصلاح والنهوض؛ من أهمها:

١- أن المسلمين كانوا في حاجة ضرورية إلى العلماء الربانيين الذين يقومون بنشر الدعوة للدين القويم.

٢- أهمية إحياء مبدأ الشورى على مستوى الحكومات، وخطورة الحكام المستبدين الذين يتحكمون في رقاب الأمة باسم الإسلام.

٣- خطورة جمود العلماء وتعصبهم وتقاعسهم في نشر العلوم النافعة بين جميع طبقات الشعب.

٤- أهمية تعلم الصنائع وتعميمها لسد حاجات الشعب، وتحبيب عوام المسلمين في الفروسية والرياضة واستعمال السلاح.

٥- خطورة التسويف وترك العمل الجاد الخلاق.

وقد عمل ابن السنوسي في تلك الفترة على إكمال فكره ورأيه، وظهر بهذه النتيجة التي تقول: إن الحاجةَ مُلحَّةٌ إلى تحصيل علوم كثيرة غير العلوم العقلية والنقلية التي استفادها من فاس، واقتنع أن تفوق أوروبة هو وليد العلم الذي سبب لهم التفوق في مجال الصناعة والرياضة، والفنون الحربية العملية، وقد لمس ذلك في

---

[٦٣] انظر: عجائب الاثار (٢/٢٤٢).

[٦٤] انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٢/٨٦).

المشاريـع التي أشرفت عليها فرنسة وبريطانية في مصر في زمن محمد علي باشا.

والنتيجة الثانية أن من أسباب عدم تقدم المسلمين وعدم اتحادهم؛ اختلاف المذاهب وكثرة الطرق، والحكم الفردي الاستبدادي، وابتعاد الأمة عن روح الإسلام المتمثِّل في كتاب الله وسنة رسوله (ص).[٦٥]

وبعد هذه التجربة القصيرة في مصر قرر مواصلة سفره إلى الحجاز بعد أن أقام عاماً واحداً، وقد أحدثت زيارته لها اثاراً في نفسه؛ من ذلك: أنه ازداد إيماناً بأن دولة الخلافة كانت في طريق الانحلال والاضمحلال، وقد ذكر المؤرخ التركي أحمد حلمي قوله: «وأحدثت هذه الزيارة في نفسه تبدُّلاً عظيماً، وانتقش في ذهنه أن

الدولة العثمانية في طريق الانحلال والاضمحلال».[٦٦]

لقد خبر ابن السنوسي أوضاع الدولة العثمانية في وطنه الأول الجزائر؛ حيث تسلط الولاة الأتراك وحكمهم الاستبدادي، وعجز الدولة عن منعهم من الظلم، وجاء إلى القاهرة فرأى حكم محمد علي باشا وانفراده بشؤون مصر، فزاد اقتناعاً بعجز الدولة وضعفها(١).

سابعاً: دخول الحجاز:

دخل ابن السنوسي الحجاز عام (١٢٤٠ هـ/١٨٢٥ م)، ونزل بمكة المكرمة وكانت تلك الزيارة لمكة ذات أثر كبير في قيام الدعوة السنوسية وظهور شأنها، وساعد على هذا جملة أسباب:

١- استطاع ابن السنوسي أن يتحصَّل على أنباء عظيمة عن أحوال وأخلاق المسلمين الوافدين إلى مكة.

٢- أتيحت له فرصة طيبة للاحتكاك بعلماء وفقهاء، ومفكري الأمة، وتبادل معهم الاراء، والأفكار في كيفية النهوض وإعادة مجد الأمة.

---

[٦٥] انظر: السنوسية دين ودولة، ص (١٨).

[٦٦] انظر: الحركة السنوسية، ص (٦٥).

٣- كانت مكة منبراً مهماً للدعوة، ولذلك اشتغل ابن السنوسي بنشر العلوم وتحصيلها والمناظرة فيها، واجتهد في دراسة المذاهب الإسلامية حتى حذق مخاطبة جميع العالم الإسلامي.

٤- أتيحت له دراية بحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن قرب، وعاشر أتباع الدعوة السلفية ومريديها، وتتلمذ على علمائها وشيوخها، ودرس الحركة السلفية دراسة واعية في مواقفها السياسية واجتهاداتها العملية.

٥- شيوخه في مكة:

أقبل ابن السنوسي في مكة على العلماء يتعرَّف عليهم ويأخذ عنهم، لقد كان تشوقه للعلم في أخذه يبدو جلياً في أي مكان حلَّ فيه، وكانت مكة تضم عدداً من العلماء المسلمين يمثلون المذاهب والاتجاهات الفكرية المختلفة، ففيهم الصوفي

وفيهم المذهبي وفيهم السلفي، وهذا جعله يطلع على معظم الاتجاهات في عصره، ومن أشهر العلماء الذين أخذ عنهم:

١- أبو سليمان عبد الحفيظ العجمي مفتي مكة وقاضيها.

٢- أبو حفص عمر بن عبد الرسول العطار، وقد ذكرهما في رسالته التي كتبها، كمقدمة لموطأ مالك باعتبارهما العالِمَيْنِ الذين يروي الموطأ عنهما من المشارقة.

٣- أحمد الدجاني، حيث أخذ عنه ابن السنوسي عدداً من الطرق الصوفية.

٤- أحمد بن إدريس: من أفضل شيوخ ابن السنوسي، وقد تأثر به ابن السنوسي تأثراً عظيماً، وقد أخذ عنه ابن السنوسي عدداً من الطرق الصوفية، ودرس عليه الحديث والسنة، وولد أحمد بن إدريس سنة (١١٧٣

هـ) بميسورة،[٦٧] أصله من المغرب الأقصى، وتلقى العلم على أكابر علمائها، ثم هاجر إلى مكة واستقر في الحجاز، وأصبح من علماء وقته، ومرَّ هذا العالم بالجزائر وتونس وطرابلس وبنغازي سيراً على الأقدام، واستقر فترة من الزمن في بنغازي، ثم رحل إلى الإسكندرية بحراً، وأثنى على أهل بنغازي وأهل الجبل الأخضر لما رأى عندهم من محبة الخير والصلاح، وقال فيهم: «هذه بلادنا، فيها تحيا أورادنا، حيُّها سعيد، وميِّتُها شهيد، طوبى لمن أراد الخير لأهلها، وويل لمن أراد الشر بأهلها».[٦٨]

ودخل الحجاز واستمر يتنقل بين مكة والمدينة والطائف ما يقارب ثلاثين سنة، واستفاد منه خلق كثير من أصقاع العالم الإسلامي، من مصر، والسودان، والهند، واليمن، وبلاد المغرب، وغيرهم، وكان دخول الحجاز عام (١٢١٣ هـ).[٦٩]

وعندما دخل سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود الحجاز عام (١٢٢١ هـ) لم يتعرضوا للشيخ أحمد بن إدريس بأذى، وكذلك أتباعه، وقد وصف ابن إدريس بأنه ذو ميول سلفية.

قضى ابن السنوسي سنوات عديدة مع أستاذه ابن إدريس إلى أن اضطر الأخير إلى الارتحال من الحجاز: وكان سبب الارتحال ما لقيه ابن إدريس من عنف السلطات

الحكومية، ومعارضة علماء مكة الذين صاروا ينقدون السيد على اعتبار أنه كان لا يتفق في منهجه مع ما اعتاد عليه هؤلاء من أزمان طويلة، حتى صاروا يعدونه مبتدعاً، ثم انقلب نقدهم اضطهاداً اضطر بسببه السيد ابن إدريس لمغادرة مكة إلى (صبيا العسير)، وكانت (صبيا العسير) من أملاك الدولة السعودية، ومبادأى الدعوة السلفية متمكنة في نفوس أهلها، وهذا ما كان يكرهه علماء الدولة العثمانية في مكة وأتباعها.

---

[٦٧] انظر: الدجاني، ص (٦٧).

[٦٨] انظر: الفوائد الجلية، ص (٢٤).

[٦٩] المصدر السابق نفسه، ص (٢١ إلى ٢٣).

إن ارتحال أحمد بن إدريس إلى صبيا دليل على حسن الصلة التي بينه وبين أتباع حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب،[٧٠] وسافر ابن السنوسي مع أستاذه إلى صبيا وأقام معه هناك حتى وفاته.[٧١]

إن تتلمذ ابن السنوسي على أحمد بن إدريس أفاده كثيراً، وقد توثقت العلاقة بين ابن السنوسي وشيخه ابن إدريس، وأصبحت علاقة قوية جداً يوضحها أحمد الشريف في كتابه (الأنوار القدسية) ما نقله عن ابن إدريس: «... أما ولدنا السيد محمد بن السنوسي فنحن أمرناه أن يدل الخلق على الله، ويجذب الطالبين إلى الله؛ إياكم ثم إياكم من كل ما يقطعكم عن صحبته، فإنه النائب عنا، قد اختاره الله لذلك، وقد طلب منا مراراً أن نجعل ذلك لمن يقوم به غيره فلم نر فيه المصلحة إلا هو... ونحن ما أقمناه حتى أقامه الله، فقد قام امتثالاً لأمره، فلم يكن له غرض لطلب دنيا ولا طلب جاه».[٧٢]

لقد أخذ ابن السنوسي من شيخه الإذن لإعطاء العهود وتلقين الذكر، فأذن له وأمره «أن يدل الخلق على الله، ويجذب الطالبين إلى الله»،[٧٣] ولم يلبث ابن السنوسي طويلًا بعد ذلك حتى بنى أول زاوية له في الحجاز، وباشر الدعوة في حياة شيخه ابن إدريس، وشرع ابن السنوسي في إلقاء الدروس في مكة وتعليم من يجتمع حوله من المريدين وطلاب العلم، ويعتبر المؤرخون زاوية أبي قيس أول الزوايا التي أسسها ابن السنوسي بعد اعتزامه القيام بالدعوة، واختياره لنظام الزوايا كوسيلة لنشر

تعاليمه وأفكاره، ومكث في الحجاز في رحلته الأولى خمسة عشر سنة؛ استطاع أن يجمع خلالها من التلاميذ والأتباع والمريدين أعداداً

---

[٧٠] انظر: الحركة السنوسية، ص (١٠١).

[٧١] انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٢١).

[٧٢] انظر: الأنوار القدسية (مخطوطة)، ص (٦٨).

[٧٣] المصدر السابق نفسه.

كثيرة، مما حرك ضده عداوة شيوخ مكة وعلمائها الذين كانوا يخالفونه، وينقدون اعتماده الصريح الخالص على الكتاب والسنة في دروسه، واقتفاء السلف الصالح في إرشاده وتعليمه، وإقامته الحجة على أن الاجتهاد لم يغلق بابه. وزاد على ذلك أن السلطات الحكومية بدأت تشعر بخطورته، وخطورة الدعوة التي يحملها من جراء التفاف الناس حوله.

وكان ابن السنوسي على اتصال مستمر بأبناء ابن إدريس في صبيا وهي تابعة للحركة السلفية، وكان العداء على أشده بين الحكومة العثمانية والأشراف بمكة وبين أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وهكذا كثرت الصعاب والعوائق في طريقه، وفكر في الانتقال بالدعوة إلى مكان اخر، ولا شك أن إقامته الطويلة في مكة أثرت على جوانب كثيرة في تفكيره، ووجَّهت اتجاهه الإصلاحي الوجهة التي سار عليها، فهناك في مكة أخذ كفايته على العلماء، ودرس معظم الاتجاهات الفكرية، والتقى بأستاذه ابن إدريس، وكذلك بوفود الحجيج القادمين من مدن وقرى العالم الإسلامي، وتعرّف على أحوالهم، وزاد فهماً للداء الذي ينخر فيهم، وكانت هذه الجموع من الحجيج تربة خصبة استطاع أن يبذر فيها دعوته، واختار منهم من يصلح لمعاونته.[٧٤]

ولم ينسَ القضية الجزائرية، وإذكاء جذوة الجهاد في نفوس أبناء الجزائر ضد فرنسة، وعندما قدم محيي الدين الجزائري برفقة ولده وأشراف قومه إلى مكة؛ التقى بهم ابن السنوسي وأكرمهم غاية الإكرام، وبعد أن أرادوا السفر ودعهم وقال لهم: إن الدين الإسلامي يحتم على كل مسلم أن يدافع عنه بقدر استطاعته، ويحرم على المسلمين الاستسلام للعدو الغاصب المعتدي والمنتهك لحرمات الدين والإسلام، والمعطل لأحكام الله، وإني أستوصيك بولدنا عبد القادر هذا خيراً؛ فإنه ممن سيذود عن حرمات الإسلام، ويرفع راية الجهاد، فكان هذا سبباً في إيجاد روح الجهاد والمقاومة فيهما وتفكيرهما فيه، ومعلوم لدى

---

[٧٤] انظر: الحركة السنوسية، ص (٧٢).

الباحثين جهاد عبد القادر محيي الدين الجزائري في الجزائر.[٧٥]

زواجه الثاني: وفي فترة إقامته في الحجاز تزوج ابن السنوسي زوجته الثانية السيدة خديجة الحبشية، وقد قام بتزويجه أستاذه ابن إدريس الذي راه يعيش عزباً منذ طلاقه لزوجته الأولى، وكانت السيدة خديجة تتصف بالتقوى والصلاح. وقد قامت بدورها نحو زوجها؛ فهيأت أسباب الراحة له، ورافقته في رحلاته، ورضيت بأسلوب حياته الصعب الذي يتصف بالانتقال المستمر والعمل المرهق. وقد توفيت فيما بعد بالجغبوب بعد وفاة ابن السنوسي بحوالي عشرين سنة عام (١٢٦٩ هـ).[٧٦]

ثامناً: رحلته من الحجاز إلى المغرب:

تضافرت عدة أسباب دفعت ابن السنوسي لمغادرة مكة؛ منها: وفاة أستاذه أحمد ابن إدريس، عداوة شيوخ مكة وعلمائها لما كان يطرحه ابن السنوسي، خوف الحكومة العثمانية من علاقته بأبناء أحمد بن إدريس في عسير؛ وهي أرض تابعة لأتباع الحركة الوهابية، دعوة مريديه من أهالي المغرب لزيارة بلادهم، وأضاف عبد القادر بن علي رغبة ابن السنوسي للجهاد في بلاده ضد الفرنسيين؛ فعقد النية وصمم على السفر للاشتراك في جهاد فرنسة في الجزائر، والتحق بركبه عدد كثير من أتباعه وإخوانه، وعيَّن الشيخ عبد الله التواتي على زاوية أبي قيس بمكة للقيام بشؤون الأتباع، وكان سفره ذاك في اخر عام (١٢٥٥ هـ) في (٢٦ ذي الحجة) حسبما هو مذكور في مذكرة مرافقه الشيخ محمد بن صادق البكري، ثم سافر إلى مصر من مكة ومعه عدد كبير من الإخوان وذلك اخر عام (١٢٥٥ هـ)، ودخلها أول عام (١٢٥٦ هـ)، وزار الجامع الأزهر وألقى دروساً نافعة، ووقف أحد كبار مشايخ الأزهر وقال: «أنصتوا أيها العلماء، لقد حلَّ بين أظهركم عالم الأمة المحمدية، ونبراس الشريعة المطهرة، وشمس سماء المعارف الإلـهية:

---

[٧٥] انظر: الفوائد الجلية (١/٤٤).

[٧٦] انظر: الحركة السنوسية، ص(٧٢).

إذا صلصل البازُ فلا ديكَ صارخٌ ولا فَاخِتَ في أَيْكَةٍ يَتَرَنَّمُ

– ألا وهو الشيخ الكامل سيدي محمد بن علي السنوسي الحسني الإدريسي. فارتج الجامع بعلمائه، ولم يمكث الشيخ بمصر غير مدة قليلة ثم سافر».[٧٧]

وتعرض ابن السنوسي لهجوم الشيخ عليش المالكي بسبب دعوة ابن السنوسي

لفتح باب الاجتهاد، وقد ذكر محمد عبده في كتابه (الإسلام والنصرانية): أن ابن السنوسي تعرض للقتل: «ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسي كتب كتاباً في أصول الفقه زاد فيه بعض المسائل على أصول المالكية، وجاء في كتاب له ما يدل على دعواه أنه ممن يفهم الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة، وقد يرى ما يخالف رأي مجتهد أو مجتهدين، فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية، وكان المقدم من علماء الجامع الأزهر الشريف، فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسي ليطعنه بها؛ لأنه خرق حرمة الدين وتبع سبيل غير سبيل المؤمنين، وربما كان يجترأى الأستاذ على طعن الشيخ بالحربة لو لاقاه، وإنما الذي خلَّص السنوسي من الطعنة، ونجَّى الشيخ المرحوم من سوء المغبة وارتكاب الجريمة باسم الشريعة؛ هو مفارقة السنوسي للقاهرة».[٧٨]

وقد تعرَّض الشيخ ابن السنوسي في مصر لمرض شديد اضطر على أثره أن لا يأكل شيئاً من الزاد سوى مقدار بسيط من الحليب صباحاً، ومثله مساءً فقط، وكان الذي يقدم له الحليب رجل تركي، فوضع له سُماً في الحليب؛ فلما شرب منه سقطت أسنانه في الإناء، واشتد به الألم حتى يئس منه جميع الإخوان، وأخيراً منَّ الله عليه بالشفاء بعد معالجات، إلا أنه سبب له مضاعفات من جسمه تخرج على جلدة جبة (أي: قشرة تشبه جبة الحنش، وصارت له عادة يسلخها رأس كل عام وقت أخذه لذلك

---

[٧٧] انظر: رحلة الحشائشي، ص (١٥٠).

[٧٨] انظر: الإسلام في القرن العشرين، للعقاد، ص (١٣٠).

الحليب)، ولما تحسنت صحته أرسل للشيخ عبد الله التواتي في مكة، ولما حضر إليه أرسله إلى قابس بتونس يرافقه بعض الإخوان ومعهم زوجته الحبشية، وأمر بعض الإخوان أن يواصل رحلته إلى الجزائر.[٧٩]

وكان ابن السنوسي في سفره ذلك أي: ذهابه إلى مصر قد قصد المدينة المنورة للوداع، ثم نزل ببدر، وكان يقصر ويجمع في الصلاة، وإن حصلت له إقامة ببلد في طريقه استمر على ذلك يقصر ويجمع إلى تسعة عشر يوماً، تارة يجمع جمع تقديم وتارة جمع تأخير، وهو في عمله هذا يخالف المالكية ويتبع الأحاديث الواردة في قصر الصلاة وجمعها بعد أن اعتقد صحتها.[٨٠]

وبعد الشفاء من مرضه اجتهد في الدعوة إلى الله وتعليم الناس وإرشادهم، وأقام مدداً متفاوتة في عدد من المدن والقرى، فترك في كل منها ركائز وأنصاراً، وقد تميز أسلوبه الدعوي بالبساطة وباتفاقه مع مستواهم العقلي.[٨١]

وواصل ابن السنوسي رحلته براً من سيوة إلى جالوا ثم أوجلة، وكان برفقته الشيخ عمر بوحوا، ومحمد الشفيع، والمهدي الفيلالي، ثم توجَّه إلى برقة ونزل على نجع عائلة اللواطي من العواقير، ففرحوا وقاموا بإكرامه ورفقائه، ورافقوه إلى منتجع قبيلة المغاربة، فنزل على الشيخ علي لطيوش، فأكرم ابن السنوسي ورافقه إلى محل يسمى الهيشة ما بين سرت ومصراته، وهناك قابله ال المنتصر ومعهم أعيان مصراته، فدخل معهم إليها، وبعد مدة قليلة واصل سيره إلى بلدة زليتن، ومنها إلى طرابلس ونزل في بيت أحمد المنتصر وترك عنده بعض الإخوان، ووالى سفره إلى زوارة، ودخل حدود تونس.[٨٢]

---

[٧٩] انظر: الفوائد الجلية (٤٧/١ إلى ٥٠).

[٨٠] انظر: الحركة السنوسية، ص (٧٥).

[٨١] انظر: الحركة السنوسية، ص (٧٦).

[٨٢] انظر: الفوائد الجلية (٥٠/١).

وشعرت المخابرات الفرنسية بخطورة ابن السنوسي منذ فترة طويلة، وحاولت أن ترصد تحركاته مع الحجيج الجزائري والمغاربة عموماً، فبثت المخابرات الفرنسية عيونها واذانها على طول الحدود، وجاءته الأخبار بذلك، وتقرر أن لا يواصل شخصياً سيره، وندب محمد بن صادق وحمّله بعض الأموال والأسلحة لتوصيلها إلى الأمير عبد القادر الجزائري(١)، وعاد إلى طرابلس، وتبنى ابن السنوسي دعم حركة الجهاد في الجزائر بالأموال والأسلحة والرجال ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وقد أوفد في فترات متفاوتة عدداً من تلاميذه النجباء من أمثال محمد بن الشفيع، وعمر الفضيل المعروف بأبي حواء، والشيخ أبو خريص الكزة،[٨٣] وقد نقل محمد الطيب الأشهب عن دوفربيه الفرنسي ما يشير إلى اعتقاد الفرنسيين بتدخل ابن السنوسي في أعمال المقاومة في الجزائر؛ فدوفربيه يقول: «إن السنوسية هي المسؤولة عن جميع أعمال المقاومة التي قامت ضد فرنسة في الجزائر، وأنها السبب في الثورات المختلفة التي قامت ضد فرنسة؛ كثورة محمد بن عبد الله في تلمسان

وصحراء الجزائر سنة (١٨٤٨ ١٨٦١م)، وعصيان محمد بن تكوك في الظهرا عام (١٨٨١ م).. إلخ».

وقد بيَّن المؤرخ الليبي عبد القادر بن علي الذي رافق أحمد الشريف السنوسي عقوداً من الزمن: أن بعض الإخوان من السنوسية شاركوا في الجهاد الجزائري، حتى إن بعضهم أكل تمرات غرس نواها، طلعت وكبرت وأثمرت وأكل من ثمرها وهو في ميدان الجهاد.[٨٤]

وقد عثر المؤرخ أحمد الدجاني على خطاب أرسله أحد تلاميذ ابن السنوسي من الجزائر إلى مدير غدامس[٨٥] التركي (غدامس في ليبية)، وأرشدنا الخطاب إلى أن دعوة ابن السنوسي بلغت الجزائر، وأن عدداً

---

[٨٣] انظر: الحركة السنوسية، ص (٧٨).

[٨٤] انظر: الفوائد الجلية (٥١/١).

[٨٥] قريبة من حدود تونس والجزائر.

من أتباعه كانوا يقاتلون الفرنسيين فيها، ومنهم مرسل الخطاب، وتاريخ الخطاب سنة (١٢٦٨ هـ). وقد كان ابن السنوسي في الحجاز في ذلك التاريخ. ومن بين ما جاء فيه: «وأما أنا عبد الله حين قدمت بلاد وارقلة، ففتح الله علينا بها، وصارت محمدية بعدما كانت في يد الرومي دمره الله، وخليفة الرومي فيها، سبحان من حكَّم الضعيف في القوي، وصار القوي من عبده مخذولاً مذموماً، ولكن من بركة الشريف شيخنا سيدي محمد بن علي السنوسي رضي الله عنه ونفعنا وإياكم به امين. وصار عربان وأرقلة وقصورها وقبائل الشعامبة وقصور تغورت وعربانها والأرباع والخرزلية والحجاج، وكثير من عربان الظهيرة وقصور بني مصاب كلهم تحت طاعة الله ورسوله وطاعتنا، والمجاهدون كل يوم في الزيادة... وبعث لنا الرومي دمَّره الله هذه الساعة ثلاثة أمحل.. تلاقينا معهم وصرنا مثل الشامة البيضاء في ثور أسود، فنصرنا الله نصراً عزيزاً، وأعاننا على أعدائه، ووقع القتال بيننا بالبارود والسيوف، حتى كسرناهم كسرة عظيمة، وقتلنا منهم نحو ثلاثمئة وستة وثمانين رجلاً، وقلعنا من الخيل كثير، والبنادق بلا عدد، والخزنة والإبل والأخبية، والحمد لله على ذلك...»[٨٦]

إن الحقائق التاريخية تثبت للباحث اهتمام ابن السنوسي بالجهاد في الجزائر ضد

فرنسة، وحاول أن يشارك بنفسه، إلا أن الظروف منعته من ذلك، وعمل على إرسال تلاميذه بالأسلحة والمال، وتحريض أتباعه في الجزائر على القتال، وقد استمرَّ أتباع السنوسية والشعب الليبي في دعم حركة الجهاد، حتى تمَّ دحْرُ الاحتلال الفرنسي من الجزائر، وتحصَّلت الجزائر على استقلالها عام (١٩٦٢ م).

تاسعاً: ابن السنوسي في طرابلس:

عاد ابن السنوسي من قابس إلى طرابلس مع صحبة مجموعة من الإخوان في عام (١٢٥٧ هـ)، ونزل ضيفاً عزيزاً على عائلة المنتصر،

---

[٨٦] انظر: نص الرسالة الكامل عن سجل رقم (٥٠١/٣/١٩٦) دار المحفوظات طرابلس.

وتخوَّف الوالي العثماني من ابن السنوسي، واستطاع عميد عائلة المنتصر أن يقنع الوالي علي عشقر بأن ابن السنوسي من المخلصين والمحبين للدولة والخلافة، وعمل على جمع الوالي العثماني بابن السنوسي، وقد تأثَّر الوالي بورعه، وقد فصّل محمد الطيب الأشهب في هذه النقطة فقال: «فبعد أن وصل قابس عاد إلى طرابلس وذلك في أوائل (١٢٥٧ هـ)، وكان حاكم طرابلس يومئذ علي باشا عشقر الذي وصلته أنباء مشوَّهة عن دعوة السنوسي وحركته؛ التي قيل على لسان رواة الحاكم العثماني: إنها ترمي إلى ما يبعث على قلق السلطات العثمانية، وكان راوية هذه الاتهامات هو أحد شيوخ الطرق الصوفية سامحه الله.

فأمر علي عشقر بالقبض على رفاق الإمام السنوسي الموجودين بمنزل الحاج أحمد باشا المنتصر ريثما يتسنَّى القبض على شخص الإمام. وتقدم المنتصر بوساطته في أن يبقى الإخوان السنوسيون في منزله، وقدم بذلك ضماناً شخصياً متعهداً أن يخبر الحكومة عن الإمام السنوسي حينما يعود. وشاء الله أن يصل الإمام فجأة، وما كان يعلم عما حدث، فلما علم أصر على رؤية الوالي، وهناك اجتمع بمجلس علمي وقف فيه الوالي على حقيقته، فاعتذر له، وانضمَّ إليه اثنان في المجلس المقرحي والقزيري...».[٨٧] وكان العلامة المقرحي من طليعة علماء طرابلس، وقد كلفه علي عشقر باشا مع غيره من العلماء بمناقشة الإمام ابن السنوسي، فما كاد يستمع إليه حتى تأثَّر به وأصبح من أتباعه ومريديه.

وكان رأي العلماء الذين ناظروا ابن السنوسي بأنه نعمة من الله ساقها إليهم،

وفرح الباشا بذلك واعتذر لابن السنوسي، وقال له: هذه بلادك والأهل أهلك، فانفعهم بقدر استطاعتك، ونحن في الحاجة الشديدة لأمثالك، فأقام ابن السنوسي في طرابلس مدة يعلّم الناس ويذكّرهم

---

[٨٧] انظر: السنوسي الكبير، للأشهب، ص (١٠٤).

ويبصّرهم بأمور دينهم، وتعلق الناس به، وسارت إليه الركبان.[٨٨]

ويذكر بعض المؤرخين أن الوالي العثماني علي عشقر أخذ عن ابن السنوسي طريقته وصار من أتباعه، ويبدو أن الدولة العثمانية كانت في حاجة ماسة إلى يد قوية تستعين بها في ضبط الأمور على أساس استتباب الأمن وإخماد الفتن والمصادمات في داخل البلاد التي استمرت سبع سنوات مضت قريباً،[٨٩] وأن الأحداث في تلك السنة كانت على أشدها؛ حيث كانت الثورة مشتعلة في جبل نفوسة بقيادة غومة المحمودي، وسيف النصر في سرت ضد الدولة العثمانية، واستطاع غومة المحمودي وسيف النصر أن يستقل كل منهما بمنطقته لفترة من الزمن مقابل دفع مبلغ معين للولاة، ثم تفاقم أمرهما، فعمل الوالي العثماني على الخلاص منهما، ونجح في القبض عليهما، فأما غومة فنفاه من طرابلس، وأما عبد الجليل سيف النصر فقطع رأسه.[٩٠]

ولذلك حرص الوالي العثماني على الاستفادة من نفوذ ابن السنوسي في ليبية، وخصوصاً بعد أن ظهر منه حرصه على الأمن واجتماع الكلمة، ونبذه للتنافر والخصام بين جميع المسلمين وشعوبهم،[٩١] وقد كانت نظرة الوالي العثماني تدل على بعده السياسي، وحرصه على الأمن واستقرار البلاد، وحبه للدعوة إلى الله تعالى.

عاشراً: ابن السنوسي في برقة:

واصل ابن السنوسي سيره إلى سرت وبرفقته أمراء من ال المنتصر بأمر عميد الأسرة، وأعيان من مصراتة، ودخل سرت ووجد هناك كوكبة من الفرسان في

---

[٨٨] انظر: الفوائد الجلية (١/٣٠).

[٨٩] انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٣٠).

[٩٠] انظر: الحركة السنوسية، ص (٨٠).

[٩١] انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٣٠).

انتظاره، هم بعض أعيان وشيوخ، ووجهاء برقة من العواقير والمغاربة وأهل الجبل الأخضر ومدينة بنغازي؛ فرحبوا بسيادته ورافقوه في رحلته، ومر في طريقه بالكثير من القبائل، وبعد وصوله إلى بنغازي تنافست بيوتات بنغازي البارزة في إكرامه، كعائلة الكيخية، وال شتوان، وال منينة، وأقام في بنغازي شهر رمضان كاملاً، وبعد العيد جاء رجلان من قبيلة العواقير لشراء الكفن للشيخ أبي شنيف الكزة زعيم قبيلة العواقير عموماً؛ الذي مرض مرضاً تحقق أقاربه منه بالموت، ولما وصل الرجلان إلى بنغازي دخلوا على الرجل الصالح علي خريبيش وكانت لهم به معرفة، وأخبروه بمرض الشيخ أبو شنيف وطلبوا منه الدعاء له بالشفاء، فقال لهم: هنا رجل صالح عالم نزوره أنا وأنتم، ونطلب منه الدعاء له بالشفاء، فلما التقوا بابن السنوسي أظهر لهم عدم الانزعاج، وأطال لهم في المجلس وهم كأنهم على نار؛ فألحُّوا في طلب الإذن لهم بالخروج، فقال لهم: ربما هذا المريض يدفن بعض الحاضرين؛ ثم قال لهم: نخرج معكم إليه، ففرحوا، وفعلاً ترك بعض إخوانه وثقل أثاثه وخرج معهم مخفّاً.

وكان الشيخ أبي شنيف نازلاً بأهله بمكان يسمى الظاهر يبعد عن بنغازي بمسافة يوم كامل، فلما وصل إلى الشيخ أبي شنيف وكان في حالة غيبوبة، ومرضه في بطنه وهي منتفخة، فوقف عليه ووضع يده الشريفة على بطنه فانتفشت كأنها قربة منفوخة، وأفاق في الحال وتكلم، فعلَتْ أصوات النساء بالزغاريد، وسُرَّتِ القبيلة بشفاء عميدها العظيم.[٩٢]

لا شك أن ابن السنوسي قد أخلص في دعوة الله لشفاء هذا المريض، وقرأ عليه بعض الأدعية النبوية المباركة، وربما سورة الفاتحة، وقرأ عليه القران الكريم، وهذا جائز في الشرع، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن ناساً من أصحاب رسول الله (ص) كانوا في سفر؛ فمروا بحي من أحياء العرب؛ فاستضافوهم... فقالوا لهم: هل فيكم راقٍ؟ فإن سيد الحي

---

[٩٢] انظر: الفوائد الجلية (٥٣/١).

لديغ أو مصاب؛ فقال رجل منهم: نعم. فأتاه فرقاه بفاتحة الكتاب؛ فلما علم النبي (ص) بذلك تبسَّم وقال: «وما أدراك أنها رقية؟»، ثم قال: «خذوا منهم واضربوا لي بسهم معكم»،[٩٣] وقد علّم رسول الله (ص) الأمة كيف يفعلون مع مرضاهم، فكان (ص) إذا أتى المريضَ يدعو له، ويقول: «أذهب الباس، رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك شفاءً لا يغادر سقماً».[٩٤]

لقد كانت حادثة شفاء زعيم قبيلة العواقير على يدي ابن السنوسي مدخلاً عظيماً للدعوة إلى الله في قبائل برقة، واعتبره المؤرخ عبد القادر بن علي أول فتح لابن السنوسي في برقة والجبل الأخضر، وأقام في نواجع العواقير ما يقرب من الشهر، واجتمعت على سيادته الناس من أنحاء برقة لزيارته وطلب الدعاء منه،[٩٥] وقد انتشرت بين الناس كرامات نسبت لابن السنوسي، فمنها ما ذكره الحشائشي: أن ابن السنوسي عندما قدم من المغرب إلى الحجاز على طريق قابس من أعمال تونس؛ نزل بحي من أحياء العرب، ولم يظهر الشيخ أنه من العلماء، وليس معه إلا أربعة أنفار، فأكرم نزله ربُّ الحي المذكور لما رأى عليه من المهابة، فلما أراد المسير من عنده أهداه رب المكان بغلته ليركبها بالطريق، فأخذها الشيخ من عنده، ولمَّا ركبها في اليوم الأول من سفره عثرت به، فسقط من أعلاها وانكسرت ذراعه الأيمن من حينه، ورجع إلى ربِّ الحي المذكور، فتلقَّاه مذعوراً، وفي الحال أحضر له أناساً عالمين بجبر الكسر، فطفقوا يعالجون الشيخ بمطارق من الحديد تحمى في النار، ثم تجعل على محل الألم، ومع ذلك فإن النار لم تؤثر في ذراعه؛ فتعجب الناس من ذلك وعرفوا فضله، ومن هنا أخذ الشيخ في الاشتهار.[٩٦]

---

[٩٣] انظر: مسلم، كتاب السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية (١٧٢٧/٤) رقم (٢٢٠١).

[٩٤] انظر: مسلم، كتاب السلام، باب استحباب رقية المريض (١٧٢٢/١) رقم (٢١٩١).

[٩٥] انظر: الفوائد الجلية (٥٣/١).

[٩٦] انظر: رحلة الحشائشي، ص (١٤٥).

إن المفتاح الكبير لقبائل برقة هو قناعتها بأن ابن السنوسي ولي من أولياء الله الصالحين، ولذلك سمعت لنصائحه، وأطاعت أوامره، فأرشدهم إلى كتاب الله وسنة رسوله (ص).

وعلماء الأمة يثبتون الكرامات للصالحين: «فأولياء الله المتقون هم المقتدون بمحمد (ص)، فيفعلون ما أمر به وينتهون عما نهى عنه وزجر، ويقتدون به فيما بيَّن لهم أن يتبعوه فيه، فيؤيدهم بملائكته وروحه منه، ويقذف الله في قلوبهم من

أنواره، ولهم الكرامات التي يكرم الله بها أولياءه المتقين، وخيار أولياء الله كراماتهم لحاجة في الدين أو لحاجة بالمسلمين، كما كانت معجزات نبيهم (ص) كذلك. وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتِّباع رسول الله (ص)...».[٩٧]

«وممَّا ينبغي أن يُعرف أن الكرامات قد تكون بسبب حاجة الرجل، فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج، أتاه منها ما يقوي إيمانه أو يسد حاجته، ويكون من هو أكمل ولاية منه مستغنياً عن ذلك، فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها، لا لنقص ولايته، ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة».[٩٨] ومن عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بكرامات الأولياء.[٩٩]

إن ابن السنوسي صحَّت معرفته بالله ورسوله ودينه، وصدقت متابعته للشرع ظاهراً وباطناً، ونحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً، ولذلك فتح الله عليه بما لم يفتح على غيره، من إلهامات صحيحة، وفراسات صائبة، وأحوال صادقة، قال تعالى: [النساء: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۝ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝} [النِّساء: ٦٦-٦٨] وكان

---

[٩٧] انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٧٤/١١).

[٩٨] المصدر السابق نفسه (٢٨٣/١١).

[٩٩] انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٥٠٨/١).

عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «اقتربوا من أفواه المطيعين، واسمعوا منهم ما يقولون؛ فإنه تتجلى لهم أمور صادقة».[١٠٠]

وقال ابن عثمان النيسابوري: «من أمّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة؛ لأن الله تعالى يقول في كتابه: [النور: ٤٥]»

وقال الكرماني: «من غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشبهات، وعمّر باطنه بدوام المراقبة، وظاهره باتباع السنة، وعوَّد نفسه أكل الحلال لم تخطأى له فراسة».[١٠١]

بعد شهر من بقائه في نجع العواقير واصل سيره متوغلاً في برقة الحمراء؛ ومنها الجبل الأخضر، وبصحبته جمع غفير من الإخوان ومشايخ مختلف القبائل من الحاربي والعواقير، حتى وصل إلى مكان يسمى ماسة، وتقدم من ماسة إلى محل يسمى دنقلة؛ حيث مكان الزاوية البيضاء بالقرب من ضريح الصحابي الجليل رويفع بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه،[١٠٢] وقد شرع الإخوان السنوسيون في تأسيسها قبل مجيء ابن السنوسي، وذلك بتوجيه منه، وهي أول زاوية يؤسسها ابن السنوسي خارج الحجاز، ولها مقام كبير عند السنوسية، ويطلق عليها: أم الزوايا، وقد بنيت الزاوية البيضاء خارج البلدة وعلى بعد حوالي ثلاثة كيلو مترات منها، ويلاحظ الباحث أن ابن السنوسي اختار لها موقعاً استراتيجياً جيداً يتميز بسهولة الدفاع عنه، وصعوبة الوصول إليه. كما يلاحظ أيضاً أنه أحسن بناءها.

ولقد تميزت كل الزوايا التي أنشئت ببرقة بالموقع الاستراتيجي، كما أنها تتتابع بانتظام؛ مما يدلّ على أن ابن السنوسي كان يرمي إلى جعلها كالقلاع لتقوم بصد المعتدين في الحروب؛ لأنه كان يتوقَّع هجوم

---

[١٠٠] مجموع فتاوى ابن تيمية (١٠/٤٧٣، ٤٧٤).

[١٠١] انظر: الجامع لأخلاق الراوي، باب أدب الطلب (١/٨٠).

[١٠٢] انظر: قواعد التحديث للقاسمي، ص (١٤٩).

الأعداء عليها،[١٠٣] ولا ننسى زعيم البراعصة الشيخ أبو بكر بوحدوث الذي وقف بجاهه وماله ونفسه مع الحركة السنوسية، وكان من تواضعه يشارك العمال في كافة أعمالهم بنفسه؛ فضلاً عن أتباعه، وكان بجلالة قدره ممن يخلط الطين للبنَّائين الذين يبنون المسجد والزاوية البيضاء رغبة في الثواب.[١٠٤]

وشرع ابن السنوسي من الزاوية البيضاء يعلِّم الناس ويذكرهم بالله، ويرشدهم إلى طريق النجاة في الدنيا والاخرة، وبدأت القبائل تتوافد إليه وتطلب زيارته لها تبركاً به، وتطلب إقامة زوايا لها أسوة بالزاوية البيضاء، فكان رضي الله عنه يتوجَّه بنفسه إلى القبيلة أو المكان المطلوب إقامة الزاوية فيه، وأحياناً ينتدب بعض الإخوان لذلك، وهكذا بدأت القبائل تتسابق والزوايا تنتشر.[١٠٥]

وظل في نواحي برقة والجبل الأخضر يزور القبائل، ويؤسس الزوايا، حتى تم تأسيس ما ينوف عن عشرين زاوية، كما كان طيلة هذه السنوات يتردد ما بين القبائل ويصلح ما بينها، ويزيل ما تأصَّل بينهم من الأحقاد والمشاجرات التي طال أمدها رغم ضررها، وكان يعظهم ويذكرهم ويرشدهم إلى إخوة الإسلام ورابطة الإيمان، ويحثهم على التعاون على البر والتقوى، ويأمرهم بترك العقائد الفاسدة والعادات القبيحة؛ مثل: التبرج والاختلاط، وقتل النفس بأتفه الأسباب، وعدم الانقياد لأوامر الدين والدولة، وكان يأخذ منهم العهود والمواثيق على أنهم ينقادون لأوامر مشايخ الزوايا، ويرجعون إليهم في مختلف قضاياهم وحل مشاكلهم، ويدخلون أبناءهم في الزوايا ليتعلموا القران وأمور دينهم، كما كان يأخذ عليهم عهوداً باحترام الزوايا ومشائخها والإخوان، وأن يبذلوا جهودهم لمساعدة الزوايا والإخوان فيما هو

---

[١٠٣] انظر: الفوائد الجلية (٥٤/١).

[١٠٤] انظر: الحركة السنوسية، ص (٨٣).

[١٠٥] انظر: الفوائد الجلية (٥٦/١).

ضروري لبقائها عامرة، وكل قبيلة تطالب بإقامة زاوية لها تقيمها لهم بالشروط المتقدمة.[١٠٦]

والزوايا التي تم تأسيسها خلال السنوات الأربع المتقدمة في الجبل الأخضر وبرقة هي: (البيضاء، شحات، بنغازي، درنة، مارة، أم الرزم، العرقوب، توكرة، طلميثة، الطيلمون، الفائدية، المخيلي، القصور، المرج، أم ركبه في (فزان)، مرزق، زويلة، هون، سوكنة (في طرابلس)، مزدة، طبقة الرجبان، تونين، مصراتة، زليتن، زلة، وفي تونس زوايا الجريد).

وعلى الحركة الإسلامية المعاصرة في بلادنا وغيرها أن تراجع حساباتها، وتتفقد الأماكن التي كانت منارات للعلم والتربية والدعوة، وتعمل على إحياء ما اندرس منها على منهج صحيح وسليم وقويم من عقيدة السلف، ومنهج أهل السنة والجماعة، مع الاستفادة من خبرات الحركات المعاصرة وتجديد الوسائل، لعل الله ينفعنا وينفع بنا ويهدينا سواء السبيل. والقصد من ذلك العمل على إحياء الإسلام في البوادي والأرياف والقبائل، ولا نحصره في المدن الكبرى.

زواجه الثالث: في أواخر عام (١٢٥٨ هـ) جمع ابن السنوسي إخوانه في ليلة من الليالي، وقال لهم: تعلمون إخواني أنني تقدمت بي السن (وكانت سنه انذاك سبعاً

وخمسين سنة) وضعف جسمي وقوتي بعد شربي للسم، ولم يبق لي مأرب في النساء، غير أني رأيت سيدنا محمداً (ص) في منامي، وقال لي: خذ إحدى بنات هذا الرجل؛ أي: السيد أحمد بن فرج الله تأتيك بولدين يكونان من المهاجرين والأنصار، وإنني امتثالاً لأمره (ص) أريد أن أخطب من أخينا السيد أحمد إحدى بناته، ثم عقد رضي الله عنه على فاطمة وهي الوسطى من البنات.[١٠٧]

إن الرؤيا الصالحة في المنام بشرى تزفّ لعباد الله الصالحين، وأمر

---

[١٠٦] المصدر السابق نفسه (٥٨/١).

[١٠٧] انظر: الفوائد الجلية (٥٩/١).

رسول الله (ص) في المنام إذا لم يخالف الشريعة لا يوجد ما يمنع من تنفيذه، وكانت بشرى صادقة، وقد وقعت كما راها ابن السنوسي.

إن أمر الرؤيا في حياة ابن السنوسي واضح وجلي، ويستأنس بها في رحلاته وأعماله، وبالنسبة لرؤية رسول الله (ص) في المنام فلا خلاف بين أهل العلم فيها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه قال: سمعت النبي (ص) يقول: «من راني في المنام فسيراني في اليقظة، ولا يتمثل الشيطان بي»،[١٠٨] وفي رواية: عن أنس رضي الله عنه، قال: قال النبي (ص): «من راني في المنام فقد راني، فإن الشيطان لا يتمثل بي»،[١٠٩] وفي رواية: عن أبي قتادة رضي الله عنه، قال: قال النبي (ص): «من راني فقد رأى الحق».[١١٠]

المبحث الثاني
أسباب اختيار ابن السنوسي برقة مركزاً لدعوته

تمهيد:

إن إقليم برقة أحد أقاليم ليبية الثلاثة (برقة، طرابلس، فزان)، بل أكبر هذه الأقاليم من حيث المساحة (٧٠٠ ألف كيلو متر مربع) وإن لم يكن أكثرها سكاناً، ويمتد هذا الإقليم من هضبة السلوم شرقاً وحدود طرابلس غرباً، وكان يعرف عند الرومان بإقليم (سيرينة) التي سماها العرب (قيرين) أو (قرناه)، ثم أصبح يعرف منذ الفتح الإسلامي بإقليم برقة.[١١١]

وسطح الإقليم متنوع بين سهل ساحلي يضيق في الجزء الأوسط بحيث يتكون من جيوب ساحلية تنحشر بين رؤوس صخرية تصل إلى

[١٠٨] انظر: الفوائد الجلية (١/٥٨).

[١٠٩] انظر: البخاري، فتح الباري، كتاب التعبير، باب من رأى النبي (ص)، رقم (٦٩٩٣).

[١١٠] المصدر السابق نفسه، رقم (٦٩٩٤).

[١١١] المصدر السابق نفسه، رقم (٦٩٩٥).

الساحل، ولكن في جناحي برقة: في البطنان شرقاً، وفي برقة البيضاء والحمراء غرباً، يتسع هذا السهل الساحلي؛ بحيث يمتد عشرات الأميال إلى أن يلتقي بالصحراء،[١١٢] وإلى جانب هذا السهل الساحلي يوجد الجبل الأخضر الذي يرتفع عن مستوى سطح البحر بحوالي ألف متر، وتكسوه الخضرة الدائمة، ويرتفع الساحل ارتفاعاً مباشراً ولكنه ينحدر تدريجياً نحو الصحراء في الجنوب، وبه الأراضي الصالحة للزراعة، والمساحات الكبيرة التي ترويها مياه الأمطار الغزيرة.

وإلى الجنوب من الجبل الأخضر توجد الصحراء الواسعة التي تكون معظم مساحة الإقليم، وهذه الصحراء مستوية وإن وجد بها بعض الكثبان والهضبات فهي

مستوية أيضاً، وفي صحراء برقة توجد أودية عميقة؛ بعضها يمتلأى بالماء فترة ما، وبعضها يكون جافّاً طول السنة،[١١٣] كما توجد بعض الابار والينابيع المتناثرة وسط الصحراء تحيط بها واحات فقيرة؛ مثل: الجغبوب، والكفرة، وجالو، وأوجلة.[١١٤]

وسكان برقة يعيشون في تنظيم قبلي اتضحت صورته منذ الفتح الإسلامي، ثم عندما زحفت قبائل بني هلال، وبني سليم من مصر إلى المغرب منذ القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي أصبحت هذه القبائل تنقسم إلى قسمين رئيسين: القبائل السعدية، وقبائل المرابطين، ويذكر البعض أن السعديين هم قبائل بني سليم، وأن المرابطين هم بقية القبائل العربية اليمنية التي جاءت مع الفتح الإسلامي، والتي اختلطت مع سكان البلاد وعرَّبتهم، وأن ثمة قبائل من المرابطين لها شرف في النسب إلى بيت الرسول (ص)؛ ومن أهم القبائل السعدية: العبيدات، وعائلة فايد، والحاسة، والبراعصة، والدرسة،

---

[١١٢] انظر: النجوم الزاهرة (٢٨٢/٨).

[١١٣] انظر: د. نقولا زيادة: ليبية، ص (١).

[١١٤] انظر: الجغرافيا السياسية لإفريقية، د. فيليب رفلة، ص (٣٣٨).

والعبيد، وعرفة، والعواقير، والمغاربة، وأهم قبائل المرابطين: المنفة، والقطعان، والحوطة، والفواخر، والزوية.[١١٥]

وقبائل برقة تعيش نفس التنظيم القبلي العربي من حيث انقسامها إلى عشائر وبطون وأفخاذ، وللقبيلة أرض تملكها وتنتقل في أرجائها، وأفراد كل قبيلة متضامنون في أداء ما عليهم من واجبات وفي الحصول على ما لهم من حقوق، ولكل قبيلة رئيس أو شيخ له الرئاسة العامة على أفرادها. ومنذ أيام الفتح الإسلامي حتى العصر الحديث كان الحكم في برقة يأخذ القبيلة بعين الاعتبار في تقسيم البلاد إلى وحدات إدارية، بحيث تكون القبيلة أساساً لتطبيق النظام ومساعدة الحكام.[١١٦]

كانت القبائل في برقة تعيش حياة غير مستقرة؛ فيما عدا الواحات، وكثيراً ما تتقاتل من أجل المراعي أو مياه الابار.[١١٧]

وقد توفرت في برقة ظروف ملائمة لظهور الحركة السنوسية بوصفها حركة إسلامية شاملة؛ منها:

١- أن برقة منفصلة عن الأقطار المجاورة بالصحارى والفيافي التي تحيط بها.

٢- تتألف برقة من قبائل عربية بدوية، تربطها أنماط حياة اجتماعية متجانسة.

٣- يقوم النظام القبلي في برقة على (عصبيات) دموية مشتركة، وتقاليد وأعراف متشابهة.

٤- لا تزال المناطق الريفية بعيدة عن سيطرة المدن.

٥- لم يمارس الحكام العثمانيون إلا سيطرة ضعيفة على المناطق الداخلية.[١١٨]

---

[١١٥] انظر: في تاريخ العرب الحديث، د. رأفت الشيخ، ص (٢٤٠).

[١١٦] انظر: في تاريخ العرب الحديث، ص (٢٤٠).

[١١٧] المصدر السابق نفسه.

[١١٨] المصدر السابق نفسه، ص (٢٤١).

إن النظام القبلي في برقة كان حلقة مفقودة في خطة ابن السنوسي، ووجد ضالته في ذلك المجتمع، فقد أوجد النظام القبلي القواعد السياسية التي أقيمت عليها الحركة السنوسية. إن النظام القبلي في برقة تميز بالتعقيد ووجود مؤسسات متطورة لها مصالحها الاقتصادية، وتركيبتها الاجتماعية، ويرجع نجاح الحركة السنوسية في برقة في بعض جوانبه إلى التكيُّف مع هذا التركيب القبلي المعقد،[١١٩] إن الحركة السنوسية وجدت بنية اقتصادية، وتركيبة اجتماعية استطاعت أن تتفاعل معها، لقد استطاع ابن السنوسي أن يشيد على البناء القبلي تنظيماً إرشادياً ووعظياً، ولم يكن من الممكن إقامة مجتمع جديد دون ذلك البناء القبلي.[١٢٠]

لقد وجد ابن السنوسي ضالته في قبائل برقة، ووجدت القبائل ضالتها المنشودة في دعوة ابن السنوسي.

كانت قبائل برقة قبل مجيء ابن السنوسي تتخبَّط في دياجير الظلام، حيث استفحل الجهل في تلك القبائل رغم اعتناقها الإسلام الذي تنتسب إليه اسمياً وبالفطرة، ولم يبق لها من الإسلام إلا اسمه ومن القران إلا رسمه، وإليك بعض الصور من هذا الانحراف الخطير:

١- اتخذت بعض القبائل مواقع من برقة لتأدية فريضة الحج بدلاً من الحج إلى بيت الله الحرام.[١٢١]

٢- كانت بعض القبائل لا ترى ضرورة صيام رمضان؛ فتكلف ثلاثين شاباً قوياً، فيصومون يوماً واحداً، ويرون أنهم بذلك قد أدوا واجب الصيام على المسنين والعجزة وأرباب الأعمال من أهل القبيلة.

٣- كثر الأدعياء والدجالون الجهلة الذين يدَّعون لأنفسهم مقام الولاية والصلاح دون معرفة أصول الدين وعلى غير علم به، وكأن

---

[١١٩] انظر: المجتمع الليبي، د. عبد الجليل الطاهر، ص (٢٤٤).

[١٢٠] انظر: المجتمع والدولة والاستعمار في ليبية، د. علي حميدة، ص (١١٦).

[١٢١] انظر: المجتمع الليبي، ص (٢٥٣).

حقهم في هذا المقام هو بالتوارث؛ خصوصاً إذا ما كان بين هؤلاء الأدعياء من له صلة بنسب شريف، ولهؤلاء مكانتهم في نظر العامة التي اعتقدت أنهم يتصرفون في ملكوت الله أحياء وأمواتاً، وأنهم في حالة الغضب أو الرضا يشقون ويسعدون.

٤- لقد غابت كثير من شعائر الدين بين تلك القبائل.[١٢٢]

٥- كانت القبائل يكثر بها الجهل، وقلما تجد من يعرف القراءة والكتابة، فكل من يصل إليه كتاب يذهب به إلى أقرب المدينتين إليه؛ بنغازي أو درنة لقراءته.

٦- كان القوي منهم لا يتورع في الحصول على ما تصبو إليه نفسه بالقوة؛ حتى إن الضعيف لا يرى له حقاً.

٧- كانوا لا يرون في شن الغارات والغزو والقتال عيباً، فكل قبيلة من القبائل العربية تعمل ما يعزز مركزها ويقوي شوكتها في نظر القبيلة الأخرى.

٨- كانت الحروب تندلع بين القبائل بأقل الأسباب وأتفهها، فتارة من أجل شخص حلب ناقة غيره دون استئذانه، وتارة من أجل شخص ضاف اخر فلم يكرم وفادته، ومرة من أجل بهيمة أكلت زرعاً، وحيناً من أجل رجل تزوج امرأة ولها ابن عم لا يريد زواجها منه... إلخ؛ فبمثل هذه الأسباب كانت تقع الحروب الكثيرة التي جرَّت القبائل إلى هاوية الخراب والدمار، ولا يمر وقت طويل دون حرب، ومن أهم الحروب التي وقعت ببرقة قبل مجيء ابن السنوسي: حرب العبيدات وأولاد

علي، وحرب قبائل الجبارنة مع الفوائد، ثم الجبارنة مع الحرابي المعروف بحرب (بياض)، وحرب المغاربة مع الزواوات، إلى غير ذلك من الحروب الكثيرة.[١٢٣]

---

[١٢٢] انظر: السنوسي الكبير، محمد الطيب، ص (١١٦).

[١٢٣] المصدر السابق نفسه.

ولكن الدعوة السنوسية استطاعت أن تزكي النفوس، وتقوي الإيمان، وتنشر العلم، وتزيل الجهل، وتحارب الظلم، وتحبب العدل إلى نفوس تلك القبائل، وبعد فترة من الزمن أصبح من تلك القبائل علماء عاملون يدعون إلى الخير وبه يعدلون، ولقد استطاع الشاعر أبو سيف مقرب حدوث البرعصي أن يصف الحالة التي كان عليها قومه، وكيف تحولوا عنها نتيجة للدعوة السنوسية:

وكم من حريم قد أباحوا وأجحفوا ... بمال غني لا يخافون عاديا
وكم من جهول أسود اللون خلقة ... كساه لبوس العلم أبيض صافيا
وكم بدوي في الفلا خلف نوقه ... يبول على الأعقاب أشعث حافيا
تلافاه في مهوى الضلالة هاوياً ... فأصبح نجماً بالهداية عاليا
فتاهوا به فخراً على كل حاضر ... ومن جاور الأعلى يحوز المعاليا[١٢٤]

– وهذه قصيدة الشاعر الأديب الأستاذ أحمد شنيب، المعروفة بـ (عقيدة وخلود)، تصف حال المجتمع الليبي فتقول:

أرض الجدود وقد جفاكِ بنوك ... حتى استُحِلَّ دم العروبة فيكِ
ما خطبهم باعوا الهداية بالدجى ... وتفرقوا، وبجهلهم خذلوك
وتشتتوا في الأرض لا من غاية ... غير التناحر والدم المسفوك
شعبٌ تفرق شملُه وقبائلُ ... لم يدركوا (لتعارفوا) فرموكِ
يا وحيهم ما جاء عمرو غازياً ... إلا لنشر الحق في ناديك
ودم الصحابة لم يُرَقْ عفواً ولم ... يُسْتَشْهَدِ الأبرار حين غزوك
وهبوا حياتهم لنصرة ربهم ... والدين والقران كي يحموك
عادت عصور الجاهلية بينهم ... وتصدع الإسلام بين يديك
واحسرتاه على الحنيفة كم غدت ... تبكي كرامة مجدها المهتوكِ
لا الدين أصبح يهتدى بجلاله ... لا السنة العصماء تسعد فيك

[١٢٤] انظر: برقة العربية الأمس واليوم، للأشهب، ص (١٦٢، ١٦٣).

والمسلمون أذلة ليست لهم ... من دينهم غير اسمه يأسوك
ساءت موازين الحياة وبالهوى ... ساسوا الأمور، وخسفهم ساموك
وتطلَّع الغربُ الغريب توثباً ... وأعد عدته لكي يرويك
أبناء روما في الشمال تحفزوا ... وبنوا فرنسة في الجنوب قلوك
الله يا أرض الجدود ومن سوى ... رب السماء من الأذى ينجيك
إن الذي بعث النبيَّ محمداً ... للتائهين أعز من يهديك
يا بن السنوسيِّ الكبير تحية ... من أمة في عصرها المنهوك
جاءت إليك تحط كل رجائها ... وتطوف حول ركابك المبروك
أولست سيد عصره وإمامها ... والقائد الأعلى بغير شريك؟
في لينه حزم، وفي إيمانه ... كل اليقين بنصر خير مليك
وغناه في قصد، وفاقته على ... أسمى التجمُّل في أعفِّ سلوك
يا أرضُ قَرِّي خاطراً وتقدَّمي ... بتحية الإكبار من هاديك
حُمِّلْتِ اثاماً فجاء مطهراً ... أكرم به من مؤمن يحبوك
وغدوتِ أشتاتاً فأقبل هادياً ... ومبشراً، وإلى العلا يدعوك
ويلم شعث المسلمين ويبتني ... ركناً يقام وأمة تفديك
ويعيد للدين القويم بهاءه ... ويقيل عثرة شعبك المملوك[١٢٥]

– إن اختيار ابن السنوسي لبرقة كان قراراً حكيماً، يدل على معرفته للمنطقة جيداً، فقد اتصفت برقة بفراغها السياسي، وبجهلها العلمي، وبكونها مخرجاً لأواسط إفريقية.[١٢٦]

وظل ابن السنوسي خمس سنين وقيل: ستة في برقة، ينشأى الزوايا وينظمها، ويرسم مناهج الدعوة ومبادئها، ويبث دعوته الإصلاحية عن طريق هذه الزوايا. ثم عاد بعد هذه السنوات الخمس إلى الحجاز، المركز الأول لدعوته، ومنذ ذلك الوقت كان للدعوة عنده مركزان رئيسان: شرقي في الحجاز، وغربي في برقة، وعن هذين المركزين

---

[١٢٥] انظر: السنوسي الكبير، ص (٢٠).

[١٢٦] انظر: المهدي السنوسي، للأشهب، ص (١٤٢، ١٤٣).

أخذت الدعوة السنوسية تنتشر بوساطة الزوايا هنا وهناك.[١٢٧]

إن سفر ابن السنوسي إلى مكة يدلنا على أنه كان لديه مشروعات دعوية كثيرة في العالم الإسلامي، وأن هدفه فتح أراضٍ جديدة لدعوته، لقد استطاع ابن السنوسي أن يرسي قواعد الدعوة في برقة ويثبت أسسها، فغادر برقة وهو مطمئن إلى أن دعوته ستنتشر، وقد خلف وراءه عدداً من الإخوان للإشراف على الحركة.

لقد كان ابن السنوسي يخطط في تنظيمه بحيث يكفل الاستمرار بغضِّ النظر عن وجوده أو عدم وجوده.[١٢٨]

المبحث الثالث

إقامة ابن السنوسي في الحجاز وعودته إلى برقة

سافر ابن السنوسي إلى الحجاز، واستمرت مدة إقامته حوالي ثماني سنوات، وحَفِلَتْ هذه السنوات بنشاط دعوي عالمي لابن السنوسي، دل على قدرته التنظيمية، وذكائه في تصريف شؤون الحركة، وشرع في إنشاء الزوايا، وكثر دخول الناس في الدعوة، وتعرض لمتاعب من قبل بعض العلماء، وقد تحدَّث الصادق المؤيد عن ذلك فقال: «مع أن المرحوم ابن السنوسي عندما كان في الحجاز لم يتعرض للهجوم على الطرق الصوفية الأخرى، فإنه أصبح هدفاً لنقمة الاخرين ونقدهم. ومع ذلك فقد توسع نفوذ السنوسية ودخلت صحراء جزيرة العرب؛ حيث اعتنقها عدد من القبائل كبني حارث وبني حرب، كما انتشرت الطريقة بوساطة الحجاج، وهذا سر انتشارها بسرعة خارقة في الحجاز واليمن على الخصوص.

وعلى الرغم مما وقع للسيد السنوسي من رقابة ومنافسة وعداء، فقد

---

[١٢٧] انظر: الحركة السنوسية، ص (٨٨).

[١٢٨] انظر: دراسات وصور، للحاجري، ص (٢٩٠).

كان عدد المريدين في ازدياد، ولذلك أسس زوايا أخرى عدا الزاوية الرئيسة التي في جبل أبي قبيس في المدينة والطائف والحمراء وينبع وجدة».[١٢٩]

وكان لكل زاوية من هذه الزوايا عمل خاص؛ «فزاوية أبي قبيس فيها مسجد شريف، ومدرسة للتعليم، ومساكن لقبول الزوار والمسافرين، وتكتظ هذه الزاوية بالناس في موسم الحج خاصة. أما زاوية جدة فكانت تستقبل الوافدين من المنسوبين للطريقة وغيرهم، وتتولى إسكانهم وإعاشتهم مجاناً، فهي محل ضيافة عامة».[١٣٠]

واستطاع ابن السنوسي أن يساهم في تربية وتعليم القبائل من الحجاز، وأرشدهم

إلى دينهم، وعمل ابن السنوسي بالإضافة إلى تأسيس الزوايا على تعليم مريديه بنفسه، فجلس في مكة يدرِّسهم الفقه والعلوم الأخرى. كما ألف لهم عدداً من الكتب؛ منها: كتابه (بغية المقاصد وخلاصة الراصد) المسمى بالمسائل العشر. وقد انتهى من كتابته كما تشير إلى ذلك النسخة المطبوعة سنة (١٢٦٤ هـ) أي: أثناء إقامته في الحجاز، ومنها رسالة كتبت مقدمة لكتاب (موطأ الإمام مالك) في أول سنة (١٢٦٧ هـ)؛ وذلك حين بداءته لقراءة (الموطأ) بغية إعطاء طلابه فكرة عن الكتاب،[١٣١] وربما قد كتب بعض مؤلفاته الأخرى في تلك الفترة، كـ (إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقران)، و(الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية)، و(السلسبيل المعين)، وقد ظهر في كتبه هذه اتجاهه الصوفي، واعتماده على الكتاب والسنة، وقوله بالاجتهاد.

وكان طوال إقامته في الحجاز، يحرص على الحج كل عام، ويتصل بالناس ويدعوهم إلى دعوته، ويضم من يستجيب منهم، وكان على اتصال مستمر بأتباعه في برقة؛ يوجههم ويصدر إليهم تعاليمه وإرشاداته

---

[١٢٩] انظر: الحركة السنوسية، ص (٨٨).

[١٣٠] انظر: الحركة السنوسية، ص (٨٩).

[١٣١] انظر: سياحتي في صحراء إفريقية، ص (٧٥).

بوساطة الرسائل. ويذكر الأشهب: «أنه كان يندب سنوياً من يزور مختلف الزوايا لإبلاغ توصياته وتوجيهاته».[١٣٢]

وكان ابن السنوسي قد ترك زوجته وولديها محمد المهدي ومحمد الشريف في برقة، وكان على اتصال بهم عن طريق الرسائل، وكان قد عين عمران بن بركة ومحمد بن إبراهيم الغماري للاهتمام بشؤون أهله وولديه، وقد ذكر عبد القادر بن علي، بأن ابن السنوسي عندما بشر بمولوده الجديد قال: «الان ظهر الصباح وخفي المصباح» وكان يقصد بالصباح: ابنه، والمصباح: نفسه.[١٣٣]

وعندما بلغ محمد المهدي الخامسة من عمره «أرسل ابن السنوسي إلى الإخوان الكافلين له، وقال لهم: أدخلوه الكتّاب وعلموه الوضوء والصلاة، ففعلوا كما أمر».[١٣٤]

وعندما بلغ محمد المهدي السابعة من عمره أرسل إليهم، ليوجهوه إليه مع زوج خالته، فارتحل به، ولما اجتمع ابن السنوسي بولده سُرَّ به سروراً عظيماً، وطلب لوح قراءته، فوجد أوله فازداد {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ۞} [القَلَم: ٤]، وزوَّره الروضة الشريفة، ولقَّنه ما عنده من الدعاء، ثم زوّره الماثر كلها التي بالمدينة، كمسجد المائدة، ومسجد القبلتين، وجبل أحد، وقبور شهداء أحد، وقبر حمزة رضي الله عنه.[١٣٥]

وكان قبل مجيء ابنه قد تزوَّج ابن السنوسي زوجته الرابعة والأخيرة (ابنة حسن البسكري)، وكانت بدرنة مع أختها وأخواتها، وتوفي والدها، فأرسل ابن السنوسي إلى ابن أخي حسن البسكري أن يأتي بالأم وبناتها، وكانت أكبر البنات تحت عبد الله البسكري ابن أخي حسن البسكري،

---

[١٣٢] انظر: النسخة المطبوعة من المسائل العشر.

[١٣٣] انظر: السنوسي الكبير، ص (٤٣).

[١٣٤] انظر: الفوائد الجلية (٢/٦٠).

[١٣٥] أحمد الشريف، مخطوط، ص (٧٦).

فرحل بها إلى الحجاز وتزوجها ابن السنوسي، ورزقت منه بولد وتوفي صغيراً، ولم يفارقها حتى مات.[١٣٦]

وعندما بلغ محمد المهدي التاسعة غادر والده المدينة إلى مكة، وتركه مع زوجة أبيه البسكرية فاعتنت به كثيراً. وفي جمادى من سنة (١٢٦٩ هـ) طلب ابن السنوسي ابنه محمد المهدي من المدينة، وأرسل يطلب من الإخوان في برقة بإرسال ابنه محمد الشريف.

وذكر أحمد الشريف رحلة والده، فقال: «فارتحل محمد الشريف من الجبل وهو ابن سبع سنين ومعه والدته وجده السيد أحمد بن فرج الله، ومروا على العقبة، ثم منها إلى الإسكندرية، ثم إلى كرداسة، ثم نزلوا بمصر ببيت الشيخ عمر الزروالي، وأقاموا بها أياماً، ثم إلى السويس، وركبوا البحر قاصدين جدة.. وأتتهم ريح عاصفة قبل نزولهم قلعت المركب حتى أيقنوا الغرق.. وتقطعت الأشرعة، واخر الأمر سلمهم الله ورمتهم الريح على الينبع، فنزلوا بها وأقاموا أياماً للاستراحة. ثم ارتحلوا إلى المدينة المنورة، فزاروا الروضة الشريفة، واجتمعوا بالباشا الذي رحب بهما وأعطاه ساعة تساوي مئة، وبعد ذلك بنى جامع الزاوية التي بالمدينة بناءً متقناً من نفسه جزاه الله خيراً. وكان بالمدينة يومئذ السيد عبد الله التواتي وأكرمهم غاية الإكرام. وأقاموا بها ثلاثة أشهر ونصف، ثم ارتحلوا منها إلى مكة المشرفة منتصف

ذي القعدة سنة تسع وستين بعد المئتين والألف بصحبة السيد التواتي... وتخلف السيد عبد الله لوجع في رأسه، وحمى معه اخر فناما ليستريحا ويلحقا بالقافلة، فلم يشعروا إلا وهبت الريح.. وقطاع الطريق قد أحاطوا برواحلهما لينهبوا ما عليها، فقاموا إليهم للمدافعة عما أرادوه، فضربوا السيد عبد الله بفأس على رأسه فسقط على الأرض، وجرحوا صاحبه، واكتشف رجال القافلة الأمر بعد أن أرسلوا رسولاً ينظر سبب

[١٣٦] انظر: أحمد الشريف، مخطوط، ص (٧٨).

تأخر الرجلين، فتوقفوا لدفنه، وساروا في خوف وحزن يحرسهم العسكر الذين أرسلهم الباشا إلى أن وصلوا مكة المكرمة».[١٣٧]

وقد حزن ابن السنوسي على مقتل عبد الله التواتي الذي كان من أوائل رفاقه، وكان المسؤول الأول عن نشاط الحركة في الحجاز، وقد أمر ابن السنوسي بنقله إلى بدر، حيث دفن بجوار الشهداء رضي الله عنهم أجمعين.[١٣٨]

كان عبد الله التواتي من كبار العباد في الحركة السنوسية، وقد حدثني أستاذي في اللغة العربية الشيخ راشد الزبير السنوسي عندما كنا معاً في المعتقل السياسي بطرابلس الغرب بأن عبد الله التواتي كان يقول: والله لأزاحمنَّ أصحاب النبي (ص) على أبواب الجنان بركبتي، وكان عبد الله التواتي شديد الإخلاص لابن السنوسي؛ حتى إنه دعا الله أن يكون فداء له ولأنجاله،[١٣٩] وقد أصاب قاتليه مرضٌ مزمنٌ وماتوا ميتة بشعة، وانتشر خبر وفاتهم بين قبائل الحجاز، فأصبحوا يتحاشون السنوسية وأتباعهم ولا يمسونهم بسوء أبداً؛ حتى إن أهل مكة والمدينة كانوا إذا أرادوا الحج أو الزيارة فلا يخرجون إلا مع الركب السنوسي؛ لكي يأمنوا حياتهم وأمتعتهم.[١٤٠]

أولاً: عودة ابن السنوسي إلى برقة:

بعد وصول محمد الشريف ابن السنوسي إلى مكة وكان بصحبته جده لأمه أحمد بن فرج الله ووالدته وعمران بن بركة الفيتوري، وكثير من الإخوان، وحج الجميع مع ابن السنوسي، وقدم من برقة في هذا الحج كثير من أعيانها ووجهائها

---

[١٣٧] انظر: الحركة السنوسية، ص (٩٣).

[١٣٨] انظر: أحمد الشريف، مخطوط، ص (٧٩).

[١٣٩] انظر: الفوائد الجلية (٧٢/١).

[١٤٠] انظر: الحركة السنوسية، ص (٩٠).

ومشائخ القبائل؛ منهم:[١٤١] الشيخ أبو شنيف الكزة، والشيخ عمر جلغاف، وعبد الله أبو سويحل، والحاج محمد كاهية، وغيرهم؛ ليلتمسوا من السيد عودته إلى البلاد المتعطشة لدعوته، فكان يعدهم خيراً، ومما يلفت النظر أن الشيخ أبو شنيف الكزة الذي تجشم مشاق الطريق لرؤية السيد؛ كان عمره يتجاوز المئة سنة، لقد كان شوق الإخوان في برقة إلى ابن السنوسي عظيماً، فهذا أحمد الطائفي يرسل من درنة قصيدة إلى ابن السنوسي، جاء فيها:

يا من نأوا عني وشط مزارهم ... وتجددت لبعادهم أحزاني
نار الجوى بين الجوانح أُضرمت ... والروح فارق بعدكم جثماني
لا كان يوم البين لا كان النوى ... يا ليتني أُدرجت في أكفاني
حر النوى أوهى قَوِيَّ تجلُّدي ... وأعلَّ جسماً طبه أعياني
وأطال سهري والخلائق هجَّعٌ ... وأثار وجداً كامناً بجناني
وسقى رياض الشوق يوم وداعهم ... بسواكب العبرات من أجفاني
فطويت حينئذ بساطَ مسرتي ... ونشرت بعدكم رداً أحزاني[١٤٢]

– وبعد أن ألح زعماء برقة على رجوع الشيخ ابن السنوسي معهم، استخار الله سبحانه وتعالى، وسأله إرشاده إلى الطريق التي يرضاها سبحانه وتعالى وفيها نفع للأمة المحمدية، فأراه الله ما ألهمه وقوى عزيمته على العودة إلى برقة، فرتب الأمور بالحجاز وعين مشايخ للزوايا، وزوَّدهم بما راه، وحرضهم على سلوك طريقته في إرشاد العباد، ودلالتهم على الله والتمسك بسنة سيدنا رسول الله (ص)، وبذل النصح للمسلمين أينما كانوا، وأناب عنه في زاوية أبي قبيس الشيخ محمد إبراهيم الغماري، وأبقى ابنيه ووالدتهم وجدهم في مكة، وأمر محمد الغماري وأحمد البقالي بتعليم ابنيه القران الكريم وغيره من العلوم، وحمل معه جميع كتبه وأثاثه، ورافقه جميع الإخوان الملازمين له،

---

[١٤١] انظر: الفوائد الجلية (٧٣/١).

[١٤٢] المصدر السابق نفسه (٧٨/١).

والأعيان والشيوخ القادمون من برقة، وتوجَّه من مكة إلى المدينة وأقام بها ما يزيد عن مدة شهر،[١٤٣] وقد ذكر بعض المؤرخين أسباب خروجه من الحجاز، فقال بعضهم: كان لديه رغبة لزيارة الشام.

وقد أثبت الملك محمد إدريس هذه الرغبة فقال: «إنه كان يفكر بزيارة الشام بعد إقامته الثانية، وهَمَّ بالتوجه إليها، ولكن أهل برقة أصروا على اصطحابه معهم إلى الجبل الأخضر».[١٤٤]

ويذكر الأشهب أنه عندما طالت مدة غياب ابن السنوسي في الحجاز «اشتد القلق في ليبية لطول غيبته، وسافر إلى الحجاز أكثر من وفد ليبي ليلتمس منه أن يعود، وكانوا يسافرون غالباً في موسم الحج»،[١٤٥] أما غرضه من زيارة القدس والشام، فأغلب الظن أنها كانت لزيارة المسجد الأقصى لنشر دعوته، ولكن هذه الزيارة لم تتم.[١٤٦] وقد ذكر ابن السنوسي: «كان العزم الذي خرجنا له زيارة القدس، ثم في أثناء السفر أتانا الإذن بالذهاب إلى هنا يقصد: برقة».[١٤٧]

وانفرد البستاني بالقول أنه خرج من مكة خائفاً من تهمة مشاركته مع الشريف عبد المطلب، شريف مكة، الذي عصى الدولة العثمانية: «لذلك خاف من الإقامة في مكة بعد هذه التهمة، فرحل منها عائداً إلى الجبل الأخضر عن طريق مصر»؛[١٤٨] إلا أن هذا القول يسقط ويتهاوى أمام حرص ابن السنوسي على الابتعاد عن الصدام مع السلطة العثمانية.

وواصل ابن السنوسي سيره من المدينة متجهاً إلى مصر ودخلها عام (١٨٥٤ م)، وغادرها إلى الجبل الأخضر، «ونزل بمحل يعرف

[١٤٣] انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص (١٦٨).

[١٤٤] انظر: الفوائد الجلية (٧٩/١).

[١٤٥] انظر: الحركة السنوسية، ص (٩٦).

[١٤٦] انظر: السنوسي الكبير، ص (٤٣).

[١٤٧] انظر: الحركة السنوسية، ص (٩٧).

[١٤٨] المصدر السابق نفسه، ص (٩٦).

بالغزيات؛ وهو قصر قديم، فرممه وأصلحه وسماه بالعزيات، وأقام هناك سنتين»،[١٤٩] وكان في تلك الفترة يشرف بنفسه على تنظيم وإنشاء الزوايا، وكان يرسل مندوبين عنه لتفقد أحوالها، وكان كبار الإخوان يقدمون على العزيات لزيارة ابن السنوسي، فكان يسمع أخبار الزوايا، ويصدر إليهم تعليماته[١٥٠].

وبعد أن أقام ابن السنوسي عامين في العزيات عزم على التحول إلى الجغبوب، وكان قصده التوغل في الصحراء حتى يكون أكثر أمناً.[١٥١]

ثانياً: أسباب اختيار الجغبوب:

إن اختيار ابن السنوسي للجغبوب كمقر لقيادة الحركة السنوسية دليل على بعد نظره، وثاقب فكره، ورجاحة عقله، وحسن تصرفه، وقد ذكر المؤرخون أسباب ذلك الاختيار؛ فقالوا:

١- أراد أن يجعل من الجغبوب مركزاً للتوفيق بين قبائل الصحراء المختلفة، ونشر راية دعوة الإسلام بينهم جميعاً، وكان الجغبوب مركزاً أحسن اختياره، وكان صالحاً لأغراضه في وسط قبائل في الشرق والغرب، وكان النزاع بينهما مستمراً، ومن ثم أمن للحركة السنوسية أن تبسط نفوذها في المتنازعين، وأن تصلح ذات بينهم.

٢- الاهتمام بأبواب الصحراء المترامية الأطراف من نواحي الغرب والجنوب والشرق، ولذلك كانت زاوية الجغبوب نقطة مهمة، وأعقبتها عدة زوايا فيما بعد تخدم نفس الهدف، من أجل ضمان السلامة والأمن في الصحراء، وضمان المحافظة على طرق التجارة؛ إذ كانت طرق القوافل تربط بين الجزائر وطرابلس، وتشاد، وبرقة ومصر.

٣- كان البدو في ليبية يضطرون أحياناً إلى ترك دواخل ليبية بسبب خلاف يقع بين قبيلة وأخرى، أو مع الدولة العثمانية، فتكون وجهة

---

[١٤٩] انظر: البستاني، دائرة المعارف، مادة: سنوسي.

[١٥٠] المصدر السابق نفسه.

[١٥١] انظر: الحركة السنوسية، ص (٩٩).

النازحين نحو الصحراء، ولذلك فكر ابن السنوسي ونظر إلى هذا الأمر ببصيرة نافذة، فأوجد هذه الزوايا في المواقع البعيدة ليأوي إليه النازحون عن دواخل البلاد، فيجدوا أمناً وأماناً.[١٥٢]

٤- ازدادت عداوة علماء إستانبول والقاهرة لأفكار ابن السنوسي الدعوية، فرأى أن يبتعد عن الساحل ويتوغَّل في الصحراء بعيداً عن السلطات العثمانية.

٥- كان ابن السنوسي قد شعر بدنو استيلاء النصارى الصليبيين على السواحل، فاختار الابتعاد إلى الجنوب والإقامة في الصحراء.[١٥٣]

وكان الجغبوب في تلك الاونة «واحة ملحة يأوي إليها الدعّار واللصوص، ولا تجسر القوافل أن تمر بها من جراء العبث في أنحائها. فلما اختارها (السيد) مقراً له وبنى بها زاويته الكبرى؛ صارت مهد أمان ومركز عبادة، ومشرق أنوار ومعلم هداية، فغرس بها الأشجار ونسق الجنان، واستنبط العيون وتوسع في البناء، وأسس مدرسة لتخريج مريدي الطريقة، وأجلس للتدريس فيها جلة العلماء».[١٥٤]

«لم تكن الجغبوب مكاناً يصلح لحياة فخمة، ولكنه مركز له عدة مزايا سياسية؛ فهو خارج قبضة الترك والفرنسيين والمصريين، وهو على خط الحج الرئيسي القادم من شمال إفريقية الغربي عبر مصر إلى مكة، وهذا الخط مقطوع عند الواحة بخط تجاري اخر من الساحل إلى الصحراء إلى السودان؛ وبالإضافة إلى ذلك فإنها كانت أكثر النقط توسطاً في برقة التي تشكل شبه جزيرة؛ حتى إنه منها ما يكون على مقربة من زواياه وطرابلس والصحراء الغربية في مصر والسودان».[١٥٥]

---

[١٥٢] المصدر السابق نفسه، ص (١٠١).

[١٥٣] انظر: السنوسي الكبير، الطيب الأشهب، ص (١٠١، ١٠٢).

[١٥٤] انظر: حاضر العالم الإسلامي، شكيب أرسلان (١٤٢/٢).

[١٥٥] انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٣٦).

ثالثاً: الإخوان السنوسيون الذين حملوا مع ابن السنوسي الدعوة:

كان ابن السنوسي في تجواله بين الأقطار الإسلامية يقوم بدعوة الناس وتعريفهم بالإسلام، وسلك منهج القران الكريم في دعوته، فكان يقوم بوظيفته الدعوية امتثالاً لقوله تعالى: [البقرة: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۞} [البَقَرَة: ١٥١]

وتمثل هذه الواجبات الأمور التالية:

أ- تبليغ وحي الله إلى الناس، وتعريفهم به {يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا} [البَقَرَة: ١٥١]، وكان يقوم بالتبليغ بالأمور الاتية:

١- شرح أصول الإسلام وقواعده للناس.

٢- تفسير نصوص القران والسنة تفسيراً لمنهج السلف، وملائماً لعصره من حيث الأسلوب والوسيلة.

٣- جمع الناس على الإسلام ومبادئه وأخلاقه، وتوجيههم نحو الفهم والعمل.

٤- استهدف كل الناس بالدعوة؛ سواء كانوا مشركين أو نصارى أو يهود أو ملاحدة أو منافقين... إلخ.

٥- بيان الأخطار التي تواجهها الأمة الإسلامية من أعدائها.

ب- تزكية الناس: حيث قام ابن السنوسي بتربية الناس على الصفات المحمودة، وتذكيرهم بخطورة الأخلاق الذميمة.

ج- التعليم: حيث قام ابن السنوسي بتعليم الناس القران والحكمة، ونقلهم من ظلام الجهل إلى نور العلم، ومن ضلال الباطل إلى هداية الحق.

واستطاع أثناء تحركه بدعوته أن يختار من بين المسلمين مجموعة خيرة من العلماء والفقهاء والدعاة، ممن اتصفوا بالتميز الإيماني، والتفوق الروحي، والرصيد العلمي، والزاد الثقافي، ورجاحة العقل، وقوة الحجة،

ورحابة الصدر، وسماحة النفس، وأصبحوا من أعمدة الحركة السنوسية أثناء حياته وبعد وفاته، فبعضهم أصبح مشرفاً ومعلماً في الزوايا المنتشرة في ليبية وتشاد، والحجاز، ومصر، وبعضهم أصبح من أعضاء هيئة التدريس العليا في الجغبوب، وكان هؤلاء الإخوان الذين ساندوا الحركة السنوسية منهم من هو من الحجاز، كالشيخ فالح الظاهري، ومحمد بن الصادق الطائفي؛ ومنهم من هو من الجزائر، كأبي القاسم التواتي؛ ومنهم من هو من تونس، كعلي بن عبد المولى؛ ومنهم من هو من السودان، كالسيد محمد بن الشفيع؛ ومنهم من هو من برقة، كعبد الرحيم المحبوب، ومنهم من هو من طرابلس كعمران بن بركة الفيتوري.[١٥٦]

واختار ابن السنوسي من كبار علماء الحركة للتفرغ للتدريس في معهد الجغبوب « ... وجلس كبار العلماء للتدريس بمعهد الجغبوب، حيث تدرس جميع أنواع

العلوم،[١٥٧] فلا ينحصر التعليم على حفظ القران (وهذا شرط أساسي)، وبعض العلوم الدينية والعربية، كما هو الحال في كثير من المعاهد وقتذاك، وحتى الان؛ بل إن التعليم قطع بالجغبوب شوطاً بعيداً وسار خطوات واسعة، فتناول أهم العلوم العقلية والنقلية، وكان يجلس للتدريس فطاحل العلماء والأعلام تحت إشراف السيد ابن السنوسي نفسه، الذي يضع برامج التعليم ويقرها، فتخرج من هذا المعهد العدد الكبير بقسط وافر من العلوم... فمنهم: العلماء والكتاب والمصنفون»(١).

وقد ذكر محمد الطيب أسماء بعض العلماء الذين قاموا بإلقاء الدروس في معهد الجغبوب تحت إشراف ابن السنوسي؛ فمنهم: عمران بن بركة الفيتوري، أحمد عبد القادر الريفي، فالح الظاهري، أحمد التواتي، عبد الرحيم أحمد المحبوب، ومحمد بن أحمد الشفيع،

---

[١٥٦] انظر: بريتشارد، ص (١٥)، نقلًا عن الحركة السنوسية، ص (١١٣).

[١٥٧] انظر: دراسات وصور، للحاجري، ص (٢٩٨).

أبو سيف مقرب حدوث البرعصي، حسين الموهوب الدرسي، محمد صادق الطائفي، أحمد الطائفي، محمد مصطفى المدني، محمد القسطيني، محمد حسن البكري.[١٥٨]

لقد قام عدد كبير بنصرة وتأييد الحركة السنوسية من العلماء والفقهاء والقادة، والشيوخ، ومن أشهر هؤلاء الإخوان الذين ساندوا ووقفوا مع ابن السنوسي في حركته الواسعة:

١- محمد عبد الله التواتي: وهو من أوائل إخوان ابن السنوسي وتلاميذه، وقد قام بعدة أعمال كلفه بها ابن السنوسي في كل من الحجاز واليمن وليبية، وقتل في الحجاز ودفن بزاوية بدر، وقد مرّ ذكره.

٢- أحمد أبو القاسم التواتي: من الجزائر، وقد تولى مشيخة زوايا سيوة والزيتون وزوايا فزان، وكان أحياناً ينتدبه ابن السنوسي للتفتيش على الزوايا ومراقبة أحوالها، ومما قاله ابن السنوسي في حقه في كتاب أرسله إلى أعيان واحة سيوة قوله: «وولدنا الشيخ أحمد التواتي قد أقمناه مقامنا، وما أرسلناه إلا لمنفعتكم

خاصة، وإلا فغيره يقوم مقامه، واسمعوا لنصيحته؛ فإنه نصوح أمين، وقد هدى الله به أمماً عديدة».[١٥٩]

توفاه الله بزاوية الطيلمون، وقد رثاه زميله العلامة فالح الظاهري بقصيدة عصماء؛ مطلعها:

على مثل من أوقاته حلية الدهر بصالح أعمال، دموعك فلتجر

كما رثاه شاعر السنوسية أبو سيف مقرب بقصيدة مماثلة؛ جاء فيها:

سل الدهر هل يبقي سعيدٌ مخلدا ولو كان أبقاه لأبقى محمدا
يكر علينا ليله ونهاره شجاعين لا يثنيها من تجلدا[١٦٠]

---

[١٥٨] المصدر السابق نفسه، ص (٢٩٧).
[١٥٩] انظر: السنوسي الكبير، ص (٥٠).
[١٦٠] المصدر السابق نفسه، ص (٥٨).

– ومنها:

ألا ليت شعري كيف صاروا بنعشه إلى القبر وهو الطود ذو المجد والندى
حوى نعشه علماً وفخراً وسؤدداً وحلماً وتقوى ما سواها تزودا

٣- علي بن عبد المولى: من تونس، تولى مشيخة الجغبوب، وكان وكيل خاصة ابن السنوسي، واستمر في عهد محمد الثاني، وكان معروفاً بالصلاح والتقوى، توفي بالجغبوب.

٤- أحمد بن فرج الله: من طرابلس، وهو والد أم محمد المهدي، ومحمد الشريف، وقد توفاه الله بالبيضاء، ودفن بمقبرة الصحابي رويفع بن ثابت الأنصاري، ولم يترك عقباً من الذكور.

٥- محمد بن الشفيع: من سنار السودان، كان من بين تلاميذ العلامة أحمد بن إدريس الفاسي دفين (صبيا)، وتعرف على ابن السنوسي أثناء حضوره عند أحمد بن إدريس، وسمع ما شهد به ابن إدريس لابن السنوسي، وقد تولى أعمالاً كثيرة؛ منها: مشيخة زاوية المدينة، والقيام بالتفتيش على الزوايا في كل من الحجاز وليبية، وكانت اخر أعماله: مشيخة زاوية سرت (خليج سدرى)، وكان من أجل

العلماء علماً وتقى وشدة في الحق وشجاعة،[١٦١] وكان يهابه حكام الأتراك وزعماء العرب لشدة تحرشه معهم في الحق رغم جميع المجاملات، وكانت له مواقف مشهورة مع الفريق الحاج رشيد باشا عندما كان هذا الأخير حاكماً لبرقة، وكان يحترم ويجل ابن الشفيع، وذات مرة سافر رشيد باشا إلى الجغبوب، وكان يصحبه ابن الشفيع، وشرع رشيد باشا يتلو القران وابن الشفيع يستمع، حتى وصل القارأى لقوله تعالى: [النبأ: {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ۝} [النَّبَإِ: ١٢-٢٢] فقال ابن الشفيع: أتعلم يا رشيد لمن خلقت جهنم؟ فقال رشيد: الله أعلم يا سيدي، فأجابه قائلاً: إنها لك ولأمثالك ما لم تأخذوا بكتاب

---

[١٦١] المصدر السابق نفسه، ص (٥٩).

الله، فضحك رشيد وقبَّل يد ابن الشفيع، وتوفي ابن الشفيع بسرت سنة (١٣٢٤ هـ).[١٦٢]

٦- أحمد المقرحي: وقد سماه ابن السنوسي بالمفرحي، من بادية طرابلس، وكان من طليعة علمائها الذين يرجع إليهم علي باشا عشقر الحاكم العثماني، وفي بعض الروايات أنه تولى الإفتاء في ولاية طرابلس، وقد مر ذكر المناظرة التي قامت بين علماء طرابلس وابن السنوسي، وقد توفي المقرحي بالزاوية البيضاء عام (١٢٦٣ هـ)، ودفن بمقبرة رويفع الأنصاري، ولم يترك عقباً.

٧- عمران بن بركة الفيتوري: من زليطن، أسندت إليه مشيخة الزاوية البيضاء، وقام بالتدريس في معهد الجغبوب، وكان مدرساً لمحمد المهدي السنوسي، وكان يتمتَّع بمكانة مرموقة بين زملائه وتلاميذه؛ توفي بالجغبوب عام (١٣١٠ هـ)، ورثاه شاعر الحركة السنوسية أبو سيف مقرب البرعصي بقوله:

لقد سرت يا مولاي للقبر نيراً ... ولا عجب فالنيرات تسير
وإن جار دهر في انتهابك واعتدى ... فما زال قِدَماً يعتدي ويجور
له كَلَف بالأكرمين فكأسه ... تُدِرُّ عليهم عاجلاً وتدور
ويعتامهم بين الأنام فَنَبْلُهُ ... يُصِيْبُ وأما خيله فتغير
ألا إن للدنيا مصائب جمة ... ولكن مصابي بالكبير كبير
مصاب له فاضت نفيسات أنفس ... ولان له (رضوى)[١٦٣] ولان (ثبير)

فيا واحداً ضج الجميع لفقده ... وعج كبير بالبكا وصغير
قضيت حميداً وانقضى العلم والتقى ... واضى جناح الدين وهو كسير[١٦٤]

---

[١٦٢] انظر: السنوسي الكبير، ص (٦٠).
[١٦٣] انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص (١٤٣).
[١٦٤] جبلان من جبال مكة.

– وقد تزوج الإمام محمد المهدي كبرى بناته، وتزوَّج محمد الشريف بالثانية، فأنجب منها المجاهد الإسلامي الكبير أحمد الشريف.[١٦٥]

٨- عبد الله بن محمد السني: من سنار السودان، كان من تلاميذ العلامة أحمد بن إدريس، وتولى أعمالاً كثيرة؛ منها: إلقاء الدروس في مختلف العلوم، وتولى مشيخة زاوية مزدة؛ حيث توفاه الله بها.

٩- فالح الظاهري: من الحمراء بالحجاز، ينتسب لبني حرب، التحق بابن السنوسي سنة (١٢٤٣ هـ) في مكة، وتفرَّس فيه ابن السنوسي نجابة وذكاء، كان من طليعة المدرسين بالمعهد الجغبوبي، زار إستانبول مندوباً عن ابن السنوسي، كما زارها في عهد السلطان عبد الحميد، ونزل في ضيافته معززاً مكرماً، ثم زار الهند، وجلس للتدريس في جميع البلاد التي زارها، ومما يلي نذكر بعض ما ورد في رسالة منه إلى العلامة أحمد الريفي رحمهما الله: «وفي هذه السبع سنين، بعد قدومي من البلاد الرومية حصل لي من إفادة العلوم غطوس ما أفقت منه إلا وأعضائي بها خلل من طول الجلوس، لكنني ولله الحمد حصلت من تبليغ العلم إلى أهله غاية الأرب؛ ولم يبقَ قطر من الأقطار إلا وحمل عني إليه دفتر (مفالحة) شيخنا الأستاذ، وهذا أقصى أمنيتي من كوني جعلت في الخافقين لشيخنا المذكور أعلى صيت حتى في الهند والسند...».[١٦٦]

كان العلامة فالح الظاهري متضلعاً في العلوم الدينية والفقهية والحديثية والتاريخية واللغوية، وكان شاعراً يقرض الشعر، توفاه الله سنة (١٣٢٧ هـ) بالحجاز،[١٦٧] وله عدة تاليف لم تطبع؛ منها: (أنجح المساعي)، و(حُسْنُ الوفا

لإخوان الصفا)، و(صحائف العامل بالشرع الكامل).[١٦٨]

---

[١٦٥] انظر: السنوسي الكبير، ص (٦١).

[١٦٦] انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص (١٤٥).

[١٦٧] انظر: السنوسي الكبير، ص (٦٢).

[١٦٨] المصدر السابق نفسه.

١٠- عبد الرحمن بن أحمد المحبوب (البنغازي): تتلمذ على يد ابن السنوسي، وتولى مهاماً كثيرة أسندت إليه، منها: مصاحبة محمد المهدي من الحجاز إلى الجغبوب، وكان مفتشاً على الزوايا، وتولى مشيخة زاوية بنغازي، وانتدب لزيارة إستانبول في عهد ابن السنوسي، كما زارها في عهد محمد المهدي، وقام بإلقاء الدروس بمعهد الجغبوب، توفَّاه الله بزاوية بنغازي (١٣٠٥ هـ).[١٦٩]

١١- حسين الغرياني: تتلمذ على يد ابن السنوسي، وانضم إلى مجلس الإخوان، وعرف عنه الصدق والإخلاص والحزم في جميع أعماله، وتولى رئاسة الزاوية البيضاء، ثم عين لرئاسة زاوية جنزور، وعرف عنه الصلاح والتقوى والتفاني في عمله، وتوفي بزاوية جنزور المعروفة باسم زاوية دفنه.[١٧٠]

١٢- أحمد بن عبد القادر الريفي: من تلمسان بالجزائر، التحق بابن السنوسي سنة (١٢٦٧ هـ)، فلازمه ملازمة صادقة، وقام بكثير من أعمال الحركة السنوسية، وأخذ عنه محمد المهدي السنوسي الكثير من العلوم، ثم أصبح المستشار الخاص لمحمد المهدي، وكان معروفاً بالحلم والورع ولين الجانب، وذكر بعض المؤرخين أن محمد المهدي السنوسي كان يتلو القران الكريم، وعندما مر بقوله تعالى: [الفرقان: {وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا ۞ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيامًا ۞ } [الفُرقان: ٦٣-٦٤]؛ قال: إن معنى هذه الاية ينطبق على السيد أحمد الريفي،[١٧١] وكان مستشار الحركة السنوسية الخاص، وتولى رئاسة مجلس الإخوان بالجغبوب، توفي عام (١٣٢٩ هـ/١٩١١ م)، فشق موته على أفراد البيت السنوسي وجميع الإخوان وعامة أهل برقة، ورثاه الشعراء والعلماء؛

---

[١٦٩] انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص (١٥٠).

[١٧٠] انظر: السنوسي الكبير، ص (٦٤).

[١٧١] انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص (١٥١).

ومن بينهم تلميذه أحمد إدريس الأشهب؛ حيث قال:

صبرتُ وما قلبي عليك بصابر فأنت إمام الأولياء الأكابرِ

تركت دموع العين تجري صَبابةً وسرت إلى أهل البلى والمقابر

مكثت بجغبوب وتاج ومكة وأنت تفيد القوم أهل المحابر[١٧٢]

١٣- محمد الصادق: من الطائف، التحق بابن السنوسي بالحجاز، وأُسندت إليه أعمال كثيرة، وقد أرسله ابن السنوسي إلى الجزائر أكثر من مرة بمهمات خاصة تتعلق بدعم حركة الجهاد في الجزائر، وتولى مشيخة زوايا الجريد بتونس، كما كان حلقة الوصل بين المجاهدين في الجزائر والزوايا السنوسية، وقد توفي بالجريد.

١٤- محمد بن مصطفى حامد المدني: من تلمسان، التحق بابن السنوسي في الحجاز عام (١٢٦٧ هـ)، وتولى أعمالاً كثيرة في الحركة السنوسية؛ منها: تعليم القران الكريم، وإلقاء الدروس، والإشراف على شؤون الطلبة والعمال في الجغبوب، ثم مشيخة زاوية تازربو؛ حيث توفاه الله هناك.

١٥- عمر محمد الأشهب: من زليطن، تعرف على ابن السنوسي مع زميله عمران بن بركة، تولى زاوية درنة، ومشيخة زاوية مارة، ثم مشيخة زاوية مسوس؛ توفَّاه الله بها.

١٦- مصطفى المحجوب: من مصراته، وقد تعرف على ابن السنوسي والتحق به في الزاوية البيضاء سنة (١٢٥٨ هـ)، تولى مهاماً كثيرة؛ اخرها مشيخة زاوية الطيلمون.

١٧- أحمد بن علي أبو سيف: من بادية طرابلس، تولى أعمالاً كثيرة؛ منها: التدريس ومشيخة زاوية مسوس، وزاوية مارة، وتوفي بالحجاز (١٢٩٤ هـ).

---

[١٧٢] انظر: السنوسي الكبير، ص (٦٥).

١٨- أبو القاسم العيساوي: من جبل طرابلس، تولى مشيخة زاوية الرحبان، وانتدب إلى دار الخلافة.

١٩- محمد إبراهيم الغماري: من المغرب الأقصى (مراكش)، تولى أعمالاً كثيرة؛ منها: مشيخة الزاوية البيضاء، والإشراف على صناعة تجليد الكتب الخاصة بمكتبة الجغبوب وتنظيمها.

٢٠- إبراهيم الغماري: من مراكش، تولى مشيخة زاوية دريانة ضمن الأعمال المناطة به.

٢١- مصطفى الغماري: من مراكش، تولى أكثر من زاوية بالحجاز؛ حيث توفاه الله هناك.

٢٢- محمد حس البسكري: كان يقوم بالسكرتيرية لمحمد المهدي فيما بعد.

٢٣- عمر أبو حواء الفضيل الأوجلي: كان من أوائل رفاق ابن السنوسي، وقد اشتهر بالصلاح والتقوى والاستقامة، وقد ندبه ابن السنوسي إلى أكثر من مهمة في كل من الحجاز وليبية والسودان وشمال إفريقية، وقد تولى مشيخة زاوية الجوف بواحة الكفرة التي توفاه الله بها.

٢٤- مصطفى الدردفي: من مصراتة، كان من رفاق ابن السنوسي، تولى مشيخة زاوية شحات.

٢٥- محمد بن حمد الفيلالي: من المغرب، كان من رفاق ابن السنوسي، وقد انضم إليه من الجزائر، وتولى أعمالاً كثيرة؛ منها: رئاسة مجلس الإخوان في برقة، وقد وصفه ابن السنوسي بالرئاسة،[١٧٣] إلا أنه بعد سفر ابن السنوسي الأخير إلى الحجاز انفرد (ابن حمد) في عمله، وأساء التصرف واستبدَّ عن رأي مجلس الإخوان، كما أخذ يهددهم ويهينهم بمختلف الإهانات، وهم يتحمَّلون ذلك ويرون طاعته مع الصبر على المكاره شيئاً ضرورياً؛ لأنه الوكيل عن ابن السنوسي، ولما

---

[١٧٣] انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص (١٦٩، ١٧٠).

ظهرت تصرفاته لابن السنوسي أمر بفصله، ثم سافر إلى الحجاز، وهناك استقبله ابن السنوسي، وقال له: «أتعبتنا يا أخانا ابن حمد؛ فما من كلمة سوء وجهتها لأحد إخواننا إلا وقد وجهت لنا بالذات، وما من ضربة سوط أصابت جسم أحدهم إلا وقد أصابتنا مباشرة».[١٧٤]

٢٦- محمد أحمد السكوري: من صنهاجة بالمغرب، تولى مشيخة زاوية الواحات البحرية، وأوفده ابن السنوسي في مهمة إلى الحجاز، ثم ولاه مشيخة

زاوية المرج، ورث عن أبيه ثروة ضخمة ومحبة البدو الذين عرفوا والده وأحبوه.[١٧٥]

٢٧- المرتضى فركاش: ينتسب إلى نوح المسماري الشريف الحسني، كان من كبار الشخصيات المحترمة بالجبل الأخضر، يمتاز بين قبائل العرب بالدهاء وكثرة التجارب، والمرونة وكرم الأخلاق وحسن التصرف، وله شهرته الإصلاحية، وقد ساعدته ثروته الطيبة وقتذاك على الاحتفاظ بمركزه الاجتماعي والأدبي، وكان يعيش الحضر والبادية؛ فيأوي إلى مدينة درنة في وقت الصيف، ويختلف إلى سكنى البادية في موسم الشتاء والربيع، وعندما وصل ابن السنوسي إلى الزاوية البيضاء التحق به وأخذ في خدمته بكل إخلاص، فنال حظوة عند سيادته، وكان يلازمه في تنقلاته داخل برقة، وحج معه إلى البيت الحرام، وحفظ القران وتفقه في الدين بقدر الإمكان، أنجب أولاداً كانوا جميعاً في خدمة الحركة السنوسية، وكان لأمر هؤلاء الأولاد دورٌ بارزٌ في الجهاد ضد إيطالية، وتميزت عائلة فركاش من بين قبيلة المسامير بخدماتها الجليلة للإسلام من خلال الحركة السنوسية، وارتبطت بصلات المصاهرة مع كثير من الإخوان؛ منهم: الأشهب، المحجوب، عبد المولى الغرياني.[١٧٦]

---

[١٧٤] انظر: السنوسي الكبير، ص (٦٧).

[١٧٥] انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص (١٥٣).

[١٧٦] المصدر السابق نفسه، ص (١٥٧).

٢٨- أبو سيف مقرب: هو من أشهر بيوتات السعادي، ينحدر من عائلة طامية البراعصة، وفي بيته رئاسة قبائل البراعصة، وهو من خيرة رجال الحركة السنوسية؛ سلمه والده طفلاً لابن السنوسي، وكانت تبدو عليه أمارات الذكاء والنجابة، وكان من بين العمال الذين قاموا ببناء زاوية البيضاء فزلقت رجله وتصادم رأسه بالحجر فشج، حتى قيل: إن دماغه ظهر للعيان، فجيء إلى ابن السنوسي فضمد رأسه بقطعة من عمامته قائلاً: «هذا الرأس سيملؤه الله علماً وحكمة»، وصدقت فراسة ابن السنوسي، ونبغ المصاب الذي كان أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، وأصبح من أبرز العلماء، كما كان في طليعة أدباء الإخوان، وكان من كبار المدرسين في معهد الجغبوب، توفي رحمه الله بزاوية الجوف (الكفرة)، وصلى على جثمانه محمد

المهدي الزعيم الثاني للحركة السنوسية، وكان ذلك عام (١٣١٥ هـ).[١٧٧]

٢٩- الحسين الحلافي: من المغرب، تولى من الأعمال مشيخة زاوية المخيلي.

٣٠- المختار بن عمور: من أشراف الجزائر، كان من تلاميذ ابن السنوسي، تولى مشيخة زاوية قفنطة.

٣١- محمد حيدر الهوني: اشتهر بإجادة تلاوة القران ترتيلاً، حتى روي عن ابن السنوسي: أنه كان يقول: «يا هوني ! قراءتك للقران تقول: اسمعوني».

٣٢- عمر جلغاف حدوث: من زعماء قبائل برقة، أخلص للحركة السنوسية، وكان ضمن الوفد الذي التمس من ابن السنوسي عندما كان في الحجاز أن يرجع إلى برقة، وكان ضمن مجلس الإخوان في البيضاء، وأوفده ابن السنوسي لتفتيش الزوايا والقيام ببعض المهام فيها.

---

[١٧٧] المصدر السابق نفسه، ص (١٥٨).

٣٣- الفضيل أبو خريص الكزة: أحد زعماء قبائل برقة، انضم إلى ابن السنوسي، وكان حظه من التعليم قليلاً، إلا أنه قام بمهمات كبيرة في السودان والحجاز والجزائر.[١٧٨]

بالإضافة إلى هؤلاء كان مجموعة طيبة من أعيان وزعماء برقة من الحضر والبادية؛ ومن بينهم: الأمين بك شتيوي متصرف بنغازي، ومحمد بك كاهية، وجميع أفراد أسرته، والشيخ علي القزيري، والحاج عبد الله بن شتوان، والشيخ محمد الأسمع، والحاج سالم عثمان، وكبار عائلة منينة وابن زبلح، وهؤلاء من وجهاء وعيون بنغازي، أما من درنة؛ فقد انضم إليه جميع أعيانها ورؤسائها؛ منهم وقتذاك عائلة جبريل، وعائلة ساسي وستيتة، ومن شيوخ البدو علي بك الأطيوش، والحاج محمد قادربوه، والشيخ حمد اللواطي، وأبو بكر بك حدوث، وعمر جلغاف، وعبد الله سويحل عمدة عائلة مريم، وأضرابهم من الشيوخ والعمد والأعيان وعامة الأهالي، هؤلاء جميعاً كانوا من أنصار الحركة السنوسية؛ انصهروا في بوتقتها، وتبنوا تعاليمها، وأصبحوا من دعاتها.

كان هؤلاء الإخوان من شتى بقاع المعمورة، فاخى بينهم ابن السنوسي وهم لم يتعارفوا قبله؛ إذ لا صلة تربطهم غير الإسلام، فأصبحوا كجسد واحد غير قابل للتجزئة، جاؤوا من تونس، والجزائر، ومراكش، والريف، وسوس الأقصى، وطرابلس الغرب وباديتها، وبرقة وباديتها، ومصر وصعيدها، والسودان، والحجاز، واليمن، ونجد، فأصبحوا لا هم لهم إلا خدمة الإسلام.[١٧٩]

رابعاً: الأخذ بأصول الوحدة والاتحاد والاجتماع عند ابن السنوسي:

لقد استطاع ابن السنوسي بتوفيق الله تعالى أن يجعل من الإخوان والقبائل في الصحراء الكبرى مجتمعاً متماسكاً، متوحِّداً في عقيدته وتصوراته ومنهجه، فانعكس ذلك في توادهم وتراحمهم فيما بينهم،

---

[١٧٨] انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص (١٥٣).

[١٧٩] انظر: السنوسي الكبير، ص (٦٩).

وأصبحوا كالجسد الواحد، الذي يخفق فيه قلب واحد، وتسري فيه روح واحدة ويتأثر كل عضو فيه بما يصيب بقية الأعضاء، أو هو كالجدار المتين الذي تجتمع لبناته لتشكل فيما بينها وحدة واحدة متماسكة متراصة.

قال تعالى: [ال عمران: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً} [آل عِمرَان: ٣٠١]

إن طريق الوحدة والتعاون والتاخي والاجتماع على البر والتقوى الذي سلكه ابن السنوسي هو طريق أهل السنة والجماعة؛ الذين التزموا في كافة أمورهم بما كان عليه رسول الله (ص) وأصحابه، في العقائد والأخلاق، والعبادة، والمعاملات، وكافة شؤون الحياة، إن المنهج الذي اجتمع عليه الإخوان السنوسيون هو كتاب الله وسنة رسوله (ص)، لأن ذلك طريق الاعتصام بحبل الله، وهذا الأصل من اكد الأصول في هذا الدين العظيم، ولذلك أمر الله تعالى ورسوله (ص) بكل ما يحفظ على المسلمين جماعتهم وألفتهم، ونهى عن كل ما يعكر صفو هذا الأمر العظيم.

إن ما حصل من فرقة بين المسلمين وتدابر وتقاطع، وتناحر بسبب عدم مراعاة هذا الأصل وضوابطه؛ مما ترتب عليه تفرق في الصفوف، وضعف في الاتحاد، وأصبحوا شيعاً وأحزاباً، كل حزب بما لديهم فرحون.

وهذا الأمر وإن كان مما قدره الله عز وجل كوناً، ووقع كما قدر، إلا أنه سبحانه لم يأمر به شرعاً، فوحدة المسلمين واجتماعهم مطلب شرعي، ومقصد عظيم من مقاصد الشريعة، بل من أهم عوامل النهوض، ونحن مأمورون بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر، قال تعالى: [الرعد: {إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرّعد: ١١]

لقد تضافرت جهود دعاة الحركة السنوسية وقادتها وعلمائها وطلابها لإصلاح ذات البين إصلاحاً حقيقياً لا تلفيقياً، لأن أنصاف الحلول تفسد أكثر مما تصلح، وكأنهم اعتقدوا أن: «الجهاد نوعان: جهاد يقصد به

صلاح المسلمين، وإصلاحهم في عقائدهم وأخلاقهم وادابهم، وجميع شؤونهم الدينية والدنيوية، وفي تربيتهم العلمية، وهذا النوع هو الجهاد وقوامه، وعليه يتأسس النوع الثاني، وهو جهاد يقصد به دفع المعتدين على الإسلام والمسلمين؛ من الكفار والمنافقين والملحدين وجميع أعداء الدين، ومقاومتهم؛ وهذا نوعان: جهاد بالحجة والبرهان واللسان، وجهاد بالسلاح المناسب في كل وقت وزمان» .[١٨٠]

«إن من أعظم الجهاد: السعي في تحقيق هذا الأصل في تأليف قلوب المسلمين واجتماعهم على دينهم ومصالحهم الدينية والدنيوية» .[١٨١]

إن الأخذ بالأسباب نحو تأليف قلوب المسلمين وتوحيد صفهم كان من أهم أهداف الحركة السنوسية؛ لأن قادة الحركة أيقنوا بأهمية هذه الخطوة في إعزاز المسلمين، وتحكيم شرع ربهم، وتقوية دولتهم.

إن ابن السنوسي عمل على وضع منهج سار عليه علماء الحركة من أجل توحيد المجتمع على كتاب الله وسنة رسوله، ولذلك اهتم بالاتي:

أ وحدة العقيدة:

أيقن ابن السنوسي أنه لا يمكن أن تقوم وحدة للمسلمين ما لم تجمعهم عقيدة واحدة، وكان يعلم بأن العقيدة تشكل أساساً مهماً في البناء الفردي والاجتماعي ،

وهي القاعدة التي تقوم عليها الأعمال والعلاقات؛ فإن البناء لا يستقيم، ولا يستطيع أن يواجه الأعاصير والفتن حتى ينهار. وإن العقيدة التي تصلح لجمع شتات المسلمين هي ما كان منبعها كتاب الله وسنة رسوله (ص)، ويمكن التدليل على كل أصل من أصولها، أو جزئية من جزئياتها، ثم إن السلف الصالح الذين استقاموا على عقيدة الإسلام الحق دوَّنوا هذه العقيدة تدويناً يميزها عن عقائد أهل الفرق والضلال.[١٨٢]

---

[١٨٠] انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص (١٥٩).

[١٨١] انظر: وجوب التعاون بين المسلمين، للسعدي، ص (٥).

[١٨٢] المصدر السابق نفسه.

إن سلامة الاعتقاد وصحته هي الطريق الوحيد لإقامة المجتمع المسلم المترابط المتالف، ولا سبيل إلى اجتماع الأمة الإسلامية قاطبة، ووحدة صفها، وعزها وسعادتها في الدنيا والاخرة، إلا بالعودة الصحيحة إلى الإسلام الصافي النقي، الخالص من شوائب الشرك والبدع والأهواء والتعصب واتباع العادات الفاسدة.

إن طريق النهوض بالأمة لا بد فيه من وحدة الصف الإسلامي، ووحدة الصف ليس لها من سبيل إلا الإسلام الصحيح، والإسلام الصحيح مصدره القران الكريم والسنة النبوية، والطريق لفهم القران الكريم والسنة المطهرة هي طريق رسول الله (ص) وأصحابه الكرام، والتابعون بإحسان، ومن سار على نهجهم وطريقتهم إلى يوم الدين.

قال تعالى: [النساء: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝ } [النِّسَاء: ٥١١]

وقال تعالى: [التوبة: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} [التّوبَة: ٠٠١]

فوعد الله من اتبع غير سبيلهم بعذاب جهنم، ووعد متبعهم بالجنة والرضوان.[١٨٣]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله (ص): «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته».[١٨٤]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم».[١٨٥]

---

[١٨٣] انظر: فقه التمكين في القران الكريم، للصلابي، ص (٢٥٥).

[١٨٤] انظر: فقه التمكين في القران الكريم، ص (٢٥٥).

[١٨٥] انظر: مسلم، كتاب الصحابة، باب فضل الصحابة، (١٩٦٣/٤) رقم (٢٥٣٣).

وعنه رضي الله عنه: «من كان متأسياً فليتأسَّ بأصحاب رسول الله (ص)؛ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في اثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم».[١٨٦]

لقد اهتمت الحركة السنوسية بجانب العقيدة، وكانت رسالة أبي زيد القيرواني العلمية ضمن مقررات مناهج الحركة، وتعتبر هذه الرسالة من أنفع التاليف في الفقه المالكي قاطبة، وذلك لمكانة مؤلفها العلمية من ناحية، ولسهولتها ويسرها وجمعها لأصول العقيدة والفقه والاداب من ناحية أخرى.

وهي كما وصفها مؤلفها ابن أبي زيد في مقدمتها: «جملة مختصرة من واجب أمور الديانة، مما تنطق به الألسنة، وتعتقده القلوب، وتعمله الجوارح، وما يتصل بالواجب من ذلك من السنن من مؤكدها ونوافلها ورغائبها، وشيء من الاداب منها، وجمل من أصول الفقه وفنونه على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى وطريقته، مع ما سهل سبيل ما أشكل من ذلك من تفسير الراسخين وبيان المتفقهين لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان كما تعلمهم حروف القران؛ ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه ما ترجى لهم بركته وتحمد لهم عاقبته».[١٨٧]

وهذا النص الكامل لمقدمة أبي زيد القيرواني في العقيدة: «باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات:

من ذلك: الإيمان بالقلب والنطق باللسان بأن الله إله واحد، لا إله غيره، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا صاحبة، ولا شريك له. ليس لولايته ابتداء، ولا لاخريته انقضاء، لا يبلغ كنه

---

[١٨٦] انظر: الموطأ، رقم (١٦١٩).

[١٨٧] انظر: حلية الأولياء (١/٣٧٩).

صفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون، يعتبر المفكرون باياته ولا يتفكرون في ماهية ذاته، ولا يحيطون

بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم.

العالم الخبير، المدبر القدير، السميع البصير، العلي الكبير، وإنه فوق عرشه المجيد بذاته، وهو بكل مكان بعلمه، خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين، على العرش استوى وعلى الملك احتوى، وله الأسماء الحسنى والصفات العلى، لم يزل بجميع أسمائه وصفاته، تعالى أن تكون صفاته مخلوقة وأسماؤه محدثة، كلم موسى بكلامه الذي هو صفة ذاته لا خلق من خلقه، وتجلى للجبل فصار دكّاً من جلاله، وأن القران كلام الله ليس بمخلوق فيبيد ولا صفة لمخلوق فينفد، والإيمان بالقدر خيره وشره.. حلوه ومره.. وكل ذلك قدّره الله ربنا، ومقادير الأمور بيده ومصدرها عن قضائه، علم كل شيء قبل كونه فجرى على قدره، لا يكون من عبادة قول ولا عمل إلا وقد قضى وسبق علمه به [الملك: {أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝} [المُلك: ١٤]

يضل من يشاء فيخذله بعدله، ويهدي من يشاء فيوفقه بفضله، فكل ميسر بتيسيره إلى ما سبق من علمه وقدره من شقي أو سعيد، تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد أو يكون لأحد عنه غنى، خالق لكل شيء، هو رب العباد ورب أعمالهم والمقدر لحركاتهم واجالهم، الباعث الرسل فيهم لإقامة الحجة عليهم، ثم ختم الرسالة والنذارة والنبوة بمحمد نبيه (ص)، فجعله اخر المرسلين بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وأنزل عليه كتابه الحكيم، وشرع بدينه القويم، وهدى به الصراط المستقيم، وأن الساعة اتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من يموت كما بدأهم يعودون، وأن الله سبحانه ضاعف لعباده المؤمنين الحسنات، وصفح لهم بالتوبة عن الكبائر، وجعل من لم يتُب من الكبائر صائراً

إلى مشيئته: [النساء: {إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النِّساء: ٨٤]

ومن عاقبه الله بناره أخرجه منها بإيمانه فأدخله به جنته [الزلزلة: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ۞ } [الزّلزَلة: ٧]، ويخرج منها بشفاعة النبي (ص) من شفع له من أهل الكبائر من أمته.. وأن الله سبحانه قد خلق الجنة فأعدها دار خلود لأوليائه وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم، وهي التي هبط منها ادم نبيه وخليفته إلى أرضه بما سبق

في سابق علمه، وخلق النار فأعدها دار خلود لمن كفر به وألحد في اياته وكتبه ورسله، وجعلهم محجوبين عن رؤيته، وإن الله تبارك وتعالى يجيء يوم القيامة والملك صفاً صفاً لعرض الأمم وحسابهم.

وتوضع الموازين لوزن أعمال العباد {فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعرَاف: ٨]، ويؤتون صحائفهم بأعمالهم... وأن الصراط حق يجوز بقدر أعمالهم؛ فناجون متفاوتون في سرعة النجاة عليه من نار جهنم، وقوم أوبقتهم فيها أعمالهم، والإيمان بحوض رسول الله (ص) ترده أمته، لا يظمأ من شرب منه، ويذاد عنه من بدَّل وغيَّر، وأن الإيمان قول باللسان وإخلاص بالقلب وعمل بالجوارح، يزيد بزيادة الأعمال وينقص بنقصها، فيكون بها النقص وبها الزيادة، ولا يكمل قول الإيمان إلا بعمل، ولا قول ولا عمل إلا بنية، ولا قول ولا عمل ونية إلا بموافقة السنة. وإنه لا يُكفَّرُ أحد بذنب من أهل القبلة، وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وأرواح أهل السعادة باقية ناعمة إلى يوم يبعثون، وأرواح أهل الشقاوة معذبة إلى يوم الدين. وأن المؤمنين يفتنون في قبورهم ويُسألون: [إبراهيم: {يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ} [إبراهيم: ٧٢]، وأن على العباد حفظة يكتبون أعمالهم ولا يسقط شيء من ذلك عن علم ربهم، وأن ملك الموت يقبض الأرواح بإذن ربه، وأن خير القرون الذين رأوا رسول الله (ص) وامنوا به، ثم الذين يلونهم.

وأفضل الصحابة الخلفاء الراشدون المهديون: أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم أجمعين.

وأن لا يذكر أحد من صحابة الرسول إلا بأحسن ذكر، والإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم المخارج ويظن بهم أحسن المذاهب، والطاعة لأئمة المسلمين من ولاة أمورهم وعلمائهم، واتباع السلف الصالح، واقتفاء اثارهم والاستغفار لهم، وترك المراء والجدال في الدين، وترك كل ما أحدثه المحدثون. وصلى الله على سيدنا محمد نبيه، وعلى اله وأزواجه وذريته، وسلم تسليماً كثيراً».[١٨٨]

هذه العقيدة السنية البهية كانت تدرس في مناهج الحركة السنوسية، ويتربى عليها القادة، والجنود، وكان علماء الحركة السنوسية يحاربون العقائد الفاسدة بين القبائل في الصحراء الكبرى، ويرشدون الناس إلى حرمة الغلو في تقديس المشايخ الأحياء والأموات، ولا تأذن لأتباعها أن يذكروا ميتاً عند قبره بغير الدعاء له والترحم عليه،[١٨٩] ويعلّمون الناس أوامر القران والسنة الشريفة وأصول التوحيد، ويحرمون التضرع للأولياء، ويربون الناس على أن يكون التعبد لله وحده.[١٩٠] كانت بعض القبائل في الصحراء الكبرى وإفريقية قد انحرفت عن عقيدتها الصحيحة، فجاء إليهم علماء الحركة السنوسية يبينون لهم عقيدتهم، ويتلون عليهم ايات الله التي تبين أن النافع والضار هو الله وحده، ويفسرون لهم ذلك؛ كقوله تعالى: [يونس: {وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ ۞} [يُونس: ٦٠١]

وقال تعالى: [يونس: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۞} [يُونس: ٧٠١]

---

[١٨٨] انظر: شرح مقدمة ابن أبي زيد القيرواني، للأمين الحاج، ص (٩).

[١٨٩] انظر: شرح مقدمة أبي زيد القيرواني، ص (١٦، ١٧، ١٨).

[١٩٠] انظر: الإسلام في القرن العشرين، ص (١٣٢).

وقال تعالى: [الأحقاف: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۞ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۞ } [الأحقاف: ٥-٦].

وقال تعالى: [النمل: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ} [النَّمل: ٦٢]

كما قامت الحركة السنوسية بمحاربة عقائد الصوفية المنحرفة؛ كالاتحاد، ووحدة الوجود، والحلول؛ إن عقيدة الاتحاد من عقائد الصوفية الفاسدة المتأثرة بالنصرانية المنحرفة، والديانة الهندية القديمة، ومعنى ذلك: أن المخلوق يتَّحد بالخالق، تعالى الله عن قولهم علواً عظيماً، قال تعالى: [الأنعام: {ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۞ لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۞ } [الأنعَام: ١٠٢-١٠٣].

أما وحدة الوجود، فإنهم يعتقدون أن كل شيء في الوجود هو الإله، سواء كان حيواناً أو جماداً، أو إنساناً أو غير ذلك، هي عقيدة فاسدة مضمحلة لا أساس لها

من عقل ولا شرع، ولكنها من وحي الشيطان، إن الحركة السنوسية حاربت هذا المعتقد الفاسد الباطل، وسارت على مذهب أهل السنة والجماعة الذي يقول بأن الله سبحانه بائن من خلقه لا يشبهه شيء من مخلوقاته، متَّصف بصفات الكمال، فله الأسماء الحسنى والصفات العلا: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشّورى: ١١]، فهو المتفرّد بالجلال، المتصف بصفات الكمال، المنزَّه عن النقائص والعيوب، فمن اعتقد أن الله سبحانه وتعالى متَّحد بمخلوقاته، وأن العبد عين الرب، والرب عين العبد؛ فقد كفر بما أنزل على محمد (ص)، وخالف الفِطَر والشرائع، وقد كفّر الله تعالى النصارى الذين قالوا: إن الله اتحد بعيسى عليه السلام، فقال سبحانه: [المائدة: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} [المَائدة: ١٧]؛ فكيف بمن يقول: إن

الله متحد مع جميع مخلوقاته؛ فهو أولى بأن يكون كافراً؛ لأنه يعتقد أن الله متَّحد بجميع ما في هذا الكون.[١٩١]

إن عقيدة وحدة الوجود عقيدة إلحادية بحتة ليست من الإسلام في شيء، وإن علماء الحركة السنوسية وقفوا ضدها بكل حزم وعزم، قال تعالى: [الإخلاص: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ۝اللَّهُ الصَّمَدُ۝لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ۝وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ۝} [الإخلاص: ١-٤] ٤].

وحاربت الحركة السنوسية عقيدة الحلول التي تقول بأن الله يحل في الأشخاص، تعالى الله عن قول الحلوليين علواً كبيراً.

«والحقيقة أن القول بالاتحاد بين الخالق والمخلوق يأباه العقل الذي سلم من الشبهات، ويدل دلالة واضحة على أنها باطلة؛ لأن أي إنسان تسمح له نفسه أن يدعي بأنه دخل به الإله، وصار مع الله وحدة واحدة، ولا يمكن أن يخرج مثل هذا الادعاء الباطل من إنسان له عقل سليم أو به ذرة من إيمان» .[١٩٢]

لقد حاربت الحركة السنوسية العقائد الفاسدة، ودعت إلى العقائد الصحيحة، لتجتمع القبائل والشعوب الإسلامية عليها، كما حرصت على تحكيم كتاب الله وسنة رسوله على نفسها، ودعت غيرها بالالتزام بذلك.

ب تحكيم الكتاب والسنة:

أيقن ابن السنوسي وإخوانه من العلماء أن المسلمين لا يكون لهم شأن، ولا عز، ولا نصر، ولا فلاح في الدنيا، ولا نجاة في الاخرة، إلا بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله (ص)، على مستوى الأفراد، والأسر، والجماعات، والقبائل، ومن ثم على مستوى الدولة.

واسترشد ابن السنوسي فيما ذهب إليه بقوله تعالى: [النساء: {فَإِنْ

---

[١٩١] انظر: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، حسن إبراهيم، ص (٤٧).

[١٩٢] انظر: مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية، إدريس محمود، ص (٢٨٥).

تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} [النِّسَاء: ٩٥]

وبقوله (ص) في حجة الوداع: «يا أيها الناس: إني تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً: كتاب الله وسنتي».[١٩٣]

إن ابن السنوسي حرص على تحكيم شرع الله تعالى على نفسه وأسرته، ومجتمعه، وكان يرى أن ذلك خطوة أصيلة نحو وحدة الأمة واقترابها من نصر الله تعالى، وأن للتحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله (ص) اثار دنيوية، كالاستخلاف، والتمكين، والأمن والاستقرار، والنصر والفتح، والعز والشرف، وبركة العيش ورغد الحياة، والهداية والتثبيت، وانتشار الفضائل، وانزواء الرذائل، وأما الاثار الأخروية؛ كالمغفرة، وتكفير السيئات، والثواب العظيم عند الله تعالى، والحياة الحقة الدائمة، وعلو المنزلة، ومعية التكريم، وإليك هذه الرسالة التي أرسلها ابن السنوسي إلى أهل وجنقة في تشاد لتدلنا على ما ذهبنا إليه.

قال رحمه الله بعد البسملة: «إنه من عَبْدِ رَبِّه سبحانه محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي، إلى المكرم الأجل، العمدة الأفضل، الفقيه النبيه ولدنا الشيخ فرج الجنقاوي، وكافة جماعة بلد وجنقة كبيراً وصغيراً، ذكراً وأنثى، سلم الله جميعهم وأنالهم من خير الدارين مرامهم، امين. السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وتحياته ومغفرته ومرضاته، وبعد: فالقصد المطلوب والأمر المرغوب هو السؤال عنكم وعن كلية أحوالكم، جعلها الله جارية على منهاج كتابه وسنة نبيه محمد (ص) وشرَّف وكرَّم وعظَّم، وثانياً فإنا ندعوكم بدعاية الإسلام من طاعة الله

ورسوله، قال تعالى في كتابه العزيز: [النساء: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} [النِّسَاء: ٩٥]، وقال تعالى: [النساء: {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ} [النِّسَاء: ٠٨]، وقال تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ} [النِّسَاء: ٩٦] [النساء: {اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ

---

[١٩٣] انظر: المؤامرة على الإسلام، للجندي، ص (٥٢).

النَّبِيّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النِّسَاء: ٦٩]، والطاعة هي امتثال أمر الله ورسوله من إقامة الصلوات الخمس وصيام شهر رمضان، وأداء زكاة الأموال، وحج بيت الله الحرام، واجتناب ما نهى الله عنه من الكذب والغيبة والنميمة وأكل أموال الناس بالباطل وشرب الخمر وقتل النفس بغير حق وشهادة الزور، وغير ذلك مما حرم الله ورسوله، فبذلك تنالون الخير الأبدي والربح السرمدي؛ الذي لا يعتريه خسران ولا يحوم حول حماه حرمان، وقد طلب منا أناس من ذلك الطرق أن نبعث معهم بعض إخواننا يذكرون عباد الله ويعلمونهم ما فرض الله ورسوله عليهم، ويهدونهم إلى سبيل الرشاد، وعزمنا على ذلك لكون هذه الوظيفة هي التي أقامنا الله عليها، ننبه الغافل، ونعلِّم الجاهل، ونرشد الضال.

ولكن نحن الان بالحرمين الشريفين، وعندما قدمنا لهذه النواحي اشتغلنا بدلالة العباد إلى الله، وما رأينا أحداً من ناحيتكم حتى نوجه معه من يعلِّم الناس دينهم الذي ارتضاه، والان فإن أتباعنا جماعة زاوية الذين هم أهل تزور (موقع) المعلومة عندكم، قدموا إلينا وتابوا على أيدينا وطلبوا منا بناء زاوية بموقع تزور المذكورة. وقصدنا في ذلك مجاورتكم وتعليمكم أنتم واباءكم كتاب الله وسنة نبيه محمد (ص)، وإصلاح ذات البين بينكم وبين هؤلاء العربان الذين يغيرون عليكم، ويأخذون أبناءكم وأموالكم، عاملين بقوله تعالى: [الحجرات: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا} [الحُجرَات: ٩]، [الأنفال: {وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [الأنفَال: ١]، وبقوله تعالى: [النساء: {لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ } [النِّسَاء: ١١٤]، فبذلك يحصل التعاون على البر والتقوى كما أمر الله بذلك في قوله: [المائدة: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المَائدة: ٢]، وبقوله (ص): «كونوا عباد الله إخواناً، وعلى الدين أعواناً».

وأما الفتنة والمنازعة فلا خير فيها؛ بل لقد نهى الله عنها في كتابه العزيز بقوله:

{وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ۝} [الأنفَال: ٦٤]، وإن شاء الله إذا امتثلتم أمرنا وتبعتم نصيحتنا فسيقدم عليكم بعض أبنائنا يعلمون أبناءكم كتاب الله، ويعلمون رجالكم سنة رسول الله (ص)، ولا تخافون بعد ذلك إن شاء الله من أحد، وترون فضل الله ورحمته ما ليس عليه من مزيد، وبلغوا سلامنا وكتابنا هذا إلى كل من حولكم ممن يريد طاعة الله ورسوله واتباع الكتاب والسنة، وربنا تبارك وتعالى يجعلكم هادين مهديين دالين على الخير وبه عاملين بمنه وكرمه امين، ودمتم بخير عافية، ونعم متواترة ضافية». [١٩٤]

وهذه الرسالة تعطينا منهجية ابن السنوسي في دعوته وأسلوب عرضه، وطريقة خطابه، وجزالة ألفاظه، وروعة بيانه.

ج صدق الانتماء إلى الإسلام:

أيقن ابن السنوسي أن من أسباب جمع صفوف الأمة وتحقيق الوحدة بينها: الدعوة إلى الالتزام بالإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة، والاعتزاز بالانتساب إلى هذا الدين، ونبذ كل ما يخالفه ويضاده.

لقد تربَّى أتباع السنوسية على أن الإسلام منهج للحياة، والعبودية لله معلم كبير في حياة المسلم، والمسلمون وفق هذا المنهج والفهم يشكلون أمة واحدة في مقابلة التجمعات البشرية، ولقد تربَّى أتباع السنوسية على الاعتزاز بالانتساب إلى الإسلام: [فصلت: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝} [فُصّلَت: ٣٣]

لقد كان الانتماء إلى الإسلام في التربية السنوسية فوق الانتماء للأوطان، والأقوام، والنعرات الجاهلية.

د طلب الحق والتحري في ذلك:

---

[١٩٤] انظر: مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي (ص) (٢/٨٩٠) رقم (١٢١٨).

إن هذا الأصل العظيم؛ ألا وهو طلب الحق والتحري للوصول إليه، يقوي وحدة صف العاملين لتحكيم شرع الله، وهي من أهم سمات الربانيين الذين صفت نفوسهم وتطهرت قلوبهم بكتاب الله وسنة رسوله (ص). إن الله تعالى في كتابه

الكريم، يبين أنه لا توجد منزلة ثالثة بين الحق والباطل، فقال سبحانه وتعالى: [يونس: {فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ} [يُونس: ٢٣]

قال القرطبي رحمه الله: «قال علماؤنا: حكمت هذه الاية بأنه ليس بين الحق والباطل منزلة ثالثة في هذه المسألة التي هي توحيد الله تعالى، وكذلك هو الأمر في نظائرها، وهي مسائل الأصول؛ فإن الحق فيها في طرف واحد». [١٩٥]

ولذلك نجد ابن السنوسي وهو المالكي المذهب والثقافة يخالف مذهب مالك في بعض المسائل؛ عندما تبين له أن الحق خلاف مذهب الإمام مالك، فكان يقبض في صلاته، ويقنت بعد الركوع، ويقصر الصلاة أثناء السفر... إلخ، وقد حذا أتباعه حذوه، وهذا يدلنا على تحري ابن السنوسي وأتباعه للدليل الشرعي والتمسك به، ونقد كثيراً من اراء التصوف المخالفة لكتاب الله وسنة رسوله (ص)، وكانت وسائل الوصول إلى الحق: تقوى الله، والتجرد، والإخلاص.

هـ تحقيق الأخوة بين أفراد المجتمع:

أيقن ابن السنوسي أن بتحقيق الأخوة بين القبائل، وأتباع الحركة، تتحقق وحدة الصف، وقوة التلاحم، ومتانة التماسك بين أفراد الحركة، كما كان على علم بأن الأخوة منحة من الله عز وجل، يعطيها الله للمخلصين من عباده والأصفياء والأتقياء من أوليائه وجنده وحزبه، قال تعالى: [الأنفال: {هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ } [الأنفَال: ٢٦-٣٦].

[١٩٥] انظر: السنوسي الكبير، ص (١٥٢).

إن الأخوة في الله بين أتباع الحركة السنوسية أورثتهم شعوراً عميقاً، وعاطفة صادقة، ومحبة وودّاً واحتراماً فيما بينهم، قال الله تعالى: [الحجرات: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحُجرَات: ٠١]

إن الأخوة في الله ملازمة للإيمان، ولا يذوق حلاوة الإيمان إلا من أُشْرِبَ هذه الأخوة؛ ولذلك حرص عليها السنوسيون وأتباعهم، قال رسول الله (ص): «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن

يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار».[١٩٦]

لقد حرص السنوسيون أن يطبقوا تلك الصورة الجميلة لأصحاب رسول الله (ص)، قال تعالى: [الفتح: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ} [الفَتْح: ٩٢]

إن الأخوة في الله من أهم الأسباب التي جعلت الحركة السنوسية تصمد في وجه أعتى المحن التي تعرضت لها.

[١٩٦] انظر: الجامع لأحكام القران (٣٣٦/٨).

الفصل الثاني
البعد التنظيمي، والمنهج التربوي، والبعد السياسي عند ابن السنوسي

المبحث الأول
البعد التنظيمي عند ابن السنوسي

إن البعد التنظيمي يظهر في شخصية محمد بن علي السنوسي في بناء الزوايا التي يتربَّى فيها أتباعه، والمنهج التربوي الذي سار عليه، فأما الزوايا فهي ركيزة نظام الحركة السنوسية، وهي التطبيق العلمي لأفكار ابن السنوسي التي دعا إليها.

إن نظام الزوايا كان معروفاً في العالم الإسلامي، والشمال الإفريقي خصوصاً؛ فكلمة الزاوية تطلق عند الطرق الصوفية على مكان يختلي فيه أتباع الطريقة والقائمون عليها بأنفسهم، ويتقربون إلى الله بالعبادة ليلاً ونهاراً، منقطعين عن الناس وعن الحياة، مكتفين بكفالة الناس لهم، على يد رجال القوافل الذين يضربون في الطرق الصحراوية، وينزلون بهذه الزوايا التي غالباً ما كانت مواقعها في أماكن خلوية بعيدة عن العمران، أو ما يوقف على الزاوية من أوقاف يحتسبها مشايخ القبائل المجاورة للزاوية؛ تقرُّباً إلى علمائها المشرفين على طريقتها الصوفية.

أما الزوايا السنوسية فهي تختلف عن غيرها من الزوايا الأخرى من حيث الشكل والمضمون؛ أي: من حيث مواقعها وبنائها، ومن حيث تنظيمها ورسالتها،[١٩٧] لقد استطاع ابن السنوسي بعقليته التنظيمية أن يطور مفهوم الزوايا بحيث أصبحت تمثل النواة الأولى لمجتمع تحكمه سلطة، وعليه واجبات اجتماعية واقتصادية وسياسية ودعوية وجهادية؛ وقد تحدث ابن السنوسي في إحدى رسائله عن الزاوية، فقال: «والزاوية في الحقيقة إنما هي بيت من بيوت الله، ومسجد من مساجده... والزاوية إذا حلت بمحل نزلت فيه الرحمة، وتعمر بها البلاد ويحصل بها النفع لأهل الحاضرة والباد، لأنها ما أسست إلا لقراءة القران ولنشر شريعة أفضل ولد عدنان».[١٩٨]

وقال في رسالة أخرى: «وأما نحن فقد ألفنا ما اعتدناه، ورضيت به نفوسنا، فنريد أن تكون تلك العمارة مستمرة ونفوس سكانها مستقرة ليحصل المقصود منه يعني الزاوية ويدوم، مِنْ تعلُّم العلم وتعليمه، وإقراء القران وتفهيمه، وإقامة شعائر الدين للوافدين عليها والمقيمين بها».[١٩٩]

وقال في رسالة ثالثة: «رتبنا لكل واحدة خليفة يقوم فيها بما ذكر من الجمعة، وتعليم القران، ودرس العلم، ودلالة الخلق على دينهم وعودتهم إلى ربهم... وبذلك تبتهج الأرض حولها بأنواع الأشجار، ويكثر بها السكان لكثرة الثمار، وتنتشر العمارة وتتسع الإدارة».[٢٠٠]

لقد استطاع ابن السنوسي أن يؤسس تنظيماً هرميّاً للحركة، فكان تشكيله كالاتي:

١- شيخ الطريقة أو رئيس النظام، وهو الرئيس الأعلى لها.

٢- مجلس الإخوان (الشورى)، ومهمته مساعدة شيخ الحركة في تعيين شيوخ الزوايا.

---

[١٩٧] انظر: البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان (١/١١).

[١٩٨] انظر: في تاريخ العرب الحديث وجهاد الأندلسيين، د. رأفت، ص (٢٥٥).

[١٩٩] انظر: السنوسي الكبير، ص (١٤٣).

[٢٠٠] انظر: الحركة السنوسية، ص (٢٣٧).

٣- شيوخ الزوايا.

٤- الإخوان، ومهمتهم كسب الأعضاء العاديين إلى الحركة،[٢٠١] كما أصبحت في أواخر حياة السنوسي زاوية الجغبوب تمثل عاصمة الحركة، وجعل في البناء التنظيمي في الحركة زوايا رئيسة أو زوايا عليا، يرأسها شيوخ الحركة السنوسية

الكبار، كزاوية أبي قبيس بمكة، وزاوية البيضاء، وزاوية درنة، وزاوية بنغازي، وكان لها الإشراف على ما حولها من الزوايا، كما كانت مجالس الدرس فيها أعلى مستوى وأكثر تنوعاً واستجابة للحاجات الدينية والعقلية.[٢٠٢]

استطاع ابن السنوسي أن يربط بين جميع زوايا الحركة برباط متين من المخابرات والمخاطبات ولجان التفتيش، وفق نظام دقيق تلتقي أسبابه عند الزاوية الكبرى المركزية، وكانت تلك الزوايا قد انتشرت في تونس والجزائر وبرقة ومصر والحجاز واليمن، والسودان الغربي (تشاد)، وكانت تقارير هذه البلاد ترد أولاً إلى بنغازي، ثم ترسل إلى الجغبوب بوساطة الهجن[٢٠٣] وبسرعة عظيمة.[٢٠٤]

وكانت العقلية التنظيمية عند ابن السنوسي تهتم بالتخطيط السليم، والإدارة الناجحة، وكان تخطيطه يعتمد على تحفيزه لأتباعه والاستعداد لما سيواجههم في المستقبل، وكان فهمه لقوله تعالى: [القصص: ٧٧]. وقوله تعالى: [الأنفال: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ً iوَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ} [الأنفَال: ٦٠]، [القَصَص: ٧٧]

وجعلت من الزوايا خلايا حية تمتد منها الحياة الصالحة إلى سائر

---

[٢٠١] المصدر السابق نفسه.

[٢٠٢] انظر: تاريخ ليبية المعاصر، محمود عامر، ص (١٣٣).

[٢٠٣] انظر: تاريخ المغرب العربي الحديث (ليبية)، محمود عامر، ص (١٣٣).

[٢٠٤] الهجن: الإبل.

جسم الأمة الإسلامية، فأصبحت مراكز تربية وتهذيب وتعليم، وإيقاظ للعاطفة الدينية السليمة، وتوجيه الحياة العامة توجيهاً سديداً؛ فأصبحت مراكز إصلاح إنساني متكامل، من الناحية الدينية والعقلية والاجتماعية والاقتصادية.[٢٠٥]

إن البناء التنظيمي للزوايا في الحركة السنوسية يدلنا على أن ابن السنوسي استفاد من سنة الأخذ بالأسباب استفادة كبيرة، وكان مقتنعاً بأن نهوض الأمة يستلزم من العاملين من أجل هذا الهدف أن يستوعبوا سنة الأسباب، وأن يحسنوا التعامل معها، بحيث يستطيعون أن ينزلوها على أرض الواقع.

إن مفهوم التوكل عند ابن السنوسي، يعني: الأخذ بالأسباب المادية المتاحة مع

الاعتماد على الله سبحانه وتعالى، ولذلك استطاع أن يبني البناء التنظيمي البديع المتين، وفق أسس ونظم رائعة؛ وإليك تفصيلها:

أولاً: الأسلوب الذي تُبنى به الزاوية:

تبنى الزاوية بالاتفاق بين أحد القبائل التي ترغب في بنائها مع ابن السنوسي، ويكون البناء وفق الأسلوب الاتي:

١- تبنى الزاوية في قطعة من الأرض المختارة بالاتفاق مع القبيلة التي تملك الناحية، ومع ممثل ابن السنوسي أو ابن السنوسي نفسه.

٢- يعين ابن السنوسي لهذه الزاوية رئيساً يلقب بـ (الشيخ) إذا كانت الزاوية قد بنيت، وإن لم تكن بُنيت فيختط الشيخ زاويته في الموضع المتفق عليه، وتكون أرضها وقفاً، وعادة تكون على ربوة عالية تشرف على ما حولها، ويتوخى فيها المناخ الصحي.[٢٠٦]

---

[٢٠٥] انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٥٠).

[٢٠٦] انظر: دراسات وصور، ص (٢٨٦).

٣- تكون تكاليف بناء مسكن الشيخ والمسجد والمدرسة من الأهالي.

٤- للزاوية حرم كبير يحيط بها من الجهات الأربع؛ يكون امناً لمن دخله واستجار به، ولا يجوز أن يطلق داخله الرصاص، أو يشهر السلاح، وكذلك المشاجرة وإعلاء الصوت بالغناء أو الخصام، كما يمنع فيه رعاية الحيوانات.

٥- من المألوف أن يرسل ابن السنوسي عدداً من (الإخوان)؛ بينهم من يشتغل بالبناء والعمارة والتجارة وكل المهارات التي تحتاج إليها القبيلة في تشييد الزاوية،[٢٠٧] ومن الطبيعي أن يستغرق البناء وقتاً يطول أكثر من العام، ومن ثم يهتم الشيخ ورجال القبيلة ببناء المسجد أولاً، ثم دار لإقامة الشيخ وأسرته، ويتبع ذلك استكمال بقية البناء لتشمل الزاوية في النهاية بيوتاً لوكيل الزاوية، ومعلم الأطفال، ومساكن للضيوف والخدم، ومخزناً لحفظ المؤن، وإسطبلاً، وبستاناً، ومتجراً على الأقل، وحجرة خاصة بالفقراء الذين لا عائل ولا مأوى لهم، وفرناً لسد حاجة السكان بالخبز،[٢٠٨] وتقوم حولها مبانٍ أخرى يقوم بإنشائها أغنياء الأهالي ليأووا إليها

في موسم الصيف، ويكون لها متسع من الأراضي الزراعية والابار الجوفية والصهاريج لحفظ الماء.[٢٠٩]

ثانياً: مواقع الزوايا:

تميزت مواقع الزوايا بصفات سياسية، وتجارية، وعسكرية؛ فمن الناحية السياسية: نجد الزوايا تنتشر في الدواخل أكثر من انتشارها في السواحل، وذلك راجع إلى حرص ابن السنوسي على الابتعاد عن نفوذ السلطة الحكومية، ولذلك فضل ابن السنوسي أن يتوغَّل بزواياه في

---

[٢٠٧] انظر: السنوسي الكبير، ص (٣١).

[٢٠٨] المصدر السابق نفسه، ص (٢٤).

[٢٠٩] انظر: المجتمع الليبي، ص (٣١٤).

الصحراء، وحرص على أن يوضح غرضه الدعوي من بناء الزوايا لسلطات الحكم العثماني في ليبية تفادياً للصدام بها، فكتب إلى مصطفى باشا حاكم فزان عند بناء زاوية هناك: «إن الزاوية في الحقيقة إنما هي بيت من بيوت الله ومسجد من مساجده، والزاوية إذا حلت بمحل نزلت فيه الرحمة، وتعمر بها البلاد، ويحصل بها النفع لأهل الحاضرة والبادية؛ لأنها ما أسست إلا لقراءة القران، ولنشر شريعة أفضل ولد عدنان».[٢١٠]

وأوضح نفس الغرض الديني للزاوية للمشير محمد أمين باشا والي طرابلس الغرب العثماني، فقال: «وأما نحن فقد ألفنا ما اعتدناه ورضيت به نفوسنا، فنريد بذلك أن تكون تلك العمارة مستمرة ونفوس سكانها مستقرة، ليحصل المقصود منها، ويدوم من تعلم العلم وتعليمه، وإقراء القران وتفهيمه، وإقامة شعائر الدين للوافدين عليها والمقيمين بها».[٢١١]

وإلى جانب الأهمية السياسية لمواقع الزوايا، فقد كانت لهذه المواقع أهمية تجارية واقتصادية بصفة عامة، فقد أقيمت معظم الزوايا في طريق تجارة القوافل، وكان هناك ثلاثة طرق رئيسية في الأراضي الليبية: الطريق الأول للقوافل يتجه جنوباً من الساحل الليبي عبر واحة فزان إلى بحيرة تشاد، والطريق الثاني ينعطف جنوباً غرباً عبر غدامس وغات إلى تمبكتو، والطريق الثالث يسير جنوباً شرقاً عبر واحة الجفرة ثم سواكن وزيلا إلى واداي ودارفور الغني بخصبه وثروته، والمتتبع لمواقع

هذه الزوايا في الأراضي الليبية مثلاً يلاحظ ارتباطها بطرق قوافل التجارة؛ مما جعل ابن السنوسي يستخدم زواياه والقبائل التي توجد الزوايا في أراضيها لاستغلال التجارة وتنشيطها، مما كان له أثر كبير في تحريك عجلة البلاد الاقتصادية، بسبب دور الزوايا في تشجيع تجارة القوافل التي كانت تعتبر حتى بداية القرن العشرين مورداً هاماً في

---

[٢١٠] المصدر السابق نفسه، ص (٢٥).

[٢١١] انظر: السنوسي الكبير، ص (٢٤).

حياة البلاد الاقتصادية،[٢١٢] زد على ذلك الاهتمام بالزراعة الذي حث عليه ابن السنوسي أهل القبيلة أو القبائل الواقع في أراضيها الزاوية أو الزوايا.[٢١٣]

ولا تقل الأهمية العسكرية لمواقع الزوايا عن الأهميتين السياسية والاقتصادية؛ فقد وجدنا معظم الزوايا تقام على مناطق مرتفعة حصينة حتى يمكن للإخوان السنوسية الدفاع عنها ضد المغيرين من الداخل أو الأعداء من الخارج، ومن ثم بُني الكثير من الزوايا على أنقاض الأطلال الإغريقية والرومانية فيما مضى والعثمانيين فيما بعد. من الضروري بناء محطات وقرى لتثبيت سيادتهم بصد الهجمات التي تقوم بها القبائل المتوغلة في الصحراء، هذا إلى جانب أن ابن السنوسي اتبع في إنشاء الزوايا نظاماً خاصّاً يدل على الأهمية العسكرية للمواقع التي اختارها للزوايا، فبدأ من مواقع على شاطأى البحر المتوسط، وبنى بهذه المواقع الحصينة زوايا؛ تبعد كل زاوية عن التي تجاورها مسافة ست ساعات، ثم أنشأ خلفها زوايا مقابلة لها تبعد كل منها عن الأخرى المسافة نفسها، حتى إذا هوجمت الزوايا الأمامية التي بالشاطأى استطاع الإخوان وأهل الزاوية أن ينتقلوا بسهولة إلى الزوايا الخلفية،[٢١٤] وبمعنى اخر استطاع ابن السنوسي أن يقيم من الزوايا خطوط دفاع متتالية يساند الخط الثاني الخط الأول، ويساند الخط الثالث الخط الثاني، وهكذا، وكل هذا تم دون أن يثير ابن السنوسي ثائرة أو شكوك الحكومة العثمانية.[٢١٥]

يقول ريتشارد: «إن من درس توزيع الزوايا السنوسية في برقة؛ يلاحظ أنها أقيمت وفق خطة سياسية اقتصادية، فقد بُنِيَ عدد كبير منها على منشات يونانية

---

[٢١٢] المصدر السابق نفسه، ص (٢٥).

[٢١٣] انظر: دراسات في التاريخ الليبي، مصطفى بعيو، ص (٦٠).

[٢١٤] انظر: في تاريخ العرب الحديث، ص (٢٥٨).

[٢١٥] انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٢٢).

ورومانية، وأسست على طرق القوافل الهامة، وفي مواقع دفاعية قوية». [٢١٦]

وقال شكيب أرسلان: «وأغلب هذه الزوايا مختار لها أجمل البقع وأخصب الأرضين، وفيها الابار التي لا تنزح من كثرة مائها، وفي الجبل الأخضر هي بجانب عيون جارية وأنهار صافية، وقلّ إن مررت بزاوية ليس لها بستان أو بساتين، فيها من كل أنواع الفواكه». [٢١٧]

ثالثاً: وظائف الزاوية:

كانت الأعمال التي تقوم بها الزوايا كالاتي:

١- التنفيذ العلمي لأحكام ومبادأى الحكم الشرعي بين المواطنين، والتربية الدينية والخلقية للأتباع والإخوان، وإعداد الدعاة.

٢- الدعوة إلى الالتزام بالفضائل وتجنب الرذائل والقدوة الحسنة التي وجدها الناس في شيوخ الزوايا.

٣- الاهتمام بدعوة الشعوب الوثنية، وهذه وظيفة الزوايا المتغلغلة في الصحراء الكبرى، والتي وصلت في قلب إفريقية الغربية والسودان، ولقد اهتدت هذه القبائل إلى الإسلام طائعة مختارة.

٤- تنقية الإسلام مما علق به على يد الغلاة من المتصوِّفة من بدع وتعاليم تبعده عن سماحة عقيدته، وأصوله المحكمة.

٥- قامت بدور تعليمي، فقد كانت أشبه بالمراكز الإسلامية المنتشرة في العالم، وكانت الزاوية تمثل مدرسة قرانية لتحفيظ الأطفال القران الكريم ومبادأى الدين الإسلامي واللغة العربية، ومن يتميز من الأطفال يلتحق بعاصمة الزوايا سواء كانت البيضاء أو الجغبوب التي صارت

---

[٢١٦] انظر: في تاريخ العرب الحديث، ص (٢٥٨، ٢٥٩).

[٢١٧] انظر: عشر سنوات في بلاط الأندلس، ص (٧٨).

مناخ العلوم ومنبع القران الكريم، والتي حوت مكتبتها ثمانية الاف مجلد من تفاسير وأحاديث وأصول وتوحيد وفقه وغير ذلك من العلوم المعقولة والعلوم الطبيعية.[٢١٨]

وكانت المناهج التربوية في الزوايا تشتمل على جميع العلوم الإسلامية من تفسير، وحديث، وفقه، وأصول الفقه، والفرائض، والتصوف، والتوحيد والنحو والصرف والبلاغة والأدب وغيرها.

٦- كانت الزوايا تدرب تلاميذها على إتقان الحِرَفِ والصناعات، مثل صناعة البارود والأسلحة.

٧- قامت الزوايا بدور اجتماعي مهم، ألا وهو ما ضمنته للقبائل من أمن وطمأنينة ومصالحة بين القبائل، وتشجيعها على الاستقرار، إذ بحكم استقرار هذه الزوايا اضطرت كل قبيلة أن تحافظ على صلتها الدائمة بزاويتها الخاصة بها، وقد اقتضى منها هذا الموقف عدم البعد عنها حتى يسهل لها الاتصال بها كلما دعت الضرورة إلى ذلك، وبمرور الزمن تعودت القبيلة نوعاً من حياة الاستقرار والإقامة بعد أن كانت لا تعرف لذلك سبيلاً.

٨- شجعت الزوايا الحركة التجارية والزراعية، وعمرت الطرق بالقوافل المحملة بالمواد والسلع، وكانت تقوم بتقديم مساعدات وتسهيلات لراحة المسافرين التجار، مما شجع على التبادل التجاري بين منتجات الزاوية وبين ما تحمله القوافل من سلع لا تتوفر في أرض الزاوية.

٩- قامت الزوايا بدورها الجهادي في مواجهة الغزو الفرنسي المتقدم وسط إفريقية، وفي الكفاح ضد الاحتلال الإيطالي في ليبية، ولولا الله ثم استعداد الزوايا الجهادي لما استطاع الليبيون أن يصمدوا ضد إيطالية أكثر من عشرين سنة.[٢١٩]

---

[٢١٨] انظر: حاضر العالم الإسلامي (١/٢٩٨).

[٢١٩] انظر: في تاريخ العرب الحديث، ص (٢٦٢).

رابعاً: السلطة في الزاوية:

تتألف السلطة في الزاوية من شيخ الزاوية وهو المسؤول الأول، ومن مجلس يضم وكيل الزاوية وشيوخ وأعيان القبيلة المرتبطة بها ووجهاء المهاجرين، ومهمة هذا المجلس هي النظر في مشاكل الأهالي وفضّ المنازعات، وشيخ الزاوية يطلق عليه اسم المقدم وهو كما يقول أرسلان: «القيِّم على الزاوية الذي يتولى أمور القبيلة ويفصل الخصومات ويبلغ الأوامر الصادرة من رئيس النظام، ويليه وكيل

الدخل والخرج، وإليه النظر في زراعة الأراضي وجميع الأمور الاقتصادية، وبالإضافة إلى هذين هناك الشيخ الذي يقيم الصلاة في مسجد الزاوية، ويعلم أطفال القبيلة، ويعقد فيها عقود النكاح، ويصلي على الجنائز».[٢٢٠]

ولا يخطب هذا الشيخ الجمعة لأنها من مهام شيخ الزاوية (مقدمها)، ومن مهام شيخ الزاوية التي ذكرها ريتشارد: «هو الذي يمثل رئيس النظام، ويقود رجال القبيلة في الجهاد، ويصل بين القبيلة ورجال الإدارة العثمانيين، ويقوم بضيافة المسافرين، ويشرف على حصاد الزرع، ويؤم صلاة الجمعة، ويساعد في الوعظ والتعليم».[٢٢١]

خامساً: طريقة فض المنازعات في الزاوية:

يتخذ رئيس الزاوية مجلساً من الشيوخ والأعيان، فيدرسون القضية من كل وجوهها، فما كان يفض منها بطريقة شرعية يصدر رئيس الزاوية التي يتولى فيها منصب القضاء الحكم في القضية، وما كان يفض بطريقة التقاليد المتبعة والعادات فيحسم أيضاً بذلك، ومنها ما يفض بطريقة الصلح فيتفق المجلس على ما يجب إجراؤه ويصبح الأمر نافذ

---

[٢٢٠] المصدر السابق نفسه، ص (٢٦٣، ٢٦٤).

[٢٢١] انظر: حاضر العالم الإسلامي (١/٢٩٨).

المفعول، وكل مشكلة عويصة تحدث بين القبائل ويخشى بسببها وقوع الفتن والفساد يتعاون رئيس الزاوية بشيوخ القبائل وأعيانها ورؤساء الزوايا أو الزاوية المتاخمة له، ويُضرب لذلك موعدٌ يحدد زمانه ومكانه، وهناك يحسم دون عناء، وما صعب من ذلك وتشعبت المداولة فيه، والأخذ والرد بين رؤساء الزاوية والشيوخ؛ يرفع إلى الجغبوب؛ حيث يصدر القرار النهائي.[٢٢٢]

وقد عثر المؤرخ أحمد الدجاني على وثيقة بتاريخ (٩ رجب ١٢٩٧ هـ) تتحدث عن خصام وقع بين أهالي هون وسوكنة، استطاعت زاوية هون السنوسية أن تزيل الإشكال، والوثيقة مقدمة من ثمانية عشر رجلاً من أعيان هون إلى متصرِّف فزان يخبرونه بانتهاء الخلاف.[٢٢٣]

سادساً: أراضي الزاوية:

كانت أراضي الزاوية موقوفة عليها؛ فلا تباع ولا تشترى، وتبقى مرتبطة بالزاوية.

ويتم وقفها عادة بعد امتلاكها الذي يكون عن طرق مختلفة، منها الهبة والتبرع ومنها الشراء ومنها إحياء الأراضي البور، وإصلاح الابار الخربة، ومنها نزعُ المواقع المتنازع عليها بين الأفراد والجماعات برضا المتخاصمين وتحويلها للزاوية،[٢٢٤] وقد ذكر المؤرخ الدجاني إحدى الرسائل التاريخية؛ تبين كيف تتحول الأرض المحيطة بالزاوية إلى وقف، والوثيقة هي عبارة عن رسالة بعث بها أحد الإخوان إلى أحد علماء طرابلس؛ يحدثه فيها عن بعض مسائل تتعلق بالحركة، ويرد فيها: «وأيضاً نخبركم أنه في محل ببرقة يقال له: أجدابية، قصرين معلومات، والعرب الذين بجوار ذلك هم المغاربة، وزاوية راغبين في

---

[٢٢٢] انظر: عشر سنوات في بلاط الأندلس، ص (٨٠).

[٢٢٣] انظر: المجتمع الليبي، ص (٣١٥).

[٢٢٤] انظر: الحركة السنوسية، ص(٢٣٩).

الأستاذ أن ينشأى لهم زاوية هناك، وكتبوا حججاً في إعطاء تلك الأرض ومهدوا إلى كل المشايخ وأرسلوا منهم واحداً مخصوصاً إلى حضرات جنابه رضي الله عنه (يعني: ابن السنوسي،[٢٢٥] والقصد لا يتعدى على الأرض»، وتاريخ الرسالة (١٥ محرم ١٢٧٦ هـ) أي: قبل وفاة ابن السنوسي بشهر، فالأرض في هذا المثل أعطيت للزاوية هبة وتبرعاً من مشايخ القبيلتين، ثم صدر فيها مرسوم بتحويلها إلى وقف،[٢٢٦] وكانت مساحة أراضي الزاوية كبيرة نسبيّاً، وتصل أحياناً إلى (٢٥٠٠) هكتار؛ بعضها مزروع والبعض الاخر يترك للرعي، وقد ذكر ريتشارد أن مجموع أراضي الزاوية في برقة يبلغ نصف مليون هكتار.[٢٢٧]

ويقوم بزراعة الأرض سكان الزاوية تحت إشراف شيخها، ويساعدهم في الزرع والحصاد رجال القبيلة، وقد ذكر شكيب أرسلان أن من عادة سكان الزوايا أن يتبرع

كل فرد من أفراد القبيلة بحراثة يوم وحصاد يوم ودراسة يوم في أرض الزاوية، ولذلك يسهل العمران دون نفقة كبيرة.[٢٢٨]

وكانت الزوايا مختلفة من حيث الكبر وعدد السكان، وذلك بحسب أهميتها، وكان يبلغ عدد السكان في أصغر الزوايا حوالي الخمسين بما في ذلك الأطفال والنساء، ويصل العدد في زوايا إلى المئة، أما الزوايا الكبيرة، كالجغبوب فيتجاوز الألف، ولم تكن «الزاوية» مقصورة في تنظيماتها على هذا العدد من سكانها، وإنما على القبيلة التي تقيم في منطقتها، فسلطاتها تسيِّر شؤون أفراد القبيلة الذي يبلغ عددهم أضعاف عدد سكان الزاوية.[٢٢٩]

---

[٢٢٥] المصدر السابق نفسه، ص (٢٤٠).

[٢٢٦] انظر: دار المحفوظات بطرابلس نقلًا عن الحركة السنوسية، ص (٢٤١).

[٢٢٧] المصدر السابق نفسه.

[٢٢٨] انظر: عشر سنوات في بلاط طرابلس، ص (٧٧).

[٢٢٩] انظر: حاضر العالم الإسلامي (١/٢٩٨).

سابعاً: موارد الزاوية:

تتكون موارد الزاوية المالية من الزراعة وتربية المواشي والهبات الخيرية والزكاة الشرعية.[٢٣٠] وقد كانت الهبات الخيرية تقدّم من أهالي القبيلة، كما كانت الزاوية تجبي الزكاة من القبيلة رسميّاً، بعد أن أعفت السلطات العثمانية الزوايا من الضرائب، وأعطت لها حق جباية الزكاة، وكانت «الزاوية» تنفق بعض هذه الموارد على احتياجاتها وفق نظام معروف فيها، أما ما يتبقى فيبعث إلى المركز الرئيسي حيث يتصرَّف فيه رئيس النظام.[٢٣١]

ثامناً: التعليمات الخاصة بنظام الزوايا:

كانت هناك تعليمات وأعراف وعادات تلتزم الزوايا بتطبيقها، ومن ذلك ما ذكره الأشهب من أن شيخ الزاوية لا يتزوج إلا بعد استشارة رئيس النظام وأخذ موافقته، وتكون الزاوية ملزمة بنفقات هذا الزواج والإنفاق على الزوجة وأولادها، أما في حالة ما إذا تزوج الشيخ بأخرى فنفقات ذلك على حسابه الخاص، كذلك حدد بدقة ما يأخذه شيخ الزاوية سنويّاً:

١- يتألف كساء شيخ الزاوية سنويّاً من عشر بدل، وتتكون البدلة من (قميص

وسروال وغطاء الرأس وحذاء)، شريطة أن لا يكون منها حرير أو جوخ، وكذلك حرامين صيفي، ومثلهما شتوي، وبرنس، ولشيخ الزاوية الحق في شراء سلاحه وفرسه الخاصين به من أجود الأنواع، وله أيضاً مهر ونفقات زوجة واحدة، وإذا ما أراد أن يتزوج مثنى أو ثلاث أو رباع فيكون ذلك على نفقته الخاصة.

---

[٢٣٠] انظر: الحركة السنوسية، ص (٢٤٢).

[٢٣١] انظر: السنوسي الكبير، ص (٣٣).

٢- لشيخ الزاوية الحق في تعيين معلم الصبيان والمنادي للصلاة (المؤذن) وعدد من الخدم والعمال حسب مقتضيات الضرورة، وتكون نفقاتهم وأجورهم من موارد الزاوية.

٣- من واجبات شيخ الزاوية إحضار الطعام الكافي لعشرة أشخاص يومياً في موعدي الغداء والعشاء، وذلك باسم الضيوف المحتمل مجيئهم للزاوية، فإن نقص هذا العدد فعلى شيخ الزاوية أن يكمل العدد من الفقراء ومجاوري الزاوية، وإذا تجاوز الضيوف هذا العدد فعليه إحضار ما يكفي في وقته، ولا يتجاوز الطعام نوعاً واحداً إلا في الحالات الخاصة.

٤- إذا تجاوز عدد الضيوف خمسة أشخاص ورأى الشيخ أن ينحر لهم فله ذلك.

٥- لشيخ الزاوية الحق في أن يختص بالعشر من محصولات الزاوية، وذلك للإنفاق منها في حالاته الخاصة، وفيما يترتب عليه لأقاربه الذين لا حق لهم من موارد الزاوية.

٦- على الشيخ أن يحتفظ بما يكفي لنفقاتها سنويّاً من مجموع الواردات وإرسال الباقي منها إلى المركز الرئيسي.

٧- لا حق لشيخ الزاوية أن يضيف أقاربه على حساب الزاوية، وتفادياً لضيق ذات يده فقد منح عشر الواردات، وسمح له بامتلاك المواشي وتعاطي الزراعة لحسابه الخاص كي يواجه بذلك نفقاته الخاصة التي لا حق له في أخذها من أموال الزاوية، وله الحق في أن ينحر لنفسه وزوجته الأولى وأولاده منها شاتين أسبوعيّاً.

٨- للعمال وخدم الزاوية الحق في أكل اللحم كل يوم جمعة من الأسبوع.

٩- لكل زاوية حدود تفصل بينها وبين الزاوية المتاخمة لها، ولا يجوز لشيخ الزاوية أن يتعدى هذه الحدود.

١٠- على شيوخ الزوايا أن يجتمعوا سنويًّاً (كلهم أو بعضهم) إذا ما رأوا وجوب

ذلك، وعليهم أن يتشاوروا في تحديد موعد الاجتماع ومكانه إن لم يكن أحد شيوخ الزوايا هو الداعي لعقد الاجتماع.

١١- إذا التجأ شخص أو أشخاص إلى إحدى الزوايا لسبب ما فعلى الزاوية والحالة هذه حمايته، والسعي لإزالة السبب الذي دفعه للالتجاء بموجب نصوص الشريعة، أو ما يتفق عليه من العرف والتقاليد المتبعة.

١٢- تتكون موارد الزاوية من الزراعة وتنمية المواشي والهبات الخيرية والزكاة الشرعية.[٢٣٢]

تاسعاً: أسماء بعض الزوايا التي أنشأها ابن السنوسي:

١- زاوية أبي قبيس بمكة المكرمة: وهي أولى الزوايا السنوسية على الإطلاق، تم تأسيسها عام (١٢٤٢ هـ)، وكان أول شيخ لها العلامة عبد الله التواتي، ومن بين من تولى مشيختها السادة: مصطفى الغماري، حامد غانم المكاوي، علي حامد، الشارف حامد، الصادق السنوسي حامد.

٢- زاوية المدينة المنورة، تم إنشاؤها عام (١٢٦٦ هـ)، وكان أول شيخ لها هو العلامة محمد الشفيع، ومن بين من تولى مشيختها: العلامة مصطفى الغماري، ومحمد عبد الله الزاوي، عبد السلام فركاش.

٣- زاوية جدة (الحجاز).

٤- زاوية الطائف (الحجاز).

٥- زاوية منى (الحجاز).

٦- زاوية بدر (الحجاز).

٧- زاوية البيضاء (برقة): أنشئت عام (١٢٥٧ هـ) وهي أول مركز رئيسي في ليبية، وكان أول شيخ لها هو العلامة محمد بن حمد الفيلالي، ومن بين من تولى مشيختها الأعلام: عمران بن بركة الفيتوري، حسين الغرياني، محمد بن إبراهيم الغماري، العلمي الغماري، محمد العلمي الغماري.

---

[٢٣٢] انظر: الحركة السنوسية، ص (٢٤٢)، ومعنى رئيس النظام: شيخ الطريقة.

٨- زاوية مارة (برقة)، وكان أول شيخ لها هو العلامة عمر الأشهب، وكان من بين من تولى مشيختها: أحمد علي أبو سيف، أحمد بن إدريس الأشهب، عبد الله أبو يوسف.

٩- زاوية درنة (برقة): وكان أول شيخ لها هو العلامة عمر الأشهب، ومن بين من تولى مشيختها: مفتاح خوجة، السنوسي الغرياني، عبد الرحمن العجال.

١٠- زاوية الجوف (واحة الكفرة): كان ابن السنوسي قد عهد ببنائها إلى المشايخ: الحاج مصطفى أبو شايدة، الحاج محمد أبو حليقة، عقيلة الحليق؛ وذلك عقيب إجلاء قبائل التبو البربرية بضغط من قبائل زوية العربية، وكانت الكفرة يومذاك مأوى للدعارة واللصوص، ومعقلاً حصيناً لقطاع الطريق، وكان يتناوب غزوها ثلاث قبائل كل منها يدعي ملكيتها؛ وهي: قبائل الجهمة من مصر، وقبائل التبو من شمال السودان، وقبائل زوية من برقة؛ وبذلك فقد كونت خطراً على السابلة وقوافل التجارة، إلى أن أنشئت بها زاوية السنوسية؛ فأصبحت دار أمن وسلام ومشرق الهداية والعرفان، وفي وصفها قال العلامة محمد عبد الله السني من قصيدة عصماء امتدح بها محمد المهدي السنوسي:

طابت وطاب بها المأوى لذي شجن دار السلامة للإسلام مهتجر
تأوي الوفود لها من كل ناحية مأوى الحجيج إذا ما جاء يعتمر

– وكان أول شيخ لها هو عمر أبو حواء الفضيل، ومن بين من تولى مشيختها: عبد الهادي الفضيل، ثم محمد عمر الفضيل.

١١- زاوية قفنطة (برقة): وكان أول شيخ لها هو المختار بن عمور، وبقيت مشيختها في عقبه.

١٢- زاوية شحات (برقة): أنشئت عام (١٢٦١ هـ)، وكان أول شيخ لها هو العلامة مصطفى الدردفي، ومن بين من تولى مشيختها: محمد الدردفي، رافع بدر فركاش، مصطفى محمد الدردفي.

١٣- زاوية العرقوب (برقة): وكان أول شيخ لها هو محمد الجبالي.

١٤- زاوية مسوس (برقة): وكان أول من تولاها بالوكالة الشيخ فهيد العاقوري، وكان أول شيخ لها هو أحمد علي أبو سيف، وفي سنة (١٢٧١ هـ) تولى مشيختها

العلامة عمر الأشهب إلى سنة (١٢٩٧ هـ)؛ حيث توفاه الله، فتولى مشيختها ابنه السيد السنوسي الأشهب، وبعد وفاته سنة (١٣٣٢ هـ) تولى مشيختها ابنه محمد يحيى، وفي سنة (١٣٦٧ هـ) تولى مشيختها محمد عثمان أبو عريقب.

١٥- زاوية الطيلمون (برقة): كان أول شيخ لها هو المصطفى المحجوب، ثم العلامة علي المحجوب، فالسيد أحمد محمد المحجوب.

١٦- زاوية القصور (برقة): كان أول شيخ لها هو العلامة محمد المبخوت التواتي، ثم محمد مقرب حدوث، فالشهيد الكبير عمر المختار.

١٧- زاوية المرج (برقة): كان أول شيخ لها هو أحمد بن سعد، فالسيد علي العابدي، فالعلامة محمد السكوري، فالعلامة محمد بن عبد الله التواتي، فعمران السكوري، فابنه أحمد.

١٨- زاوية بنغازي (برقة): وكان أول من تولى مشيختها هو العلامة عبد الله التواتي، فالعلامة عبد الرحيم بن أحمد المحجوب، وكان من تولى مشيختها السادة: محمد أبو القاسم العيساوي، فالسيد صالح العوامي، فالعلامة أحمد أبو القاسم العيساوي.

١٩- زاوية مرزق (فزان): كان أول شيخ لها هو العلامة أحمد أبو القاسم التواتي.

٢٠- زاوية واو (فزان): وكان أول شيخ لها هو العلامة أحمد أبو القاسم التواتي، ومن بين من تولى مشيختها بالوكالة: العلامة محمد بن الشفيع، ثم أسندت مشيختها إلى محمد علي بن عمر الأشهب، فابنه نجم الدين.

٢١- زاوية زويلة (فزان): كانت تحت إشراف العلامة أحمد أبو القاسم التواتي.

٢٢- زاوية هون (واحة الجفرة): كان أول من تولى مشيختها أحمد بن علي بن عبيد.

٢٣- زاوية مزدة (طرابلس): كان أول شيخ لها هو العلامة عبد الله السني، وقد بقيت مشيختها في عقبه.

٢٤- زاوية طبقة (طرابلس): وكان أول شيخ لها هو العلامة محمد الأزهري، وبقيت مشيختها في عقبه.

٢٥- زاوية العزيات (برقة): أنشئت سنة (١٢٧٠ هـ) وكان من بين من تولى مشيختها عمر جالو.

٢٦- زاوية المخيلي (برقة): وكان أول شيخ لها هو العلامة الحسين الحلافي، وتعاقب ورثته على مشيختها.

٢٧- زاوية تازربو (واحات الكفرة): وكان من بين من تولى مشيختها العلامة محمد المدني.

٢٨- زاوية ربيانة (واحات الكفرة): وكان أول شيخ لها هو حسين بازامة، وبقيت مشيختها في عقبه.

٢٩- زاوية دريانة (برقة): وكان أول شيخ لها هو العلامة إبراهيم الغماري، فابنه السيد حسن، فالسيد محمد الحسن الغماري.

٣٠- زاوية سيوة (مصر): كان أول شيخ لها هو العلامة أحمد أبو القاسم التواتي.

٣١- زاوية الزيتون (سيوة): تابعة لمشيخة أحمد أبو القاسم التواتي.

٣٢- سوكنة (واحات الحضرة).

٣٣- زاوية الرجبان (طرابلس): وكان أول شيخ لها هو العلامة أبو القاسم العيساوي، وبقيت مشيختها في عقبه.

٣٤- زاوية الواحات البحرية (مصر): وكان أول شيخ لها هو العلامة محمد السكوري.

٣٥- زاوية الداخلة (مصر): وكان أول شيخ لها هو العلامة حسين الموهوب الدرسي.

٣٦- زاوية حوش عيسى (مصر).

٣٧- زاوية الفيوم (مصر).

٣٨- زاوية تونين غدامس (طرابلس): وكان أول شيخ لها هو الشريف الغدامسي.

٣٩- زاوية طلميثة (برقة): وكان من بين من تولى مشيختها محمد الكليلي.

٤٠- زاوية توكرة (برقة): وكان من بين من تولى مشيختها: عبد الله الجيلاني، عبد الله عمر الفضيل، يونس الموهوب.

٤١- زاوية أم ركبة (برقة): وكان من بين من تولى مشيختها: علي بن عبد الله.

٤٢- زاوية الفايدية (برقة): وكان أول شيخ لها هو العلامة إسماعيل الفزاني، وبقيت مشيختها في عقبه.

٤٣- زاوية ترت (برقة): وكان أول شيخ لها هو عبد القادر الغزالي، وبقيت مشيختها في عقبه.

٤٤- زاوية أم الرخم (مصر).

٤٥- زاوية النجيلة (مصر).

٤٦- زاوية الحفنة (مصر).

٤٧- زاوية دفنة (برقة): وكان أول شيخ لها هو العلامة حسين الغرياني، وبقيت مشيختها في عقبه.

٤٨- زاوية أم الرزم (برقة): كان أول شيخ لها هو المرتضى فركاش، فابنه المرتضى الثاني، فالأمين فركاش، فمحمد الأمين فركاش.

٤٩- زاوية مصراتة (طرابلس): وكان أول شيخ لها خليفة شنيشح.

٥٠- زاوية زليتن (طرابلس).

٥١- زاوية زلة (طرابلس).

٥٢- زاوية الجريد (تونس): وكان أول شيخ لها هو العلامة محمد بن الصادق.[٢٣٣]

هذه بعض المراكز الإصلاحية التي تمكنت من ذكرها، والتي أنشئت في زمن ابن السنوسي، ولا أزعم أني استطعت حصرها كلها، وهذا يدلنا على انتشار الحركة وتوسعها وإقبال الناس عليها، وقوة نظامها، وحسن إدارتها.

إن القدرة التنظيمية عند ابن السنوسي تظهر للباحث في ركيزتها الأولى؛ ألا وهي نظام الزوايا، حيث طور الزوايا المتعارف عليه في الشمال الإفريقي.

إن ديننا الإسلامي حثنا على النظام في كل شيء؛ فلا بد إذاً من تعويد النفس وضبطها على النظام، فالمسلم لا يتربى تربية منظمة، إلا إذا كان في جماعة منظمة ذات ارتباط ونظام ودقة في كل شيء وفي كل أمر، كما أن هذه الجماعة لها هدف جماعي، يتحقق بتعاون الفرد وإخوانه في بوتقة الطاعة والنظام.

ويلاحظ الباحث أن جل الزوايا ترتكز في الصحارى، وهذا يرجع إلى اهتمام ابن السنوسي بالبوادي، لأنه أراد أن يعمل بحرية بعيداً عن متناول يد السلطة، فأوغل في الأماكن، ولأنه رأى في أهل البادية تربة خصبة يزرع فيها أفكاره الإصلاحية، ووجد فيهم نفوساً متهيئة لحمل الدعوة، كما كانوا أكثر استجابة واندفاعاً من غيرهم لحمل تعاليم الحركة، لذلك وقع اختيار ابن السنوسي على برقة كمركز لنشاطه؛ حيث كانت تقطنها عدة قبائل بدوية؛ تحمَّست للدعوة الإسلامية، وكانت مؤسسات الحركة تناسب البادية واحتياجات أهلها، فأوجد الزوايا السنوسية، ونظمها لتكفي حاجات المحيطين بها التعليمية، والقضائية، والاقتصادية، والسياسية، والتربوية، ولذلك نجحت الحركة

---

[٢٣٣] انظر: السنوسي الكبير، ص (٣٢، ٣٣).

في البوادي، ولم تنتشر الدعوة في المدن، فأهل المدن لم يكونوا بحاجة إلى مؤسسات الحركة، فعندهم المؤسسات الحكومية التي تؤدي لهم الخدمات التعليمية والقضائية والاقتصادية والسياسية، ولذلك نلاحظ أن الزوايا التي أسست في المدن لم تكن تقوم بوظائفها، كما تقوم بها زوايا البادية، كما أنه كان دورها كحلقة وصل بين الحركة في البادية والحضر، كزوايا بنغازي، ودرنة، وطرابلس.[٢٣٤]

إن الاهتمام بدعوة القبائل مهم جدّاً، وحصر الدعوة في المدن وطبقات معينة من المجتمع يتنافى مع أصول دعوة الإسلام الخالدة، ولذلك لابد من الاهتمام بالبدو

والأرياف وكل طبقات المجتمع لتصلها دعوة الله تعالى.

«... كثيراً ما حصرت الدعوة الإسلامية الحديثة في المدن؛ حتى إن بعض العاملين في الحقل الإسلامي لا يعرفون شيئاً من قرى مدينتهم، ولا عن ريفها، ولا عن القبائل البدوية الموجودة حولها إن كانت، وهذا إخلال بواجب شرعي...».[٢٣٥]

«إن التخطيط للعمل الإسلامي للريف والقبائل البدوية مهمٌّ جدّاً، وأعظم شيء نخدم به في هذا المجال هو العثور على ناس من أهل القرى ومن البدو يدرسون الدراسة الشرعية الإسلامية، ليرجعوا إلى أهليهم دعاة، وإنه لأجر كبير أن يتولى بعض أغنياء المسلمين الإنفاق على أمثال هؤلاء، فهذا النوع من التخطيط يحقق[٢٣٦] قوله تعالى: [التوبة: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ۝} [التّوبَة: ٢٢١]

ومن التخطيط الذي ينبغي أن يسعى إليه أن توجد العلاقات

---

[٢٣٤] انظر: السنوسي الكبير، ص (٣٣ إلى ٣٨).

[٢٣٥] انظر: الحركة السنوسية، ص (٢٦٤).

[٢٣٦] انظر: جند الله تخطيطاً، ص (١٣٥).

والصداقات بين أهل المدينة وأهل الريف، بحيث تكون زيارات متبادلة ينزل فيها عند أخيه الحضري، وينزل الحضري فيها عند أخيه الريفي، والأصل في هذا الحديث الشريف: «زاهر باديتنا ونحن حاضرته» .[٢٣٧]

إن زاهراً الأشجعي صحابي جليل كان رسول الله (ص) يحبه ويمازحه، وهو من أهل البادية، وعندما يأتي للمدينة على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم ينزل عنده.

لقد تحدث الدعاة عن ضرورة الاهتمام بالأرياف والقبائل، والمقصود من الحديث أن أهل البادية أصحاب فطرة سليمة، ومحبة للدين عظيمة، ويحتاجون للإرشاد والتوجيه، والتعليم، والتربية، ثم يُنتظر منهم بعد ذلك خير عظيم في مجالات عديدة، وهذا ما حدث مع ابن السنوسي عندما اهتم بالقبائل والبوادي.

المبحث الثاني

المنهج التربوي

انتهج ابن السنوسي منهجاً تربويًّا استمده من كتاب الله وسنة رسوله (ص)، ومن خبرته بالطرق الصوفية التي درس جلها، وانتقد أخطاءها، وعمل على طريقة خاصة يسلكها أتباعه، وفي كتابه (السلسبيل) نلاحظ أنه كانت لديه ملاحظات على عدد من الطرق، وحدد معالم الطريقة التي تتقيَّد بالكتاب والسنة، إن ابن السنوسي كان يؤمن بالصوفية الموافقة للكتاب والسنة، والصوفي الحقيقي في رأيه من يتقيد بالكتاب والسنة، وقد قال في ذلك: «فاعلم أن سبيل القوم اتباع النبي (ص) في الجليل والحقير، وأعمالهم موزونة بميزان الشريعة» .[٢٣٨]

---

[٢٣٧] المصدر السابق نفسه.

[٢٣٨] المصدر السابق نفسه.

وقد فصَّل رحمه الله تعالى في تدريج المريد في مراتب السلوك، قال بعون الله وتوفيقه:

الخطوة الأولى: «يتعين على المريد أن يصحح عقيدته بميزان اعتدال أهل السنة والجماعة، كثَّر الله سوادهم وأدام إمدادهم».[٢٣٩]

ولقد بينت مجملها عندما تحدثت عن رسالة أبي زيد القيرواني كجزء من المنهج الذي كان يتعلمه أتباع الحركة السنوسية.

إن منهج أهل السنة والجماعة يبين المفهوم الصحيح لتوحيد الله عز وجل؛ لأنه اعتمد على كتاب الله عز وجل وسنة رسوله (ص)، وقد تتبع علماء أهل السنة والجماعة نصوص الكتاب والسنة، وخرجوا بالنتيجة التالية؛ ألا وهي: أن توحيد

الله سبحانه وتعالى يعني إفراد الله سبحانه وتعالى في توحيد ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وقد قسموا التوحيد إلى ثلاثة أقسام، وهي:

١- توحيد الربوبية:

ومعناه: إفراد الله بالخلق والرزق والملك والتدبير والتصريف، ولا يشاركه فيها أحد من خلقه، وهذا مركوز في الفطرة لا يكاد ينازع فيه أحد؛ حتى المشركين الذين بعث فيهم رسول الله (ص) كانوا يقرون بذلك ولا ينكرون، ولا يجعلون أحداً من الهتهم شريكاً لله في ربوبيته.

قال تعالى: [يونس: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ۞} [يونس: ١٣]

وقال تعالى: [المؤمنون: {قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ۞ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهُ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ۞ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ

---

[٢٣٩] انظر: الحركة السنوسية.

كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ۞ } [المؤمنون: ٤٨-٩٨].

ولكن لما وجد في الناس من ينازع في توحيد الله بالربوبية، ويجعل لغير الله عز وجل شيئاً من الشركة معه في الخلق والرزق أو التدبير، لم يهمل القران الكريم الاحتياج له، بل قرره أبدع التقرير[٢٤٠] في قوله تعالى: [المؤمنون: {مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ۞ } [المؤمنون: ١٩]

٢- توحيد الألوهية:

هو إفراد الخالق جل وعلا بالعبادة، وإخلاص الدين له وحده.[٢٤١]

قال تعالى: [النحل: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النّحل: ٦٣]

وقال (ص): «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله »،[٢٤٢] ولهذا كان الصحيح أن أول واجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.[٢٤٣]

٣- توحيد الأسماء والصفات:

هو الإقرار بأن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، له المشيئة النافذة والحكمة البالغة، وأنه سميع بصير رؤوف رحيم، على العرش استوى وعلى الملك احتوى، وأنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار

---

[٢٤٠] انظر: السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين، ص (٨).

[٢٤١] انظر: مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية، إدريس محمد (١/١٩٥).

[٢٤٢] المصدر السابق نفسه (١/١٩٩).

[٢٤٣] انظر: صحيح مسلم مع النووي (١/٢١٢).

المتكبر، سبحان الله عما يشركون، إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى والصفات العلى،[٢٤٤] والقاعدة في هذا الباب عند أهل السنة: أن يصفوا الله بما «وصف الله من نفسه، وسماها على لسان رسول الله (ص)، سميناه كما سماه ولم نتكلف منه صفة ما سواه لا هذا ولا هذا، لا نجحد ما وصف ولا نتكلف معرفة ما لم يصف».[٢٤٥]

أما طريق الراسخين في العلم في هذا الباب: «والراسخون في العلم الواقفون حيث انتهى علمهم، الواصفون لربهم بما وصف من نفسه، التاركون لما ترك من ذكرها، لا ينكرون صفة ما سمَّى منها جحداً، ولا يتكلفون وصفه بما لم يسمع تعمقاً؛ لأن الحق ما ترك، وتسميته ما سمى: [النساء: ٥١١]

الخطوة الثانية: «أن لا يقدم المريد على فعل شيء حتى يعلم حكم الله فيه، فيتعلم ما يحتاج إليه من المسائل الفقهية المتعلقة بظاهر البدن على مذهب من المذاهب الأربعة».[٢٤٦]

ولهذا كان أتباع الحركة السنوسية يتدارسون رسالة أبي زيد القيرواني في العقائد

وفي الفقه المالكي، وأضاف ابن السنوسي بعض الكتب المهمة في هذا الباب، كصحيح البخاري، والموطأ، وبلوغ المرام.

١- صحيح البخاري:

إن الإمام البخاري رضي الله عنه واحد من أعظم علماء هذه الأمة، الذين رفع الله لهم ذكرهم، وأجرى ألسنة الخلق بالثناء عليهم والدعاء لهم.

---

[٢٤٤] انظر: مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية (٢٠١/١).

[٢٤٥] المصدر السابق نفسه (٢٠٤/١).

[٢٤٦] مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤٤/٥).

سبق الجميع في العناية بحديث رسول الله (ص)، ووقف عمره عليه، فأصبح أمير المؤمنين في الحديث، وترك للمسلمين من بعده أصحّ كتاب بعد القران الكريم، كان اية في الحفظ، وغاية في الشجاعة والسخاء، والورع والزهد في الدنيا، والرغبة في الاخرة.[٢٤٧]

– مكانة الجامع الصحيح بين كتب السنة الستة:

اتفق علماء هذه الأمة على أن جامع البخاري أجلّ وأعظم من جميع كتب السنة.

قال العلامة القسطلاني: «أما فضله: فهو أصح الكتب المؤلفة في هذا الشأن، والمتلقى بالقبول من العلماء في كل أوان، فقد فاق أمثاله في جميع الفنون والأقسام، وخص بمزايا من بين دواوين الإسلام، شهد له بالبراعة والتقدم الصناديد العظام، والأفاضل الكرام، ففوائده أكثر من أن تُحصى وأعزز من أن تستقصى».[٢٤٨]

وقال البخاري: «ما وضعت في الصحيح حديثاً إلا اغتسلت وصليت ركعتين، وأرجو أن يبارك الله تعالى في هذه المصنفات».[٢٤٩]

وقال ابن تيمية: «ليس تحت أديم السماء كتاب أصح من البخاري ومسلم بعد القران».[٢٥٠]

إن كتاب الصحيح للبخاري جمع بين الفقه والحديث وعلوم متعددة، إن وضعه في المنهج التربوي عند ابن السنوسي يدل على حرصه على اتباع النبي (ص).

---

[٢٤٧] المصدر السابق نفسه (٥/٤٦).

[٢٤٨] انظر: السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين، ص (٨).

[٢٤٩] انظر: الإمام البخاري، د. تقي الدين الندوي، صفحة الناشر.

[٢٥٠] المصدر السابق نفسه، ص (٨٨).

٢- موطأ الإمام مالك:

إن حب ابن السنوسي للإمام مالك بن أنس وكتابه الموطأ يظهر للباحث جليّاً في المقدمة التي كتبها لطلابه، والتي تدلنا على قدرة ابن السنوسي في تعليم وتفهيم تلاميذه، فيقدم لهم المادة الغزيرة بأسلوب سلس بسيط مليء بالعلوم التاريخية والفقهية، والحديثة، والتربوية.

ولقد تحدث عن مدح العلماء للموطأ فقال: فاعلم أن كتاب الموطأ لإمام دار الهجرة المجمع على جلالته من أجل المصنفات، وأنفس المؤلفات.[٢٥١]

وعن محمد بن حرب المدني: «... ثم إن مالكاً عزم على تصنيف الموطأ فصنّفه، فعمل من كان بالمدينة يومئذ من العلماء الموطات، فقيل لمالك: شغلت نفسك بعمل هذا الكتاب، وقد شركك فيه الناس، وعملوا أمثاله، فقال: ائتوني بما عملوا، فأُتي بذلك، فنظر فيه، ثم نبذه فقال: لتعلمن أن لا يرتفع إلا ما أريد به وجه الله، قال: فكأنما ألقيت تلك الكتب في الابار، وما سمع لشيء منها بَعْدُ ذكرٌ يذكر...».[٢٥٢]

وذكر سبب وضعه فقال: فقد روى أبو مصعب أن أبا جعفر المنصور قال لمالك: ضع للناس كتاباً أحملهم عليه، فكلمه مالك في ذلك، فقال: ضعه فما أجد اليوم أعلم منك، فوضع الموطأ، فما فرغ منه حتى مات أبو جعفر.

وفي رواية: أن المنصور قال له: ضع هذا العلم ودوّن فيه كتاباً، وتجنب فيه شدائد ابن عمر، ورخص ابن عباس، وشواذ ابن مسعود، واقصد أواسط الأمور، وما أجمع عليه الصحابة والأئمة،[٢٥٣] وقد ذكر ابن السنوسي ما رأى في الموطأ من البشائر، فقال: عن مصعب بن عبد الله الزبيري، قال: سمعت أبي يقول: كنت جالساً مع مالك

---

[٢٥١] المصدر السابق نفسه.

[٢٥٢] المصدر السابق نفسه، ص (٨٩).

[٢٥٣] انظر: مقدمة الإمام مالك لابن السنوسي، ص (١٣).

بن أنس في مسجد رسول الله (ص)، إذ أتاه رجل، فقال: أيكم مالك؟ فقالوا: هذا، فسلَّم عليه، واعتنقه، وضمَّه إلى صدره، وقال: والله لقد رأيت رسول الله (ص) البارحة جالساً في هذا الوضع، فقال: ائتوني بمالك، فأُتي بك

ترتعد فرائصك، فقال: ليس بك بأس يا أبا عبد الله، وكَنَّاك، وقال: اجلس، فجلست، قال: افتح حجرك، ففتحته فملأه مسكاً منثوراً، وقال: ضمه إليك وبثه في أمتي، قال: فبكى مالك، وقال: الرؤيا تسر ولا تغر، وإن صدقت رؤياك فهو العلم الذي أودعني الله تعالى.[٢٥٤]

إن في الروايات السابقة معاني تربوية عميقة كان أتباع الحركة السنوسية يتربون عليها، منها:

١- إخلاص الأعمال لوجه الله، وأن دوامها وقبولها من شروط هذا الركن الأصيل، وأن العلماء المخلصين يتكفل الله بحفظ علمهم ونشره بين الناس.

٢- إن منهج الاعتدال، والحكمة، والاستقامة المتمثل في الوسطية التي سار عليها الإمام مالك، كانت منهجية أصيلة في حياة ابن السنوسي وإخوانه.

٣- إن ابن السنوسي كان يرى أن الرؤى الطيبة لعباده الصالحين تسر ولا تغر، وأحب أن يغرس هذا الفهم في أذهان تلاميذه، ولذلك ساق لهم رؤيا ذلك الرجل للإمام مالك.

وقد أفرد ابن السنوسي في مقدمته للموطأ باباً في التعريف بمؤلف الموطأ الإمام مالك وثناء الناس عليه، ونقل قول النووي: «قد اجتمعت طوائف العلماء على إمامة مالك وجلالته، وعظم سيادته وتبجيله وتوقيره، والإذعان له في الحفظ والثبات، وحديث رسول الله (ص)، فقد جمع بين شرفي الحديث والفقه، فهو إمام الأئمة وشيخهم، فقد روى عنه سائر الأئمة؛

---

[٢٥٤] المصدر السابق نفسه، ص (١٦).

خصوصاً الأربعة؛ أما أبو حنيفة فبلا وساطة، فقد حكى غير واحد: أنه لقي مالكاً وأخذ عنه... وأما الشافعي فأمره مشهور معه، حتى قال ابن الأثير: كفى مالكاً شرفاً أن الشافعي تلميذه، وكفى الشافعي شرفاً أن مالكاً شيخه.

وأما الإمام أحمد فقد أخذ عن الشافعي، فهو شيخه بواسطة، ومناقب هذا الإمام وفضائله رضي الله عنه تخرج عن أن تحصى، ولا يمكن فيها الحصر ولا الاستقصاء.[٢٥٥]

وذكر ابن السنوسي المناقب التي اجتمعت لمالك ولم تجتمع لغيره وأسند هذا القول للذهبي، فقال:

١- طول العمر وعلو الرواية.

٢- الذهن الثاقب والفهم وسعة العلم.

٣- اتفاق الأئمة على أنه حجة صحيح الرواية.

٤- إجماعهم على دينه وعدالته واتباعه السنن.

٥- تقدمه في الفقه والفتوى، وصحة قواعده.[٢٥٦]

وذكر ابن السنوسي كلاماً يكتب بماء الذهب أسنده إلى مالك، ليتربَّى عليه إخوانه وتلاميذه؛ منه:

قول مالك: لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ ممن سواهم: لا يؤخذ من سفيه، ولا من صاحب هوى يدعو إلى بدعته، ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس، وإن كان لا يتهم في حديث رسول الله (ص)، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة، إذا كان لا يعرف ما يحمل وما يحدث به.[٢٥٧]

وقال مالك: قلَّما كان رجل صادق، ولا يكذب في حديثه، إلا مُتّع بعقله ولم تصبه مع الهرم افة، ولا خرف.[٢٥٨]

---

[٢٥٥] المصدر السابق نفسه، ص (١٧).

[٢٥٦] انظر: مقدمة الإمام مالك، ص (٢٠).

[٢٥٧] المصدر السابق نفسه، ص (٢٨).

[٢٥٨] المصدر السابق نفسه، ص (٢٩).

ومن قوله: القول بالباطل بُعدٌ عن الحق، ولا خير في شيء وإن كثر من الدنيا، يفسد دين المرء ومروءته.[٢٥٩]

لقد كان كتاب الموطأ حافلاً بالحديث، والاثار، وقد جعله ابن السنوسي ضمن منهجه العلمي التربوي لأتباعه.

٣- بلوغ المرام:

وهو كتاب جامع للأحكام، ألَّفه العلامة أحمد بن علي بن محمد أبو الفضل الكناني الشافعي المعروف بابن حجر العسقلاني، وقد نال كتاب بلوغ المرام رضا العلماء، فهو كتاب مفيد مع صغر حجمه؛ حوى ما يغني عن التطويل، وأقبل عليه العلماء قديماً وحديثاً، فلا تجد حلقة عالم إلا وكتاب بلوغ المرام على رأس القائمة، وأقبل عليه الطلاب بالحفظ والتداول، واستغنوا به عن غيره من أمثاله، فصار له القبول وعليه إقبال، حتى استفاد منه في كل عصر الجم الغفير، وقد جعله ابن السنوسي ضمن منهجه التربوي التعليمي، ويتعلم الطالب من هذا الكتاب:

– بين مؤلفه مرتبة الحديث من الصحة والحسن والضعيف بما يغني الطالب عن الرجوع إلى غيره.

– اقتصر من الحديث على الشاهد من الباب بما لا يخلُّ بالمعنى المقصود، فخلص من هذا الإيجاز والفائدة.

– انتقى أحاديث الكتاب من دواوينه المشهورة وأمهاته المعتبرة؛ التي أشهرها: مسند أحمد والصحيحان والسنن الأربع.

– يصدر الباب غالباً بما في الصحيحين أو أحدهما، ثم يتبعها بما في السنن أو غيرها؛ لتكون الأحاديث الصحيحة هي العمدة في الباب، والمرجع في المسائل، والباقي مكملات ومتممات.

– رتب المؤلف كتبه وأبوابه وأحاديثه على كتب الفقه ليسهل على الطالب مراجعته.

---

[٢٥٩] انظر: مقدمة الموطأ لابن السنوسي، ص (٣٠).

– جعل في اخره نخبة طيبة من أحاديث جامعة في الاداب ليستفيد منه الطالب في الأحكام والسلوك.[٢٦٠]

هذه بعض الكتب القيمة التي جعلها ابن السنوسي في منهجه العلمي التربوي.

الخطوة الثالثة: «ثم يتوجه إلى تزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب وتنقية السر»:

إن دعوة ابن السنوسي إلى تزكية النفس وتهذيب الأخلاق من صميم القران الكريم والهدي النبوي الشريف.

قال تعالى: [النور: {وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [النُّور: ١٢]

جاءت هذه الاية بعد قصة الإفك، وبعد الايات التي نهت عن إشاعة الفاحشة في الذين امنوا، وبعد النهي عن اتباع خطوات الشيطان، وجاءت قبل قوله تعالى: [النور: {وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ} [النُّور: ٢٢]

وذلك يؤكد ما يلي:

١- إن موانع التزكية من القوة بحيث تستحيل معها التزكية لولا فضل الله، وهذا يقتضي شيئين: بذل جهد في التزكية، وسؤال الله إياها، والاعتماد عليه فيها، وفي الحديث: «اللهم اتِ نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكّاها، أنت وليها ومولاها».[٢٦١]

٢- إن من تزكية النفس العفو والصفح عمن أساء إلينا؛ لأن الأمر جاء بمناسبة الحديث عن مسطح بن أثاثة الذي كان ينفق عليه أبو بكر

---

[٢٦٠] المصدر السابق نفسه.

[٢٦١] المصدر السابق نفسه.

رضي الله عنه، والذي خاض في الإفك، فمنع عنه أبو بكر رفده، فجاءت الاية واعظة، وَفَاء أبو بكر إلى سيرته، وما أرقاه من مقام!! وما أعلى ما يراد بكلمة التزكية!!

٣- إن من تزكية النفس عدم اتباع خطوات الشيطان؛ لأنه يأمر بالفحشاء والمنكر، وإذاً فالتزكية تعني: تجنب الفحشاء والمنكر، وتجنب خطوات الشيطان، وأولى خطواته الحسد والكبر، فقد حسد ادم وتكبر عن السجود له.

٤- عدم محبة إشاعة الفاحشة في الذين امنوا، وعدم السير في طريق ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر.

٥- إمساك اللسان عن الأعراض، وترك المشاركة في كل ما يؤذيها إلا إذا توفرت شروط شهادة وتعيَّنت.[٢٦٢]

هذه القضايا الخمس لها صلة بالتزكية، فالتزكية باب واسع، وقد تحدَّث ابن السنوسي عن النفس البشرية وأنواعها وأمراضها وكيفية علاجها حديث العالم الخبير في تحقيقها؛ فمن حديثه عن:

- النفس الأمارة:

قال: وهي صاحبة الجهل والبخل والحرص والكبر والغضب، والشره والشهوة والحسد، وسوء الخلق، والخوض فيما لا يعني من الكلام وغيره، والاستهزاء والبغض، والإيذاء باليد واللسان، وغير ذلك من القبائح.... فكن أيها الأخ منها على حذر، ولا تنتصر لها إن أحد اذاها، بل كن معيناً له عليها، وتخلص من هذه الافات... بالذكر الكثير القوي، وتقليل الطعام والمنام، وحساب النفس كل ساعة، وخوفها بالموت، وعذاب القبر وما بعده من الأهوال، إلا إذا أوصل الخوف إلى درجة القنوط؛ فيجب عليك حينئذ تذكر أسباب الرجاء، وسعة رحمة الله تعالى، وعليك بالتذلل، والخضوع، والتضرع، له تعالى،

---

[٢٦٢] انظر: توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبد الله البسام، ص (٢٢، ٢٣).

واطلب الخلاص بلطفه وإحسانه من الأوصاف الذميمة، والتحلي بالصفات الحميدة؛ كالصدق ،والتواضع، والمحبة، والإخلاص، والخمول، ونحو ذلك لأنك إذا اشتغلت في خلاص نفسك من الافات وتبدلت بالأوصاف الحميدة، شاهدت بعض العجائب المكنونة، والأسرار المخزونة في صدفة البشرية، وأقبل على من لا غنى لك عنه بمعاملات الإحسان، قبل أن تساق إليه بسلاسل الامتحان، وقد قال لك: من تقرب إليَّ بشبر تقربت منه ذراعاً... الحديث؛ فاترك التواني، وأعرض عما يشغلك عن مولاك، واستغن بالقناعة بما في يدك، ودع اللذات الفانية لأهلها، ولا تسوف التوبة والإقبال على الله تعالى؛ فإنك لا تدري ما بقي من عمرك.

وقد نقل السنوسي الإجماع على أن التوبة واجبة على الفور، ويلزم من تأخيرها تضاعف الذنوب على من لم يتب، ليس هذا التضاعف كتضاعف الحسنات، بل إذا لم يتب صار عليه ذنب الفعل، وذنب ترك التوبة، وهذان الذنبان تجب التوبة منهما أيضاً، وإذا لم يتب منهما على الفور صارا أربعة، وعلى هذا القياس، وإذا نظرت بعين الإنصاف والشفقة على نفسك؛ رأيت احتياجك إلى التوبة أشد من احتياجك إلى المأكل، والمشرب، والمسكن؛ لأنها قد حجبتك عن مطالعة الغيوب، وحالت بينك وبين كل محبوب، وعلامة خلاص النفس من الافات المارة أن يكون الخلق كلهم عنده على السوية، لايحبهم محبة طبيعية تميله إليهم في منكر، ولا

يكرههم كراهة تغير باطنه عليهم في معروف، ويستوي عنده جميع الماكل، وجميع الملابس، فمن رأى في نفسه شهوة لبعض دون بعض، وجب عليه المجاهدة، إلى أن يستوي ذلك عنده، وإلا كان حيواناً في صورة إنسان، بل الحيوان خير منه؛ لأنه ليس عليه تكليف ولا حساب ولا عقاب،[٢٦٣] وما قاله ابن السنوسي انفاً تفسير لقوله تعالى: [يوسف:

[٢٦٣] رواه مسلم.

﴿وَمَا أُبَرِّيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝﴾ [يُوسُف: ٥٣]

– النفس اللوامة:

وقد تحدث ابن السنوسي عنها، فقال: وهي التي لها رغبة في المجاهدة وموافقة الشرع، ولها أعمال صالحة من قيام، وصيام، وصدقة وغير ذلك من أفعال البر، يدخل عليها العجب والكبر وكذا الرياء الخفي؛ بأن يحبّ صاحبها أن يطلع الناس على ما هو عليه من الأعمال الصالحة، كالإخلاص وغيره، ويحمده عليها مع أنه يخفيها عنهم ويعمل لله، ويكره هذه الخاصة لكن لا يمكنه قلعها بالكلية، والخلاص من ذلك الرياء يكون بالفناء عن شهود الإخلاص بشهود أن المحرك والمسكن هو الله تعالى شهود ذوق، ويشهد أن المنة لله تعالى عليه؛ حيث فتح له أبواب العبادات، ومكنه من الدخول إلى حضرته، وأهَّله للقبول في خدمته، والخلاص من الأولين يكون بالمجاهدة، وهي: ترك العادات، ومعظمها يكون بستة أشياء: تقليل المنام، وتقليل الطعام، وتقليل الكلام، والاعتزال عن الأنام، والذكر المدام، والفكر التام، فمن فعلها بصدق نقلته إلى الباقي، والمطلوب من هذه الأشياء الاعتدال، ولذا لم يقولوا: ترك الطعام، بل لا يأكل حتى يجوع وإذا أكل لم يشبع.

فعالج نفسك بالشريعة وخلصها من أمراضها؛ وأعظمها الكبر والعجب اللذان هما أصل الغضب الذي ينشأ عنه الحقد الذي يتفرع عنه الحسد، ولا يزول الكبر والعجب إلا إذا انقطع المدد عنهما، وهو امتلاء البطن، وللحسد أسباب أخر، كحب الرياسة، وخبث النفس، وكثيراً ما تكون هذه الأسباب بين أهل الطريق المتصوفين، فيتمنى زوال ما على أخيه من المشيخة، أو الخلافة، وما هو عليه من

الاستقامة والتوجه إلى الله تعالى، إذا عرفت ذلك فعليك بمعرفة أربعة أشياء، والتأمل فيها:

الأول: أنه تعالى لا يعجزه شيء.

الثاني: إحاطة علمه بكل شيء.

الثالث: أنه تعالى أرحم الراحمين.

الرابع: أن جميع أفعاله الخير.

فإن تحقق الأول يزيد همتك بالتوجه إليه والطلب منه مع اليقين بالإجابة، والطلب على هذا المنوال لا يرد أصلاً، وتحققك بالثاني والأخير يحقق لك مقام التوكل والرضا والشوق والمحبة وغير ذلك، وتحققك بالثالث يدفع عنك خوف الإنس والجن،[٢٦٤] وهذا شرح لقوله تعالى: [القيامة: {وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝} [القِيَامَة: ٢]

وقال ابن السنوسي عن النفس المطمئنة:

– النفس المطمئنة:

وهي التي لا تفارق الأمر التكليفي شبراً، ولا تتلذذ إلا بأخلاق المصطفى (ص)، ولا تطمئن إلا باتباع أقواله، وتتلذذ بصاحبها أعين الناظرين وأسماع السامعين، وعلم معنى قوله تعالى: [الرحمن: ٢٦]؛ فيجب عليه الاجتماع مع الخلق في بعض الأوقات ليفيض عليهم بما أنعم الله به عليه من علم الصدور، {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝} [الرَّحمن: ٢٦] علم السطور، وليكن في بقية الأوقات مع الله ليرقى إلى المقامات الباقية، وليكثر من الذكر، ولا يلتفت إلى ما يظهر من أنوار أو كمالات أو كرامات؛ لأن حضرة القرب لا يدخلها إلا العبيد الخُلَّص، وكل ما سوى الله قاطع عن المقصود، فهو فتنة فلا تقف عنده، وإن إلى ربك المنتهى، ومن وصل إلى حضرة القرب صارت الكرامات طوع يده ومن تعرض لكرامة أولاً فقد طلب الشيء قبل أوانه، فيعاقب بحرمانه، فيكون مشتغلاً بما لا يعني، والإنسان مدة حياته متعرض للمحن، فينبغي التحرُّز من الافات إلى الممات، وإياك وحب الرياسة والشهرة والتعرض للمشيخة والإرشاد.[٢٦٥]

---

[٢٦٤] انظر: المستخلص في تزكية الأنفس، سعيد حوى، ص (١٥٤).

[٢٦٥] انظر: المسائل العشر لابن السنوسي، ص (٢٨٠، ٢٨١).

وتحدث ابن السنوسي عن النفس الكاملة فقال:

– النفس الكاملة:

وهي التي لا يفتر صاحبها عن العبادة؛ إما بجميع البدن، أو باللسان، أو بالقلب، أو ببعضو من الأعضاء، وصاحبها كثير الاستغفار، كثير التواضع، سروره ورضاه في توجه الخلق إلى الحق، وحزنه في ضد ذلك، وهو كثير الأوجاع قليل القوى، قليل الحركة، ليس في قلبه كراهة لمخلوق من المخلوقات، مع أنه يأمر وينهى، ولا تأخذه في الله لومة لائم، ويظهر الكراهة لمستحقيها، والمحبة لمستحقها، فيضع كل شيء في محله متى ما وجَّه همته إلى كون من الأكوان أوجده الله تعالى على وفق مراده، وذلك لأن مراده في مراد الحق سبحانه وتعالى.[٢٦٦]

لقد كان ابن السنوسي مربياً من الطراز الأول، وكان عليماً بأمراض النفوس، وخبيراً بعلاجها، ولقد نجح في تربية أصحابه على الأخلاق الرفيعة، وحقق نجاحاً باهراً، ورسم لأتباعه طريقة تعتمد على كتاب الله وسنة رسوله (ص)، لقد تحدث ابن السنوسي عن الأسباب التي تعين العبد على تصفية نفسه وتزكيتها؛ فقال:

الخطوة الرابعة:

ومن أسباب حصولها: طيب المطعم؛ فإن من أكل حراماً فَعَله[٢٦٧] في ظاهره أو باطنه لا محالة، ومن أسبابه سماع أحاديث الترغيب والترهيب، وحكايات الشيوخ في مجاهداتهم وشريف معاملاتهم؛ فإنها جند من جنود الله، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: [هود: {وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ} [هُود: ١٢٠]، وليشتغل المريد بالأعمال المسرعة به إلى حضرة الفلاح والفوز بالكمال، كالصلاة على النبي (ص)؛ فقد قال بعضهم: إنها لا يدخلها الرياء، وقال بعضهم: إنها

---

[٢٦٦] انظر: المسائل العشر، ص (٢٨٥).

[٢٦٧] المصدر السابق نفسه، ص (٢٩٠).

مقبولة مطلقاً، وهي على هذا من الغنائم الباردة المبذولة لسالكي طريق المجاهدة في الله...[٢٦٨]

١- طيب الطعام والابتعاد عن الحرام:

إن ابن السنوسي يبين لأتباعه أن من أسباب تزكية النفوس، والتخلق بالأخلاق الرفيعة، وتصفية القلوب، أن يحرصوا على طيب الطعام، وأن يبتعدوا عن الحرام.

إن ايات القران الكريم، وأحاديث النبي (ص)، ناطقة بربط قبول سائر العبادات من دعاء، وصلاة، وصيام، وزكاة، وحج، وصدقة، وغير ذلك من صالح الأعمال بتحري الحلال من الكسب:

– الدعاء:

ففي الدعاء، وهو مخ العبادة، يقول تعالى: [البقرة: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ۞} [البَقَرَة: ٦٨١]

وعباد الله الذين استجابوا له، هم من يفعلون الحلال ويتركون الحرام، فيكونون أهلاً للإجابة قال تعالى: [غامر: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غَافر: ٠٦]

وإجابة الدعاء منوطة بأكل الحلال، وترك الحرام، وتوقي الشبهات، أخرج مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله (ص): «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين؛ فقال: [المؤمنون: {يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ۞} [المؤمنون: ١٥]، وقال: [البقرة: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [البَقَرَة: ١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر،

---

[٢٦٨] المصدر السابق نفسه، ص (٢٩١).

يمد يده إلى السماء، يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟»[٢٦٩] ولاشك أن قبول الدعاء من الوسائل المهمة في تزكية نفس العبد، وتهذيب أخلاقه، وحياة قلبه.

- الصدقة:

والله تعالى طيب لا يقبل إلا طيِّباً، والحرام سواء أكان مالاً أم متاعاً أم غير

ذلك، غير طيب، لأنه خبيث، ومن مصدر خبيث غير مشروع، فهو بالتالي غير مقبول.

قال تعالى: [البقرة: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ} [البَقَرَة: ٧٦٢]

وكذلك الشأن في سائر العبادات، فكيف يقبل الله تعالى الصلاة ممن تغذى بالحرام، وكانت أنفاسه التي يناجي بها ربه، تمتد طاقتها من الحرام، وكل جسم غذي بالحرام فالنار أولى به.[٢٧٠]

إن من وسائل تزكية النفوس: العبادات عندما يتقبلها الله، ويجعل لها اثارها في نفس العبد وقلبه، وعقله وجسده.

٢- سماع أحاديث الترغيب والترهيب:

فإن لها أثراً في تزكية النفوس، وإحياء القلوب، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله (ص)، يقول: «قال الله تعالى: يا بن ادم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا بن ادم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا بن ادم

---

[٢٦٩] غير واضحة من الأصل، ولعل معنى الكلمة أثر في ظاهره وباطنه، ولعله أراد: من أكل حراماً فعل حراماً، وهو من قول: من أكل الحلال أطاع الله، ومن أكل حراماً عصى الله.

[٢٧٠] انظر: السلسبيل المعين، ص (٩).

إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة». [٢٧١]

وأما في الترهيب، فعن أنس رضي الله عنه، قال: خطب رسول الله (ص) خطبة ما سمعت مثلها قط، فقال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً» فغطى أصحاب رسول الله (ص) وجوههم ولهم خنين. [٢٧٢]

إن ابن السنوسي رحمه الله يرى أن لأحاديث الترغيب والترهيب أثراً في تزكية النفوس، كما يرى لسير وتراجم الصالحين أثراً في صفاء القلوب، وتطهير النفوس، بل يرى أن تلك السير جند من جنود الله يثبت الله بها من يشاء من عباده.

٣- المسارعة للخيرات:

يرى ابن السنوسي أن من وسائل التزكية المسارعة في الخيرات والأعمال الصالحة، كالصلاة على النبي (ص)، ويراها من الغنائم الباردة لسالكي طريق المجاهدة في الله.

قال تعالى: [الأحزاب: {إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝} [الأحزَاب: ٥٦]

إن صلاة الله وملائكته على النبي (ص) معناها الثناء عليه، وإظهار فضله، وشرفه، وإرادة تكريمه وتقريبه، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة في فضل الصلاة على النبي (ص)؛ ومنها: عن يعقوب بن يزيد بن طلحة التميمي، قال: قال رسول الله (ص): «أتاني اتٍ من ربي فقال: ما من عبد يصلي عليك إلا صلَّى الله عليه بها عشراً» فقام إليه رجل، فقال: يا رسول الله! أجعل نصف دعائي لك؟ قال: «إن شئت».

---

[٢٧١] انظر: مسلم (٧٠٣/٢) رقم (١٠١٥).

[٢٧٢] انظر: طلب الرزق بين الحلال والحرام، أحمد الطويل، ص (١٤٧).

قال: ألا أجعل ثلثي دعائي؟ قال: «إن شئت».

قال: ألا أجعل دعائي كله؟ قال: «إذاً يكفيك الله همَّ الدنيا وهمَّ الاخرة».[٢٧٣]

قال ابن السنوسي: إذا أكثر السالك من الصلاة على النبي (ص) أنقذه الله بها من المهالك، وأخذ بناصيته إلى أحسن المسالك، ودعا ابن السنوسي تلاميذه إلى دراسة سيرته (ص)، وبيان أحواله، وحياته.[٢٧٤]

إن الصلاة على النبي (ص) لها ثمرات كثيرة وفوائد عظيمة؛ منها:

– امتثال أمر الله سبحانه وتعالى، وموافقته سبحانه في الصلاة عليه (ص)، وموافقة ملائكته فيها.

– حصول عشر صلوات من الله عز وجل على المصلي بالصلاة مرة واحدة على النبي (ص).

– أنها سبب لشفاعته (ص) إذا قرنها بسؤال الوسيلة أو أفردها.

– أنها سبب لكفاية العبد ما أهمَّه.

– أنها تقرب صاحبها من طريق الجنة.

– أنها سبب لإبقاء الله سبحانه الثناء الحسن والبركة للمصلِّي؛ لأن المصلي طالب من الله أن يثني على رسوله ويكرمه ويشرفه ويبارك عليه وعلى اله، وهذا الدعاء مستجاب؛ فلابدَّ أن يحصل للمصلي نوع من ذلك، والجزاء من جنس العمل.

– أنها سبب لدوام محبة العبد لرسوله (ص)، وزيادتها وتضاعفها، وذلك عقد من عقود الإيمان الذي لا يتمُّ إلا به.[٢٧٥]

---

[٢٧٣] انظر: الدارمي (٣٢٢/٢) حسنة الألباني رقم (١٢٧).

[٢٧٤] انظر: البخاري، كتاب الرقاق (٣١٩/١١).

[٢٧٥] انظر: مسلم، أبو داود (١٥١٦).

هذه بعض الأصول التي توضح منهج ابن السنوسي التربوي، وقد ألزم أتباعه بأوراد الطريقة، فهي عبارة عن تلاوة القران الكريم، ثم الاستغفار والتهليل والصلاة على النبي (ص)،[٢٧٦] وقراءة بعض الأدعية التي تحمل في طياتها معاني التوسل والتضرع إلى الله، وحمده جل جلاله وتسبيحه.[٢٧٧]

وكان أتباع الحركة السنوسية يحافظون على أورادهم، ولم تكن معهم موسيقا، ولا حركات راقصة، وكانوا بعيدين عن الأعمال البهلوانية، كأكل الزجاج، وطعن الصدور بالسيوف، واللعب مع الأفاعي.[٢٧٨]

وكان ابن السنوسي يلقن طريقته للمريدين بقصد تعليمهم الشريعة الغراء، ويلح عليهم بالتمسك بأحكامها، ويأخذ عليهم العهد بأن لا يخالفوا في أعمالهم الشرع الحنيف.[٢٧٩]

ابن السنوسي ونقده لأخطاء الصوفية:

لقد وقعت كثير من الطرق الصوفية في انحرافات كثيرة، وقد تعرض ابن السنوسي لبعض الطرق، ووضح الأخطاء التي وقعت فيها؛ ففي حديثه عن الطريقة الصديقية، يقول: «دخل الغلط في الأخلاق على جماعة من هذه الطائفة، وذلك من

قلة معرفتهم بالأحوال واتباعهم حظوظ النفس، ولكنهم لم يتأدَّبوا بمن يروضهم ويخرجهم من الرعونات، ويجرعهم المرارات، ويدلهم على المناهج الرضية في علاج عيوب النفس وطريق دوائها؛ فمثلهم كمثل من يدخل بيتاً مظلماً بلا سراج، إلا من أراد الله هدايته بجذب عنايته، فالله هو الولي الحميد».[٢٨٠]

---

[٢٧٦] السلسبيل المعين، ص (٨).

[٢٧٧] انظر: البحر الرائق، أحمد فريد، ص (١٢١).

[٢٧٨] انظر: الحركة السنوسية، ص (٢٤٩).

[٢٧٩] انظر: السنوسي الكبير، ص (٩٩).

[٢٨٠] انظر: الحركة السنوسية، ص (٢٥١).

وانتقد ابن السنوسي بعض دخلاء المتصوفة: «... ومنها ما كثر به تبجح كثير من بعض المتنسِّكين، من دخلاء المتصوفة، وغلاة المتورعين، من الإعجاب بأعمالهم، والتمدح بأحوالهم، وكونهم مخصوصين بينابيع الإمداد، ومواهب الكرامة، لا يبالون بمن عداهم ولو كانوا على محض الاستقامة...»[٢٨١]

وعمل على تصحيح مفاهيم الإسلام التي انحرفت بعض طرق الصوفية عنها، كالعبادة والتوكل والجهاد.

أ العبادة:

إن من عوامل النهوض التي سار عليها ابن السنوسي تصحيح مفهوم العبادة في أذهان أتباعه، ونجد ذلك في قوله لبعض تلاميذه وإخوانه: «لأي شيء نأمركم بقراءة النحو؟ لإصلاح ألسنتكم لكتاب الله وحديث الرسول (ص)»، ثم قال: «بالكم تقولون: الذي يقرأ النحو ما نوصله إلى الله، بالكم تقولون: الذي يخدم الحجر والطين ما نوصله إلى الله، بالكم تقولون: الذي يرعى الإبل ما نوصله إلى الله، وهكذا وعدّ أشياء كثيرة».[٢٨٢]

وقد اتضح مفهوم العبادة الشامل عند أتباع الحركة السنوسية، وكان طلاب الزوايا في يوم الخميس من كل أسبوع يخصصونه للشغل بالأيدي، فيتركون الدروس كلها، ويشتغلون بأنواع المهن من بناء، ونجارة، وحدادة، ونساجة، وغير ذلك، لا تجد فيهم إلا عاملاً بيده، وكان محمد المهدي السنوسي الزعيم الثاني للحركة يشوق الطلبة والمريدين إلى القيام بالحرف والصناعات، ويقول لهم جملاً تطيب خواطرهم، وتزيد رغبتهم في حرفهم، حتى لا يزدروا بها أو يظنوا طبقتهم هي أدنى

من طبقة العلماء، فكان يقول لهم: «يكفيكم من الدين حسن النية، والقيام بالفرائض الشرعية، وليس غيركم بأفضل منكم»، وأحياناً يدمج نفسه بين أهل الحرف ويقول لهم وهو يشتغل معهم: «يظن أهل

---

[٢٨١] المصدر السابق نفسه، ص (٢٥٢).

[٢٨٢] المصدر السابق نفسه، ص (١٤٣).

الوريقات والسبيحات أنهم يسبقوننا عند الله، لا والله ما يسبقوننا».[٢٨٣]

إن مفهوم العبادة عند السنوسية وافق تعريف ابن تيمية عندما قال: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه: من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصوم والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار.... وأمثال ذلك من العبادة».[٢٨٤]

ب التوكل:

كان ابن السنوسي يحب للمسلم أن يعيش من عمل يده وعرق جبينه ليغرس في نفسه حب التعفف، وقد روى كبار الإخوان عن ابن السنوسي: أنه كان يقول: «الذهب في الأرض، فغوصوا لاستخراجه بالمحراث»، وكان يقول: «الدرر في غرس الشجر أو تحت ورق الشجر»، ويقول: «اليد العليا خير من اليد السفلى، والاستقامة كنز لا يبلى، والعفة حسب دائم»، «ومن مد يده متسولاً قصر لسانه».[٢٨٥] إن مفهوم التوكل على الله يكون في كل الأمور، وهذه التوجيهات تدلنا على فهم ابن السنوسي لمفهوم التوكل، فدعا إلى مباشرة الأسباب مع تفويض الأمر لله تعالى، وحارب التواكل الذي انتشر في كثير من الطرق الصوفية.

ج الجهاد:

قامت بعض الحركات الصوفية بصرف الناس عن القتال في سبيل الله وجهاد أعداء الأمة الإسلامية، وعمل ابن السنوسي على تربية أتباعه على الاستعداد للجهاد في سبيل الله، وكان كثيراً ما يدعو للجهاد ويأمر به ضد كل معتدٍ على أرض المسلمين، فقد قام بتنبيه وتحذير الليبيين من غزو الطليان لليبية، قال مرة للشيخ الكاسح أحد

---

[٢٨٣] انظر: المسائل العشر، ص (٩).

[٢٨٤] انظر: الحركة السنوسية، ص (١٥٧).

[٢٨٥] المصدر السابق نفسه، ص (١٩٣).

زعماء قبيلة العواقير: «ماذا أعددت يا شيخ الكاسح للنابلتان إذا غزو بلادك ليأخذوها؟ فقال له الشيخ الكاسح: أعددت له جراباً من البارود، وشيئاً من الرصاص، فقال له ابن السنوسي: إذا كنت وأنت شيخ القبيلة ولم يوجد عندك إلا هذا المقدار القليل؛ فماذا يوجد عند أفراد القبيلة؟!» وأخبره ابن السنوسي أن النابلتان ات للبلاد لا محالة، وسيصيبكم منهم أذى كبير، وإن الله مع الصابرين، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار، وكان ابن السنوسي يُفَهِّم ذلك لكل من يجالسه من الإخوان ورؤساء الزوايا، وشيوخ القبائل والأعيان، ويأمرهم أن يحذروا من ذلك، وأن يحتاطوا له، وأن يأمروا معلمي الصبيان بإلقاء الدروس في هذا الشأن، وكان يأمر رؤساء الزوايا باقتناء جميع أنواع السلاح ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ويحتفظوا به في مخازن خاصة،[٢٨٦] وذات مرة قال لأحد شيوخ القبائل: إن النابولتان سيغزو هذا البلد، ويقف أهلها للدفاع عنها موقفاً مشرفاً، وسيتخذ جميع الوسائل لإخضاعهم، ومن بين هذه الوسائل سيقدمون الأموال للإغراء؛ فماذا أنتم فاعلون في هذه الحالة؟ فقال الشيخ: إننا سنأخذ المال ونثني عليهم نقاتلهم، فكان جواب ابن السنوسي: من يقبل هديتهم لا يقاتلهم، وقد صحّ ذلك كله فعلاً.[٢٨٧]

وكان يتصيد الفرص لبيان أهمية الاستعداد، وجمع الذخائر، والاحتفاظ بها لوقت الحاجة، فعندما وصل إلى العزيات عام (١٢٦٩ هـ) قادماً من الحجاز، وأخذت وفود القبائل تتوافد على زيارته من جميع أنحاء برقة وطرابلس، زرافات ووحداناً، وكان من تقاليد البدو في مثل هذه الحالة أنهم يطلقون الأعيرة النارية من بنادقهم دليلاً على فرحهم وابتهاجهم، وفي ليلة من الليالي كان يتصدَّر مجلساً من الإخوان وشيوخ الزوايا وزعماء العشائر وذلك بعد صلاة العشاء، فسمع طلقاً متواصلاً من البارود، وسأل عن السبب فقيل له: إن (مزاراً) من قبائل

---

[٢٨٦] انظر: الفتاوى (١٥٠/١٠).

[٢٨٧] انظر: برقة بين الأمس واليوم، ص (١٨٧، ١٨٨).

العواقير قد وصل الان؛ (وكلمة مزار تطلق عند البادية على الزائرين)، فقال: لقد نبهنا أكثر من مرة للمحافظة على الرصاص والبارود، والعناية بإدخال الأسلحة كي لا تستعمل إلا عند الحاجة، وإن الوقت الذي ندخر له السلاح لاتٍ، ونود من إخواننا وشيوخ العشائر أن يواصلوا إسداء النصح بذلك، فأجابه محمد بن الشفيع بقوله: أتنتظر غزواً

خارجيّاً قريباً؟ فالتفت ابن السنوسي عنه إلى الشمال وكان يستقبل القبلة وقال وقد تقطب وجهه: أكاد أقول لكم: إنني أرى العدو رأي العين؛ ومن مد الله في عمره منكم سوف يقاتله، وهو ات من هنا، وأشار إلى جهة البحر، فاصبروا وصابروا ورابطوا، واتقوا الله لعلكم تفلحون، ثم استشهد بالاية: [الأنفال: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ۝ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يُوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝ } [الأنفَال: ٥١-٦١] الاية.

وأصبح أتباع الحركة السنوسية يستعدون لأعدائهم، الذين أخبر شيخهم بأنهم قادمون، وسنرى بإذن الله معاركهم البطولية ضد فرنسة وبريطانية، وإيطالية في الجزء الثاني من هذه الدراسة.

المبحث الثالث

البعد السياسي عند ابن السنوسي

يظهر البعد السياسي عند ابن السنوسي في تعامله الحكيم مع الدولة العثمانية، حيث رأى في الدولة العثمانية دولة الخلافة، ضرورة لازمة لوحدة الأمة، والدفاع عن كيانها، وأنه لابد من معاضدتها والوقوف بجانبها، رغم ما كان يعتقده في الأصل من أن الخلافة تكون بيد قرشي، ومع هذا فإنه لم يشأ أن يثير موضوع الخلافة من هذه الناحية؛ لأنه يعلم يقيناً أن إثارة هذا الموضوع معناه فتح باب للنزاع لا يعود إلا بضرر على السنوسية وعلى المسلمين أجمع، ويبدو أنه اعتبر من

الأحداث التي عاصرها في صراع حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب مع الدولة العثمانية، واقتنع بأن أخفَّ الضررين في هذه المسألة الحية الواقعية عدم معاداة الدولة العثمانية، ولذلك نجد ابن السنوسي يعمل على توثيق علاقته بحكام الأقاليم الليبية في طرابلس وفزان وبنغازي، وتولَّدت علاقة وثيقة بين الولاة العثمانيين وابن السنوسي مبنيَّة على الاحترام، والتقدير، فقد جاء في رسالة بعث بها ابن السنوسي لوالي طرابلس محمد أمين باشا بعد تأسيس الزاوية البيضاء:

«ثم إننا نحن وعصابة المهاجرين بحمد الله في عافية، وما ذكرتم من كونكم إلى لقائنا بالأشواق وأخذكم من عهود الود بأشد وثاق، فهذا محقق لدينا، وواجب المكافأة علينا، ويؤكده دوام اعتنائكم بنا وبأصحابنا، وملاحظتكم لنا وشفقتكم علينا، وتوصيتكم أتباعكم على ما يتعلق بمحلنا من خدمة وعمارة، وغير ذلك مما لا يقدر على مكافأتكم عليه إلا الله سبحانه، هذا مع بعد المسافة، واشتغالكم بمصالح الدولة العلية، وقيامكم بأعباء سياسة الرعية، فإن هذه الزاوية وإن نسب إنشاؤها لمن قبلكم؛ فإنما تمام أمرها واستمرار انتظامها بشمول نظركم، فأنتم

لذلك منا بمرأى ومسمع، ومذكورون مع الحاضرين في كل مجمع...، والإخوان المهاجرون دائماً لكم داعون».

ثم يتحدث عن عمله وعمل الإخوان في نشر العلم وإقامة شعائر الدين، ثم يقول: «ثم ما ذكرتم من توجيه النجل الناجب إلى ولاية بنغازي للقيام بمصالح الدولة السنية، فنعم ما فعلتم، ونرجو أن يكون على قدومكم في طرق السداد والرحمة للعباد، فأوصوه بذلك، وادعوا له به فإن رضاء الحق في رضائكم عليه. ونحن والإخوان عليه راضون، وله راعون وبالسيرة الحسنة موضون، جعله الله وارث كمالكم بعد طول الأعمار، وجمع لكم بين عز هذه الدار وتلك الدار... فنوصيكم وأنفسنا بوصية الله سبحانه للنبيين والمرسلين الأولين والاخرين: [النساء: {وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ} [النِّسَاء: ١٣١]، وأن تتخلقوا بمحض الرحمة لعباد الله، قال العلي الشأن: [النحل: {إِنَّ

اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ} [النّحل: ٠٩]، وقال ذو الشمائل الحسنة: «عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة، الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، والجزاء من جنس العمل، وإنما هي أعمالكم ترد عليكم، وكما يدين الفتى يدان، نسأل الله سبحانه لنا ولكم وللمسلمين أن يؤتينا من لدنه رحمة، ويهيأى لنا من أمرنا رشداً، ويحل علينا رضوانه الأكبر الذي لا سخط بعده أبداً، إنه جواد كريم، رؤوف رحيم، وعلى جنابكم السلام وهو الختام».[٢٨٨]

فالباحث يلمس ودًّاً قويًّاً بين ابن السنوسي والوالي، ويستنتج منه رضا الوالي وتأييده لحركة ابن السنوسي، ونجد رسالة أخرى بعث بها ابن السنوسي إلى محمد باشا صالح حاكم بنغازي، يعهد فيها للوالي بمهمة رعاية الزوايا وحمايتها وإصدار الأوامر باحترامها، وذلك قبل سفر ابن السنوسي للحجاز.

وقد جاء في الرسالة: «... فلما حان سفرنا وجب علينا أن نرد الأشياء إلى محلها والأمانات إلى أهلها، وذلك أن هذه الزاوية التي حدثت بمهمة حضرتكم، ومنّة جناب والدكم (هنا بياض في الأصل)... وكل من الزوايا حوله عربان، وعلم جنابكم محيط بأحوالهم، وتعدَّى بعضهم على بعض فضلاً عن غيرهم... وقد سبق

من جنابكم وجناب الأكرم الوالد حمى حرمها وصيانة حرمها.. وإذا تأكد وشاع عن سفرنا ما هو الواقع من انتسابها لجنابكم، وعلم الجميع بذلك بعزيز خطابكم لا يستباح لها حصن، ولا تخفر لها ذمة، وتصير حرماً امناً...»[٢٨٩]

وهذه الرسالة وجهها ابن السنوسي إلى حاكم إقليم فزان، فقال بعد البسملة والديباجة الأولى: «ولدنا مصطفى باشا قائم مقام فزان حالاً، أدام الله بقاءه وزاده عزاً وإجلال.

---

[٢٨٨] المصدر السابق نفسه ص (١٧٩).

[٢٨٩] انظر: السنوسي الكبير، ص (١٤٤)، نابلتان: أي: إيطالية.

وبعد إهداء تحيات عطرة تليق بعزيز الجناب، ورفع أكف الضراعة مستمطراً أكف الإنعام وسوابغ الالاء مدى الدهور والأحقاب، وأنه قد وصل مشرفكم الكريم، وحمدنا الله تعالى على ما أنتم عليه من الفضل الجسيم، وأسفر عن مكارمكم الفائقة... باستنشاق ريا مننكم الرائقة، إنكم للفضل أهل، ولعمل الصالحات مأوى ومحل؛ إذ إن مقاصدكم كلها صالحة، وفضائلكم لدى الخواص والعوام واضحة، وقد أخبرنا ولدنا الشيخ أحمد بن أبي القاسم التواتي عن جميع خيراتكم تفصيلاً.

وتتابع ذلك منكم بكرة وأصيلاً، زادكم الله عزّاً ورفعة، وجعلكم تحت كنفه في عز دائم ومنعة، وأفاض عليكم من نوره الأسنى، وأمدكم من فيوضاته المباركة الحسنى، فأبشر بحول الله وقوته بالعز الأبدي، والفخر الدائم السرمدي، وقد وجهنا ولدنا الشيخ محمد بن الشفيع يذكر عباد الله في تلك الناحية، ويكون مقامه بزاوية (واو) حتى يرجع إليها الشيخ أحمد بن أبي القاسم التواتي؛ لأن مرادنا أن يأتينا من هناك ببعض كتب غير موجودة في خزانتنا، ويرجع إن شاء الله عاجلاً، وها نحن داعون لكم بصالح الدعوات في الخلوات والجلوات وأوقات الإجابات، وعلى الله القبول، وهو المرجو منه والمأمول، وسلام السلام يخصكم، ويعم سائر اللائذين بجنابكم». [٢٩٠]

ومن خلال الرسائل نستنتج أن ابن السنوسي استطاع أن يقيم علاقات متينة مع الولاة العثمانيين، ويبدو أن الحكومة العثمانية قررت أن تكسب ابن السنوسي

لصفِّها، وخصوصاً بعد أن قدم للقبائل خدمات عظيمة في مجال الدعوة، والتعليم، والإرشاد، وعالج ظاهرة خروج القبائل عن الدولة بحكمة نادرة، فكانت القبائل تقبل نصائح ابن السنوسي ويطيعون العثمانيين بناءً على توجيهاته، ولذلك تركت الدولة الدواخل في يد الحركة السنوسية، وبدأت الحركة تتحول إلى إمارة منضوية تحت لواء الخلافة

---

[٢٩٠] انظر: السنوسي، ص (١٣٩، ١٤٠).

العثمانية، وقام ابن السنوسي بإرسال مندوب عن الحركة السنوسية إلى إستانبول، وقام بهذه المهمة الشيخ عبد الرحيم المحبوب شيخ زاوية بنغازي؛ حيث قابل السلطان عبد المجيد، وحصل منه على (فرمان) عام (١٨٥٦ م) يعفي ملاك الزوايا من الضرائب، ويسمح لها بجبي نقود من أتباعها، ونخرج من ذلك كله بأن علاقة ابن السنوسي بالدولة كانت طيبة وحسنة طول إقامته الأولى في برقة، وقد أشار (صادق المؤيد) لهذا الفرمان الذي لم نعثر على صورة له، ثم سافر الشيخ أبو القاسم العيساوي من طرابلس إلى إستانبول، وحصل على (فرمان) اخر من السلطان عبد العزيز يؤكد الفرمان الأول، وأتى به إلى حاكم طرابلس.[٢٩١]

وقد وجد المؤرخ أحمد الدجاني في دار المخطوطات في طرابلس (مرسوم ولائي) من والي طرابلس إلى متصرف الجبل؛ يؤكد على ما تحصَّل عليه أبو القاسم العيساوي من فرمان من إستانبول، وقد جاء فيه بعد التحية: «وبعد فإن الشيخ العالم... السيد الحاج بلقاسم العيساوي دام موقراً مرعيًّا، بيده أوامر من أسلافنا الوزراء العظام، تشعر بكونه أتى بفرمان عالي الشأن في تعظيمه وإجلاله وتوقيره واحترامه، لما تحقق من حسن سيرته، وخلوص طريقته وسريرته وفضله، وسلوكه مسلك أستاذه ذي الهداية والإرشاد، موصل السالكين لإدراك المراد، صاحب المقام الأنور الباهر، والنسب العالي الطاهر والكرامات والأسرار السابقة في جميع الأقطار، عين أعيان الأخبار محمد بن علي السنوسي الخطابي الإدريسي.... كما تشعر بأنه أسس زاوية باسم أستاذه المشار إليه، قاصداً بذلك نشر العلوم وتعليم أولاد المسلمين وظهور طريقة الأستاذ ليعم النفع والإرشاد، كما تشعر بأن يكون من سائر المأمورين ورفع مقامه وزيادة تعظيمه واحترامه، والنظر إليه بعين الكمال والوقار، والإجلال ووقاية الطلبة والمهاجرين بالزاوية المذكورة... وعدم التعدي

على الزوار الوافدين عليها...وإجراؤه هو ووالده وإخوته على ما

[٢٩١] المصدر السابق نفسه، ص (١٤٣، ١٤٤).

هم عليه، وأن لا يقاسون بغيرهم من حيث المطالبة الميرية والأعشار الشرعية، وأن لا يطالب بميري ولا أعشار...»[٢٩٢]

إن ابن السنوسي استطاع أن يصل إلى أهدافه، وأن يوسع نفوذ دعوته، ويكسب معاضدة الدولة العثمانية له، سواءً عن طريق باشواتها في ليبية أو السلاطين العثمانيين في إستانبول، فقد استطاع أن يتحد مع الدولة العثمانية في السعي الدؤوب من أجل تحقيق أهداف الإسلام الكبرى، وقد نظر ابن السنوسي إلى دولة الخلافة، كواقع موجود لا تسمح الظروف بتغييره، بل الصواب العمل على الحفاظ عليه، وعدم الاصطدام به، لذلك جعل علاقته بها طيبة، أما الدولة العثمانية فكانت ترى في الحركة بعض الفوائد استطاعت تحقيقها، كما أن الحكام العثمانيين اقتنعوا أن ابن السنوسي لم يكن يطمع في الخلافة، وقد سئل ملك ليبية السابق محمد إدريس السنوسي رحمه الله: هل كان جده يهدف إلى إقامة دولة إسلامية؟ فأجاب بالنفي؛ وذلك لأن جده ما كان يريد الاصطدام بالدولة العثمانية التي وقفت منه موقفاً طيباً عندما أعفى السلطان عبد المجيد الإخوان من دفع الأموال الأميرية، ولأنه كان يخشى أن يكون حاكماً؛ لأن الحاكم يظلم أحياناً وهو يعلم، وأحياناً دون أن يعلم.[٢٩٣]

إن ابن السنوسي مع قناعته بأحقية القرشي بالخلافة لم يَر إثارة موضوع الخلافة، لأنه رأى أن ذلك من غير المناسب، وليس من مصلحة المسلمين إثارة مثل هذا الخلاف، ولذلك ركز على جوانب الإصلاح الأخرى، فصار هدفه إيجاد مجتمع مسلم يتألف من أفراد فهموا الإسلام، وتربطهم شريعة الله، وذلك حتى يستطيع هذا المجتمع أن يقوم بواجباته نحو الإسلام، من رد الاعتداء، وإقامة شرع الله، ودعوة الناس إلى الإسلام... ولا بد وأن ينتهي الأمر بإصلاح السلطة وحل مسألة الخلافة.

وقد اختار ابن السنوسي طريق التعليم والإرشاد طريقاً لإصلاح

---

[٢٩٢] انظر: السنوسي الكبير، ص(١٤١).

[٢٩٣] انظر: الحركة السنوسية، ص (١٠٥).

المجتمع،[٢٩٤] ولذلك كانت خطواته الحركية والدعوية محسوبة، فلم يصطدم بالدولة، ولا بالعلماء، ولا غيرهم وإنما سعى لتحقيق أهدافه بالوسائل السلمية، وأقام زوايا لتكون بمثابة خلايا حية، تمتد منها الحياة إلى سائر جسم الأمة الإسلامية.[٢٩٥]

إن ابن السنوسي لم يترك فرصة تمر إلا واتخذها لتعزيز مركز دولة الخلافة والأخذ بيدها، وكان يرى أن طرق الإقناع هي خير الوسائل لبلوغ الأهداف السامية، ولم يستعن ابن السنوسي بأي دولة أجنبية، أو تعاون مع أي منها، أو ارتمى في أحضانها، أو قام بتشجيع الثورات التي لا تأتي بفائدة مرجوة للمسلمين.

إن خطواته الدعوية الحكيمة قد أغضبت بعض الخائفين على ملكهم من الحكام والجامدين من العلماء، والمفكرين من دهاة الاستعمار ودعاته، واستطاع ببعد نظره، وحكمته أن يتغلَّب عليهم، وأن يرسم خطوطاً متينة سار عليها أتباعه من بعده.[٢٩٦]

وقد تكلمت جريدة (الماتين الفرنسية) (عام ١٩١٢ م)، عن البعد السياسي عند ابن السنوسي فقالت: «لم يكن مجيء السنوسيين إلى طرابلس وتوطينهم فيها من قبيل المصادفات والاتفاق، فهؤلاء أدركوا من زمن طويل أن الأوروبيين سيستولون على طرابلس الغرب بعد استيلائهم على الجزائر، ومراكش، فأرادوا أن يقعوا وراء ساحل طرابلس كالبنيان المرصوص ليدافعوا عن بيضة الإسلام عندما تطلق أوروبة أساطيلها بسهولة على تلك السواحل».[٢٩٧]

لقد كان ابن السنوسي لا يفرق بين الدين والدولة، بل كان يرى أن الدين والدولة كل لا يتجزأ، ولهذا كانت نظرته إلى الحياة نافذة، استمدها

---

[٢٩٤] انظر: دار المحفوظات طرابلس تاريخ البيورلدي، عام (١٢٨٧ هـ).

[٢٩٥] انظر: الحركة السنوسية، ص (١٦٣).

[٢٩٦] المصدر السابق نفسه، ص (١٦٤).

[٢٩٧] المصدر السابق نفسه، ص (١٠٢).

من دينه الذي يدعو إلى الشمول، ولو كان البعد السياسي غائباً عن ابن السنوسي، لما حاربته حكومة السلطان مولاي سليمان في مراكش، ولما ناصبه العداء حكام الجزائر، ولما أوجس منه حاكم مكة خيفة، ولما تحرَّش به بعض علماء مصر، ولما اهتمت بشأنه دولة الخلافة، ولما فزعت منه دولة الاستعمار رعباً وفي مقدمتها فرنسة، ولو كان كمثل

شيوخ الطرق الصوفية التقليدية لبقي معززاً محترماً، ولعاش عيشة الخنوع والاستسلام.[٢٩٨]

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله: «وكان الشيخ السنوسي بخلاف الغالب على مشايخ الطرق خبيراً بأحوال السياسة العالمية، فوقر في ذهنه أن النابلتان أي: الإيطاليين مغيرون لا محالة على برقة في يوم قريب، فأوغل بمقامه إلى واحة الكفرة على طريق السودان ليشرف من ثم على تعليم أهل الصحراء جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً، ويهيأى في جوف الصحراء ملاذاً لمن تقصيهم غارات المستعمرين على السواحل ومدن الحضارة» .[٢٩٩]

لقد اعتبر الأوروبيون الحركة السنوسية عقبة كأداء في طريق تحقيق أهدافهم الاستعمارية، ولهذا نجد الكاتب الفرنسي دوفريه في غير اعتدال يصاب بحمى الهذيان، فيقول: إن السنوسية خطر عام، خطر على أوروبة، وخطر على الدولة العثمانية، وخطر على شمال إفريقية، وخطر على مصر.[٣٠٠]

أما السياسي الفرنسي المعروف المسيو هانوتو فيقول: «لقد أسس الشيخ السنوسي في جبهة ليست بعيدة عن الأصقاع التي تلي أملاكنا في الجزائر وطرابلس وبنغازي مذهباً خطيراً، له أتباع وأنصار متعددون، ومقر هذا الشيخ بلدة جغبوب الواقعة على مسيرة يومين من الواحة التي كان قائماً بها هيكل البرجيس امون: إلى أن قال: ومن مذهب الشيخ السنوسي وأتباعه التشديد في القواعد الدينية، ولقد لبثوا زمناً طويلاً لا

---

[٢٩٨] انظر: السنوسي الكبير، ص (١٠٨، ١٠٩).

[٢٩٩] المصدر السابق نفسه، ص (١١٦).

[٣٠٠] انظر: السنوسي الكبير، ص (٩٧).

يرتبطون بعلاقة مع الدولة العثمانية، غير أن هذا لم يمنع السنوسيين من مدَّ حبل الدسائس التي أوقفت بعثاتنا عن كل عمل مفيد لفرنسة في إفريقية الجنوبية، ولم يكن الأمر قاصراً على وسط القارة الإفريقية؛ فإنه يوجد بالاستانة نفسها والشام وبلاد اليمن، وكذلك مراكش عصابات خفية ومؤامرات سرية تحيط بنا أطرافها، وتضغط علينا من قرب، ويخشى أن تعرقلنا إذا ما أغمضنا الطرف عنها.[٣٠١]

وقد وصف الفرنسيون أتباع الحركة السنوسية بأنهم أشد صلابة من الحجر الصلد.[٣٠٢]

واستدل العلامة محمد رشيد رضا على صدق الحركة السنوسية بما كانت تقوم به فرنسة من عداوة ومحاربة لهذه الحركة التي أقضَّتْ مضاجعها، ولم تكتم فرنسة رغبتها في القضاء على شيخ السنوسية واستئصال قوته.[٣٠٣]

وقد امتدح محمد رشيد هذه الحركة بقوله: «استطاعت دولة فرنسة إفساد بأس جميع الطرائق المتصوفة في إفريقية، واستمالة شيوخها بالرشوة إلا الطريقة السنوسية».[٣٠٤]

إن البعد السياسي عند ابن السنوسي، يتَّضِح للباحث في حملة التوعية التي قام بها ضد الغزو القادم للأمة من قبل الأوروبيين، وتنظيمه للزوايا، وتعبئة الأنصار؛ بغرس الثقة في دينهم وعقيدتهم، والثقة بقيادتهم، وتأخير الصدام مع الأوروبيين حتى يكتمل البناء.

وتحدث ادمز عن ابن السنوسي وختم كلامه قائلاً: «وعلى أية حال؛ فإن ابن السنوسي كان يتمتع بقدرة تنظيمية غير عادية، وبحسٍّ عملي دقيق للأحداث».[٣٠٥]

---

[٣٠١] انظر: الإسلام في القرن العشرين، ص (١٣٢).

[٣٠٢] انظر: السنوسي الكبير، ص (٤٤).

[٣٠٣] المصدر السابق نفسه.

[٣٠٤] انظر: السيد محمد رشيد رضا، لمحمد أحمد درنيقة، ص (٢٠٢).

[٣٠٥] المصدر السابق نفسه، ص (٢٠٣).

ووصفه ستودار بأنه: «كان رجلاً شديد الهيبة، بعيد الهمة، عظيم الاقتدار على التنظيم والإصلاح».[٣٠٦]

وقال فيه المؤرخ التركي أحمد حلمي: «إن من يمعن النظر في عظمة المقتصد وجلالته، وفي قدرة الوسائط وفقدانها، وجسامة المشكلات التي اقتحمها المؤسس، وقاسها على الجمعيات الأوروبية والشرقية، لا يمكنه إلا أن يقف موقف الدهشة أمام عظمة هذا الرجل وبعد غور دهائه».[٣٠٧]

أما محمد الطيب فيقول في شخصية ابن السنوسي: «أمة قوية لا يتطرق إليها الضعف والوهن، فكان عدواً للجهل وخصماً للاستكانة، وضداً للأفكار العقيمة».[٣٠٨]

أما الزعيم الليبي السياسي الكبير بشير السعداوي، فيقول: «مهما أوتي المؤرخون والكتّاب والشعراء من قوة في البيان وإبداع في البلاغة وهم يتناولون الحقائق عن سيرة السيد السنوسي وأهدافه السامية التي يرمي إليها وقد حقق جزءاً منها، فلا يستطيعون إيفاء المقام حقه، ولن يصلوا إلى معرفة هذا المصلح الإسلامي العظيم، كما ينبغي، وكلما توالت الأيام والسنون، فهي تثبت لنا عظمة السنوسي، ونبل مقاصده السامية التي تصلح من شأن المسلمين».[٣٠٩]

وأما سالم بن عامر فيصف السنوسية فيقول: «هي طريقة أسست على حكمة علمية واجتماعية، وإن أسس هذه الجمعية السنوسية هي الأخوة والتعاون، إلى أن يقول: إن الجمعية السنوسية مع أنها طريقة مخصوصة؛ فهي جمعية سياسية أفكارها ومقاصدها معلومة لدى خواص الإخوان والخلفاء، والمشايخ والزعماء...».[٣١٠]

---

[٣٠٦] المصدر السابق نفسه.

[٣٠٧] انظر: الحركة السنوسية، ص (١٦٥).

[٣٠٨] المصدر السابق نفسه، ص (١٦٦).

[٣٠٩] انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص (١٧٨).

[٣١٠] المصدر السابق نفسه، ص (١٧٧).

الفصل الثالث
أسلوبه الدعوي، وثروته الفكرية، وصفاته الربانية

المبحث الأول
الأسلوب الدعوي عند ابن السنوسي

كان أسلوب ابن السنوسي في الدعوة إلى الله مستمدّاً من كتاب الله وسنة رسوله (ص)، ومن رسالته إلى شيخ زاوية المدينة ابن الشفيع نلاحظ ذلك؛ حيث قال: «... وحسنوا أخلاقكم، ولينوا جانبكم للكبير والصغير، قال تعالى: [البقرة: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً} [البَقَرَة: ٣٨]، وقال جل وعلا: [النحل: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النّحل: ٥٢١]، وقال (ص): «ارفقوا؛ فإن الرفق ما كان في شيء إلا زانه، وإن الحمق ما كان في شيء إلا شانه، وارفعوا همتكم عن الخلق»، وقال (ص): «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد ما في أيدي الناس يحبك الناس»، عليكم بالمناصحة والمذاكرة، وإرشاد عباد الله إليه، والمدارسة والاجتماع، والتحابب والتوادد فيما بينكم، ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخواناً وعلى البر أعواناً». [٣١١]

---

[٣١١] المصدر السابق نفسه، ص (١٨٤).

ولذلك نجد دعاة الحركة السنوسية يتخذون الرفق واللين في دعوتهم منهجاً، وتعلَّموا ذلك من مؤسس الحركة، ونلاحظ ذلك في عدة أمور؛ منها:

أولاً: التعامل مع الطرق الصوفية:

تميز زعماء الحركة السنوسية بالحلم والرفق، ولذلك تجنبوا الاصطدام مع

الطرق الصوفية في ليبية، والحجاز، ومصر، وغيرها، فبدلاً من كسب عدائهم، عملوا على نصحهم والتعاون معهم في أمور الخير، وشيئاً فشيئاً دخل بعض زعماء الطرق الصوفية في ليبية في بوتقة الحركة السنوسية، وبقيت الطريقة الصوفية المدنية تتمتع بنفوذ محدود لدى قسم القبائل البدوية،[٣١٢] وكانت معاملة السنوسية لباقي الطرق فيها رفق وتسماح ونصح، واستطاعت أن تبين لأتباع الطرق الأخرى الأخطاء التي وقعت فيها، كالغناء، وهز وضرب الدفوف، وسارت بمنهجية حكيمة؛ حتى استطاعت أن تهيمن على البوادي، والواحات، والمناطق الداخلية، وأصبح ولاء تلك الأماكن لفكر الحركة السنوسية، وأصبح نشاط الطرق الأخرى محصوراً في المدن، كبنغازي، وطرابلس وغيرها، بعيدة عن الصراع السياسي العالمي، بعكس السنوسية التي استطاعت أن تصبح حركة سياسية مؤثرة، ومن أشهر الطرق الصوفية في ليبية: العروسية، العيساوية، القادرية، المدنية، السعدية، الطيبية، والعزوزية.[٣١٣]

ثانياً: عتق ابن السنوسي للعبيد من الأفارقة:

كان ابن السنوسي يهتم اهتماماً كبيراً بدعوة القبائل الوثنية في إفريقية، فمن وسائله في نشر الإسلام بقلب إفريقية: أنه اشترى مرة قافلة من

---

[٣١٢] المصدر السابق نفسه، ص (١٧٨).

[٣١٣] انظر: جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية، من رسالة (١٢ ربيع ١٢٢٤ هـ).

العبيد، كان المستعمرون قد خطفوهم ليعرضوهم في سوق الرقيق، ولكن ابن السنوسي أعتقهم جميعاً، وأكرمهم، وعلمهم الإسلام، وبث فيهم حبه وتقديره، ثم تركهم ليعودوا إلى قبائلهم وذويهم دعاة يتحدثون عن طغيان المسيحيين وبر المسلمين، فكانوا دعائم مهمة لنشر الإسلام بين أهليهم وقبائلهم،[٣١٤] وكان يشتري العبيد من القبائل التي كانت تغير على القوافل ليعتقهم، وعمل على دعوة القبائل إلى الالتزام بالإسلام، وتخليص العبيد من العبودية، وكان ابن السنوسي يشرف بنفسه على تربيتهم وتعليمهم ثم يرسلهم إلى قبائلهم، ودعوة الزنوج إلى الإسلام، وبفضل الله ثم هذا الأسلوب، أصبحت قبائل «واداي في تشاد يرسلون أبناءهم لتعلم الإسلام في الجغبوب وغيرها من الزوايا السنوسية».[٣١٥]

ثالثاً: التعامل مع القبائل وتوظيفها للدعوة:

اهتم ابن السنوسي في دعوته بزعماء القبائل، واستطاع أن يجعل من بعضهم دعاة إلى الله، كما رأينا في سيرة مرتضى فركاش، وأبو بكر بوحدوث وغيرهما، واهتم بتوصيل الدعوة إلى الأحياء البدوية، ونظم أمر الدعاة المكلفين بهذه المهمة وحرص على أن يضرب أروع الأمثلة في العفة، والاستغناء عما في أيدي الناس من متاع الدنيا، وقام بإرسال الكثيرين من المرشدين والوعاظ إلى مواطن البدو البعيدة، فكان يرسل بعض إخوانه إلى جهات خاصة، ويحدد لهم مادة عملهم، ثم يرسل بمن يخلفهم، ليعود الأوائل لأخذ الراحة.

وكانت إحدى البعثات مؤلفة من السيد مرتضى فركاش، وحسين الغرياني، فقاما بالدعوة إلى الله بين القبائل، ومن شدة فرح البدو بهم أهدوا إليهم هدايا من الإبل والبقر والغنم، ولما أكملوا مدتهم ورجعوا إلى ابن السنوسي، وعلم بما حدث احمرَّ وجهه، وظهرت على وجهه

---

[٣١٤] تاريخ ليبية المعاصر، محمود عامر، ص (٣٢).

[٣١٥] انظر: المجتمع الليبي، ص (٣٢٥).

علامات التأثُّر، وقال لهما: ما جئت لأجمع مالاً ولا لأرغب في الدنيا، ولم أرسلكما لتجمعا لي مالاً، ولكنني جئت لأنشر علماً وديناً، فارجعا بكل ما معكما لتسلمانه إلى أصحابه بالعدد، وقال لدعاته: لا تشقا على أحد، ولا أودُّ أن يتكلف أحد بضيافتكما، فخذا أمتعتكما وكل ما يلزمكما، ولا تتقبلا من الأهالي شيئاً إلا (الزبدة) واللبن (الممخوض).

وقام الشيخان مرتضى فركاش، وحسين الغرياني، بإرجاع الهدايا إلى أصحابها، فكل من يعطيانه ما كان جاد به يتكدر ويتأثر، ويقول: لعل ابن السنوسي رفض قبول ما قدمته لشيء في نفسه عني، فيقنعانه بأن ابن السنوسي تمام رضاه في أن تقبل ما جدت به، وأن ترسل بابنك إلى الزاوية ليتعلم، وأن تحضر معنا دروس الوعظ والإرشاد،[٣١٦] وانتشر بين البدو أن ابن السنوسي أمر دعاته بأن لا يشقا على أحد في إكرامهما، فتحايل البدو في إكرام الدعاة إلى الله، فأسلوب ابن السنوسي لم يقتصر على الزوايا، بل أرسل الدعاة إلى القبائل البعيدة لتعم دعوة الإسلام المباركة كل الناس[٣١٧] واستطاع ابن السنوسي أن يقنع القبائل البدوية بأهمية الدعوة إلى الله،

وخصوصاً تلك التي كانت تتعامل في التجارة مع وثنيي إفريقية لنشر الدعوة هناك، ومن أشهر تلك القبائل التجارية الصحراوية، أولاد سليمان الطوارق، التبو، المجابرة، الزوية.[٣١٨]

رابعاً: ضرب الأمثال عند ابن السنوسي:

استخدم ابن السنوسي وسيلة ضرب الأمثال في أسلوب دعوته، وقد استنتج هذه الوسيلة من القران الكريم والسنة النبوية المطهرة، قال تعالى: [البقرة: {إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا

[٣١٦] انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي، محمود شاكر (٤٣٧).

[٣١٧] انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٣٩).

[٣١٨] انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص (١٦٥).

فَأَمَا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ۞ } [البَقَرَة: ٦٢]، وإن لضرب الأمثال في القران الكريم، والسنة فوائد كثيرة ومنافع جمّة؛ منها:

١- تقرير الحقائق تقريراً واضحاً جليّاً.

٢- تقريب المراد وتفهيم المعنى وإيصاله إلى ذهن السامع.

٣- تشويق السامع وترغيبه إلى الإيمان والخير والحق والمعروف والفضيلة.

٤- تنفير السامع وترهيبه من الكفر والشر والباطل والمنكر.

٥- تذكير السامع ووعظه ليعتبر وينزجر.

٦- تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الاخر، واعتبار أحدهما بالاخر.

٧- تأتي لإثارة الانفعالات المناسبة للمعنى المراد، وظهور ذلك على وجه السامع، ولذا فقد اختير لها لفظ الضرب، لأنه يأتي عند إرادة التأثير وهيجان الانفعال، كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعاً ينفذ تأثيره وأثره إلى قلبه، وينتهي إلى أعماق نفسه.[٣١٩]

ولذلك استخدم ابن السنوسي ضرب الأمثال في الدعوة والإرشاد والوعظ والتذكير التي تؤثر في القلوب والنفوس أثراً بليغاً في قبول الدعوة، وتوصيل

المفاهيم إلى الناس، ومن ذلك حديثه للإخوان أثناء بناء الجغبوب؛ حيث كان يشرف بنفسه على العمل، ويخطط بناء السور على شكل مربع، ثم يخاطب الحاضرين فيقول لهم:

«الطير له عقل أم لا؟ فقالوا: لا، لا عقل له، فقال: هو لا يضع بيضه إلا فوق جبل شامخ حتى لا يلحقه ذئب، ولا ثعلب ولا غيرهما»،

[٣١٩] انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص (١٦٦).

وقال: اليربوع له عقل؟ فقالوا له: لا. فقال: هو يجعل في حجره طريقة: وهي النافقاء، فإذا دخل عليه الحنش الأسود دخل عليها من هنا، وقال: «تلقونها أحسن المحلات إذا أتى الحنش الأسود عليها من هنا. وأشار بأصبعه السبابة من المشرق إلى المغرب».[٣٢٠]

ويلاحظ الباحث أن ابن السنوسي استخدم لغة الحوار والاستجواب، وفي هذا الأسلوب دعوة للتفكير، وتشجيعاً على المناقشة وتعويد الإخوان على العطاء والمشاركة وإبداء الرأي، وإن هذا الأسلوب في الحوار والمناقشة يثير الانتباه لتلقي المعلومات، ويذهب السامة، ويزيل ما يصيب النفس من ملل نتيجة الإلقاء الطويل، ويشوق الذهن وينشط العقل لمواصلة السعي، وبهذا الأسلوب استطاع ابن السنوسي أن يركز على بعض الحقائق لترسيخها في النفوس وتثبيتها في القلوب وتحذير إخوانه من الخطر الداهم على بلادهم، والدعوة للاستعداد لمواجهة هذا الخطر.

لقد أشار إلى مجيء الطليان في قوله: إذا أتى الحنش الأسود عليها من هنا.

خامساً: استخدام القصة عند ابن السنوسي:

إن من طبيعة النفوس البشرية إذا خوطبت تلقائيّاً بكلام نظري مجرد يتبع اخره أوله، فإن جهدها التفكيري يضعف، واستعدادها النفسي يذبل، فلا تعود تعي أو تفهم شيئاً مما يقال لها، ولذلك استخدم ابن السنوسي الأسلوب القصصي في تجسيد الأحداث على شكل أشخاص، يتحرك معها القلب، وتنشط لها الاذان والعقول، فهي تثير الانتباه والحواس لمتابعة أحداث القصة، ماذا سيحدث؟

إن القصة تعتبر من أنجح الأساليب للتقويم والنصح والإرشاد، فأسلوبها له تأثيراته النفسية، وانطباعاته الذهنية، وحججه المنطقية والعقلية في نفوس

---

[٣٢٠] انظر: المجتمع والدولة والاستعمار في ليبية، ص (١٣١).

المدعوين، فهي تستولي على قلوبهم استيلاءً أشبه بالقهر وما هو بالقهر، وأفعل من السحر وما هو بالسحر؛ لما لها من سرعة نفاذ، وقوة تأثير، واستمرار أثر.[٣٢١]

إن الغرض الأكبر من الأسلوب القصصي للدعاة: أخذ العبرة والعظة، قال تعالى: [يوسف: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ۝} [يُوسُف: ١١١]

ولذلك كان ابن السنوسي يكثر من استخدام القصة لتفهيم إخوانه وأتباعه، باعتبارها أسلوباً مهمّاً، ووسيلة تعليمية ناجحة، ومن ذلك قصة حكاها لابنه وإخوانه يبين لهم فيها أهمية القيادة في الجماعة، وضرورة المحافظة على القائد الذي هو بمثابة الرأس من الجسم، والقصة كما قالها محمد المهدي السنوسي: «كنت جالساً مع سيدي رضي الله عنه، وتكلم معه طويلاً في الرحلة مقبلاً لجهة الجنوب ثم حكى لي حكاية بأنه كان كبير قوم، وارتحل هو وقومه من مكان إلى مكان، فبينما هم في أثناء الطريق وإذا بالعدو قد ظهر عليهم، فالتفتوا إلى جميع الجهات ينظرون ملجأ يأوون إليه، فلما لم يروا شيئاً قالوا: لم يبقَ إلا القتال، وكبير القوم معه ولد، فصار الولد كلما رأى العدو اتياً من جهة حوّل أباه إلى وجهة أخرى، فقال له بعض القوم: أنت ما شغلك إلا أبوك، قال لهم: نعم رجل كألف، وألف خفاف كأفٍّ، فقال رضي الله عنه: صدق الولد، متى كان الرأس موجوداً، فالذي يذهب يأتِ الله بمن يكون مثلهُ أو فوقه أو دونه».[٣٢٢]

سادساً: استعماله للشدة في موقف الشدة:

كان الأصل في أسلوب ابن السنوسي استعماله اللين والرفق، ومعاملة الناس بالحسنى والتودد إليهم، وكسب قلوبهم، ولكن في بعض

---

[٣٢١] انظر: الحكمة والموعظة الحسنة، د. أحمد المورعي، ص (٢٧٤).

[٣٢٢] انظر: الحركة السنوسية، ص (١٥٤).

الأحوال والظروف كان يستخدم الشدة لكونها أنسب، وأوقع، وأعمق أثراً، فكان يقدر للأمور قدرها ويعطي كل موقف من اللين والرفق أو الشدة والحزم، قال الشاعر:

فقسا ليزدجروا ومن يك راحماً فليقسُ أحياناً على من يرحم[٣٢٣]

قال بعض المفسرين في قوله تعالى: [البقرة: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً} [البَقَرَة: ٣٨]

إن القول الحسن ليس هو عبارة عن القول الذي يشتهيه المدعو ويوافق هواه ويحبه، بل القول الحسن هو الذي يحصل انتفاعه به؛ سواء حصل عن طريق اللين، والرفق أو الشدة والحزم، وعلى هذا قد تكون الشدة من القول الحسن.[٣٢٤]

لذلك كان ابن السنوسي ضابطاً لأتباعه؛ يحسن توجيههم، ولا يتهاون في معاقبة المنحرف منهم، وقد حكى أحمد الشريف في رحلته عن أحد شيوخ الحركة، واسمه المدني التلمساني، أنه كان مقدم إحدى الزوايا في الصحراء «فثار بها للجهاد في كافر وأمه جاءا سائحين، الكافر يداوي الرجال وأمه كحالته تداوي النساء، فلم يشعرا إلا والمجاهد قد قام عليهما ومعه المعاون سيدي عبد الهادي الفاسي خرجا بسلاحيهما حامل غدرية عربية وبندقية قصيرة، والمعاون متقلداً سيفاً قد أخرج من نصله قدر ثلاثة أصابع لإرهاب العدو، فصادفا حاكم البلاد وهو تركي؛ فقال لهم القائم للجهاد: اليوم يخرج النصراني من البلاد، فقال له: أمهله اليوم وغداً يخرج، فقال للمجاهد: لابد أن يخرج اليوم، فتلطف التركي معه فلم يفد، واشتد الخصام بين القائد التركي وبين الشيخ، وتراشقا بالكلام، وحدثت فتنة عظيمة؛ فلما وصل الخبر إلى ابن السنوسي أرسل إليهما، وعندما وصل المعاون قبل القائم فهجره أياماً، حتى قدم مقدم الزاوية فخاصمهما، وقال لهما:

---

[٣٢٣] انظر: الحكمة والموعظة الحسنة، ص (٢٨٨).

[٣٢٤] انظر: الحركة السنوسية، ص (١٥٤).

أنا أرسلتكما للقراءة والدلالة على الخير أو أرسلتكما حاكمين؟ ولم يرجعا إلى محلهما».[٣٢٥]

فهذه الحادثة تعطي للباحث فكرة عن ضيق أفق مقدم الزاوية، وعن موقف ابن السنوسي من انحرافه، وعن الأسلوب الذي اتبعه في عقابه؛ فهو يهجر المعاون أياماً دلالة على شدة غضبه، ثم يخاصم الاثنين، ويبين لهما انحرافهما عن مهمتهما كدعاة، ويعزلهما عن عملهما، وموقفه الشديد هذا لا يستغرب؛ لأن تصرفهما كان يخالف كلية خطة ابن السنوسي في الدعوة إلى الله بالحكمة وعدم الاحتكاك بالسلطة.[٣٢٦]

سابعاً: من وسائل ابن السنوسي الدعوية:

كانت رسائل ابن السنوسي التي يبعث بها إلى الإخوان أو لغير الإخوان، تتجلى فيها شخصيته الدعوية، ففي رسالة بعث فيها في محرم (١٢٧٦ هـ) إلى شيخ زاوية الطيلمون مصطفى المحجوب، يقول موصياً الإخوان: «والوصية لكم بالوقوف في باب الله بالجد والاجتهاد، ودلالة الخلق إلى سبيل الرشاد، بالقول والعمل، والتخلي عن التواني والكسل، وابذلوا الوسع في حصاد الزرع والدراس، والتحفظ عليه من التشتيت بأيدي الناس، ومثلكم لا يؤكد عليه ولا يحتاج إلى توصية فيما هو بين يديه، جعلك الله دليلاً للسعادة، مراعياً قوله تعالى: [يونس: ٦٢]

فكان ابن السنوسي رحمه الله في هذه الرسالة يحثُّ إخوانه على الجد والاجتهاد، ودعوة الناس إلى سبيل الرشاد، بالقول والعمل، ويدعوهم إلى ترك التواني والكسل، وأن يستعدوا للاخرة، كأن اجالهم تأتي غداً، والعمل للدنيا، كأنما يعيشون أبداً، ولذلك حثهم على حصاد الزرع، والدارس، والتحفظ عليه من التشتيت بأيدي الناس، ويطلب منهم الإحسان في أعمالهم الدنيوية والأخروية.

---

[٣٢٥] انظر: شرح الحماسة للمرزوقي (١١٢١/٢).

[٣٢٦] انظر: مفاتيح الغيب للرازي (١٦٨/٣).

هذه بعض الخطوط العريضة التي تبين لنا أسلوب ابن السنوسي الدعوي.

المبحث الثاني
الجانب الفكري عند ابن السنوسي من خلال كتبه

إن فهم أفكار ابن السنوسي يمكننا الوصول إليها من خلال مؤلفاته التي ضمنها اراءه في عدد من المواضيع، وهذا مهمٌّ لفهم الحركة السنوسية؛ ولم يستطع المؤرخون أن يحصروا عدد الكتب التي ألفها ابن السنوسي، ذلك أن الكثير منها فقد، وطبع بعضها، ولا يزال البعض الاخر كمخطوطات، وحاول الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة إجراء بحث عن (سيرة ابن السنوسي الكبير وفقد المصادر)،[٣٢٧] وقد اختلف مؤرخو الحركة في ذكر الكتب التي ألفها ابن السنوسي؛ فنقولا زيادة يذكر أن السنوسي الكبير كتب تسعة كتب؛ أحدها كان شعراً،[٣٢٨] أما محمد فؤاد شكري، فيذكر أسماء خمسة كتب مطبوعة، وثلاثة لم تطبع،[٣٢٩] وأما الأشهب فيقول: ثمانية كتب طبعت، وتسعة لم تطبع،[٣٣٠] وأما إسماعيل باشا البغدادي في كتابه (هداية العارفين في أسماء المؤلفين واثار المصنفين) نسب لابن السنوسي خمسة وثلاثين مؤلفاً بين كتاب ورسالة ذكر أسماءها،[٣٣١] ولقد ضاعت كتب كثيرة لابن السنوسي نتيجة لاحتلال إيطالية للكفرة، ونتيجة لاحتراق المكتبة في مدينة سلوق.

---

[٣٢٧] انظر: الرحلة، لأحمد الشريف، مخطوط، ص (٢٠).

[٣٢٨] انظر: الحركة السنوسية، ص (١٥٥).

[٣٢٩] المصدر السابق نفسه، ص (١٥٨).

[٣٣٠] نشر البحث في مجلة كلية الاداب في الجامعة الليبية، المجلد الأول، ص (١٨٩).

[٣٣١] انظر: برقة الدولة العربية الثامنة، ص (٧٣).

وعلى أي حال؛ فإن الكتب المطبوعة من مؤلفات ابن السنوسي؛ هي:

١- كتاب المسائل العشر: المسمى: بغية المقاصد في خلاصة الراصد، مطبعة المعاهد بالقاهرة: اخر (١٣٥٣ هـ).

٢- السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين: وهو بهامش الكتاب السابق.

٣- المنهل الروي الرائق في أسانيد العلوم وأصول الطرائق: الطبعة الأولى (١٣٧٣ هـ/ ١٩٥٤ م) مطبعة حجازي القاهرة.

٤- إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقران: الطبعة الأولى (١٣٥٧ هـ/١٩٣٨ م) مطبعة حجازي القاهرة.

٥- الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية: الطبعة الأولى (١٣٤٩ هـ)، مطبعة الشباب بالقاهرة، الطبعة الثانية (١٣٧٣ هـ) مطبعة الشباب بالقاهرة.

٦- رسالة المسلسلات العشرة في الأحاديث النبوية: (١٣٥٧ هـ)، مطبعة الشباب بالقاهرة.

٧- رسالة مقدمة موطأ الإمام مالك: الطبعة الأولى (١٣٧٤ هـ) مطبعة الشباب القاهرة.

٨- شفاء الصدر بأري المسائل العشر:[٣٣٢] (الأري: العسل)، (١٣٦٠ هـ) مطبعة المحمودية.

أما الكتب التي لم تطبع، وورد لها ذكر في الكتب المطبوعة مما يؤكد وجودها فهي:

١- الشموس الشارقة في أسانيد شيوخنا المغاربة والمشارقة:ورد ذكره في (المنهل الروي) ص (٦)، يسميه ابن السنوسي (فهرستنا الكبرى)، وورد ذكره أيضاً في هدية العارفين تحت اسم (الشموس الشارقة في تراجم مشايخي المغاربة والمشارقة).

٢- الدرر السافرة في عوالي الأسانيد الفاخرة: ورد ذكره في (المنهل)

---

[٣٣٢] انظر: السنوسية دين دولة، ص (٤١).

صفحة (٦)، وهو فهرسة صغرى منتخبة من الكبيرة، وورد في هداية العارفين بعنوان (البدور السافرة في اختصار الشموس الشارقة).

٣- الكواكب الدرية في أوائل الكتب الأثرية: ورد ذكره في (المنهل) صفحة (٧). وورد في هداية العارفين بنفس العنوان مجرداً من (أل التعريف).

وهو كتاب يتناول ذكر الكتب التي درسها ابن السنوسي، وأسماء العلماء الذين أخذ عنهم، وقد ذكر مؤلفه أبوابه في كتابه (المنهل) باعتباره سار على نهجه في تأليفه.

٤- سوابغ الأيد بمرويات أبي زيد: ورد ذكره في (المنهل)، وفي هداية العارفين، وموضوعه فهارس المشايخ الذين درس عليهم ابن السنوسي.

٥- رسالة جامعة في أقوال السنن وأفعالها: وهي منظومة توجد كما يقول الأشهب بمكتبة الملك، ولا يرد لها ذكر في (هداية العارفين).

٦- هداية الوسيلة في اتباع صاحب الوسيلة: وهي منظومة وتوجد بمكتبة الملك، وقد وردت في (هداية العارفين).

٧- طواعن الأسنة في طاعني أهل السنة.

٨- رسالة شاملة في مسألتي القبض والتقليد: ويقول الأشهب: إنها موجودة بمكتبة الملك.

٩- رسالة السلوك: موجودة بمكتبة الملك، ووردت في (هداية العارفين) بعنوان: (منظومة السلوك...).

١٠- شذور الذهب في محض محقق النسب: موضوعه تاريخ أسلاف ابن السنوسي.[٣٣٣]

هذه أهم الكتب التي ألفها ابن السنوسي، وقد شملت هذه المؤلفات عدداً من المواضيع، وكان أكثرها يتناول مباحث فقهية وصوفية، وفيها

---

[٣٣٣] انظر: السنوسي الكبير، ص (٨١).

كتاب أو كتابان يتناولان مواضيع تاريخية، ونكتفي باختيار ثلاثة نماذج من تأليفه لنسلط عليها الأضواء، ونأخذ فكرة موجزة عنها:

أولاً: المنهل الروي الرائق في أسانيد العلوم وأصول الطرائق:

إن هذا الكتاب يعطي الباحث فكرة عن العلوم التي درسها ابن السنوسي، والطرق التي تعرف عليها، والعلماء الذين أخذ عنهم في الحالين، ويظهر من عرض الكتاب أن ابن السنوسي كان بحراً في العلوم، وأن دراسته جمعت الجانبين: الفقهي والصوفي،[٣٣٤] وقد بين سبب كتابة هذا الكتاب فقال: «فقد وقع الاجتماع في بعض ما قدر لنا من الرِّحل حال الترحال من محل إلى محل بجماعة وافرة وعصابة فاخرة ذوي علوم زاخرة، وخيم عاطرة، فكم فيها جهابذة نحارير، وأئمة نقد فائق التحارير ما بين مريد السلوك إلى عرفان مالك الملوك، ومريد الأخذ والإجازة رائم التبرك بأسانيد من أجازه، في أقطار واسعة برحابها الشاسعة؛ منهم زمر بنواحي الأعراض وأطراف الجريد، واخرون بطرابلس الغرب، واخرون مراسلون من تونس، وما حواليها من البلاد... واخرون بالمعمور من زوايا برقة القافرة... فحصلت بيننا وبين من أمكن الاجتماع به منهم المؤاخاة الأكيدة، والخلة السديدة، مع تواتر المزاورات ولذيذ المحاورات؛ فتشوقت إذ ذاك أنفسهم الزكية... إلى الأخذ والإجازة بما لها من القوانين المستجازة؛ فطلبوا لذلك من هذا العبد الحقير، البائس الفقير الإجازة والإخبار بجميع مروياته؛ وما وصل إليه من هذا الشأن، من فرسان ذلك الميدان، بل لا أرى نفسي أهلاً لأن يجاز فضلاً عن أن يستجاز، كما قيل:

فلست بأهل أن أُجاز فكيف أن أجيز ولكن الجنون فنون

– ولكنهم لعظيم فضلهم، وعلو مكانتهم، وجزالة قدرهم، وشغوف

---

[٣٣٤] انظر: الحركة السنوسية، ص (١٣١).

استكانتهم، لا يستطاع ردهم ولا يخيب قصدهم، فكان كالمسوغ لذلك الخطب الهائل، لعاري الأهلية ذي الجيل العاطل؛ تمثلاً بما قيل:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام رباح

– إذ ما لا يدرك كله لا يترك قلّه، استرواء بالثمد الضنين عند فقد المعين، ويرحم الله القائل:

لعمر أبيك ما نُسِبَ المعلاّ إلى كرم وفي الدنيا كريم
ولكن البلاد إذا اقشعرّ وصُوّح نبتها رُعي الهشيم

وما أشبه الحال بقول القائل:

إذا غاب ملاح السفينة وارتمت بها الريح يوماً دبرتها الضفادع

– ثم يقول: فاستخرت الله تعالى وأجزتهم بجميع ما يصحُّ لي وعني روايته.[٣٣٥]

إن الكلام السابق الذي ذكرته يدل على تواضع ابن السنوسي، وهضمه لنفسه، وحبه لإخوانه وتلاميذه.

إن ذلك الكتاب فيه اثنا عشر باباً في أشهر الكتب في شتى العلوم، ومقدمة وخاتمة، ويعطينا فكرة واضحة عن العلوم التي درسها، وقد أخذ ابن السنوسي أسانيد كتب الأئمة العشرة عن شيوخه، وهي: موطأ الإمام مالك، ومسانيد الأئمة الثلاثة: مسند الإمام أبي حنيفة، ومسند الإمام الشافعي، ومسند الإمام أحمد، والكتب الستة: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن الترمذي، وسنن النسائي المجتبى، وسنن ابن ماجه.

وفي الباب الثاني ذكر بعض مشاهير السنن؛ وهي عشرة: سنن الإمام الشافعي، وسنن أبي عثمان سعيد بن منصور الروزي البلخي الخراساني، وسنن النسائي الكبرى، وسنن الكشّي، وسنن البيهقي الكبرى والصغرى،

---

[٣٣٥] انظر: السنوسي الكبير، ص (٨١).

وسنن الدارقطني، والسنة للحافظ أبي بكر الضحاك، والسنة للحافظ أبي القاسم هبة الله الطبري، والسنة للإمام أحمد بن حنبل.

وثالث باب منه على بعض مشاهير المسانيد؛ وهي عشرة: مسند أبي داود الطيالسي، ومسند عبد بن حميد، ومسند أبي يعلى الموصلي، ومسند ابن أبي أسامة، ومسند ابن الزبير الحميدي، ومسند الحميدي، ومسند الفردوس، ومسند ابن أبي شيبة.

ورابع باب منه على بعض مشاهير الصحاح الزائدة على الستة أو السبعة أو الثمانية السابقة؛ وهي عشرة: صحيح ابن حبان، وصحيح ابن خزيمة، صحيح الحاكم، وصحيح الإسماعيلي، وصحيح أبي عوانة، وصحيح الدارمي، وصحيح ابن نعيم

المستخرجان على الصحيحين البخاري ومسلم، وصحيح ابن الجارود، وصحيح الضياء المقدسي المسمى بالمختارة.

وخامس باب منه على بعض مشاهير المعاجم؛ وهي عشرة: معاجم الطبراني الثلاثة، ومعجم أبي يعلى الموصلي، ومعجم ابن جميع الغساني، ومعجم ابن قانع البغدادي، ومعجم الإسماعيلي، ومعجم التنوخي، ومعجم الحاكم، ومعجم الصحابة للبغوي.

وسادس باب منه على بعض مشاهير الجوامع؛ وهي عشرة: جامع الأصول لرزين العبدري، جامع الأصول لابن الأثير الجزري، وجامع عبد الرزاق الصنعاني، وجامعا السيوطي الكبير والصغير، وذيله وجامعهما للمتقي المسمى بكنز العمال الجامع للجامع الصغير، والذيل له المسمى بمنهاج العمال، والجامع المسمى بمجمع الزوائد للإمام الهيثمي، والجامع المسمى بجمع الفوائد من جامع الأصول، ومجمع الزوائد لابن سليمان الروداني، والجامع المسمى بكتاب الأصول إلى الأحاديث الزائدة على جامع الأصول.

وسابع باب منه على بعض مشاهير المختصرات؛ وهي عشرة: مختصر جامع الأصول المسمى بتجريد الأصول للبارزي، ومختصر جامع الأصول

أيضاً المسمى بتيسير الوصول للربيع الشيباني الزبيدي، ومختصره أيضاً لمحمد طاهر الصديقي الفُتّني، ومختصر البخاري ومسلم، بالجمع بينهما للحميدي، ومختصر بهما بالجمع بينهما للصاغاني المسمى بمشارق الأنوار، ومختصر البخاري للشرجي، ومختصره للسندي، ومختصرهما، ومختصر مسلم للمنذري، ومختصر مسلم للسلمي، ومختصر أبي داود للمنذري.

وثامن باب منه على بعض مشاهير كتب الأحكام الجامعة؛ وهي عشرة: كتابا الأحكام الكبرى والصغرى لعبد الحق الأشبيلي، وكتاب المنتقى لمجد الدين عبد السلام بن تيمية الحراني، وكتاب الأموال للقاسم بن سلام الأزدي، وكتاب الاثار لمحمد بن الحسين الشيباني، وكتاب بلوغ المرام لابن حجر العسقلاني، وكتاب الأعلام لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، وعمدة الأحكام لعبد الغني المقدسي، والمصابيح للبغوي، ومشكاة المصابيح للخطيب التبريزي.

وتاسع باب منه على بعض مشاهير كتب السير والشمائل؛ وهي عشرة: الشفا للقاضي عياض، الخصائص الكبرى للسيوطي، كتاب الشمائل للترمذي، دلائل النبوة للبيهقي، سيرة ابن هشام، تهذيب سيرة ابن إسحاق، تهذيبهما للسلمي، سيرتا ابن سيد الناس الكبرى والصغرى؛ الاكتفاء للكلاعي، سيرة الحلبي، المواهب اللدنية للقسطلاني.

وعاشر باب منه على بعض مشاهير الأربعينات والأجزاء والمصنفات، فمن الأربعينات: الأربعون للقاضي عبد العزيز ابن جماعة الكناني، والأربعون النووية، والأربعون المكية، والأربعون الباجورية، والأربعون الشحامية، والأربعون الجوزفية، والأربعون الهاشمية، والأربعون المنذرية، والأربعون السلمية ... ومن المصنفات: مصنف أبي بكر بن أبي شيبة، ومصنف عبد الرزاق الصنعاني، ومصنف وكيع بن الجراح، ومصنف حماد بن سلمة الرفعي.

وحادي عشر باب منه على خمسة أنواع، مشتملة على ما يزيد على مئة كتاب...

وثاني عشر باب منه على نحو أربعين تفسيراً؛ وهي على قسمين: القسم الأول في تفاسير السلف مما غالبه مأثور، والثاني في تفاسير الخلف؛ فالأول: كتفسير ابن جريج الذي هو أول ما صنف في التفسير، وتفسير الإمام مالك بن أنس رواية الجعابي، وتفسير السفيانين الثوري وابن عيينة، وتفسير الإمام أحمد، وتفسير ابن أبي شيبة، وتفسير وابن جرير الطبري، وتفسير ابن راهويه، وتفسير ابن مردويه، وتفسير عبد بن حميد، وتفسير وكيع، وتفسير أبي العالية، وتفسير مجاهد، وتفسير الضحاك، وأضرابهم؛ والقسم الثاني: كتفسير ابن عطية، والقرطبي، والبغوي، والثعالبي، وتفسير الواحدي الثلاثة، والكشاف للزمخشري، ومختصر الكواشي، وتفسير الديريني، والبيضاوي، والنسفي، وأبي الليث السمرقندي، والبكري، والقشيري، والحاتمي، والغزالي، والحداد، والغزنوبي، وأبي حيان البحر والنهر، والجلالين، والدر المنثور للسيوطي، وابن جُزَيّ، والثعالبي، وأبي السعود وأضرابهم.[٣٣٦]

إن ابن السنوسي رحمه الله تعالى اجتهد في طلب العلم، وشد الرحال إلى

العلماء، وقد ذكر في كتابه: المنهل الروي الرائق، أسماء العلماء والشيوخ، والفقهاء الذين أخذ عنهم، ولازمهم، ولقد كان على يقين راسخ أن الدعوة إلى الإصلاح والنهوض بالأمة تحتاج إلى العلم الرباني، الذي هو ركن من أركان الحكمة، ولذلك حرص على الوصول إليه، وطرق أسبابه؛ والتي من أهمها:

١- أن يسأل العبد ربه العلم النافع، ويستعين به تعالى، ويفتقر إليه، وقد أمر الله نبيه محمداً (ص) بسؤاله أن يزيده علماً إلى علمه،[٣٣٧] فقال تعالى: [طه: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه: ١١٤]

٢- ومنها: الاجتهاد في طلب العلم، والشوق إليه، والرغبة الصادقة فيه ابتغاء مرضاة الله تعالى، وبذل جميع الأسباب في طلب علم الكتاب

---

[٣٣٦] انظر: السنوسي الكبير، ص (٨٣).

[٣٣٧] انظر: الحركة السنوسية، ص (١٣٩).

والسنة،[٣٣٨] وما أروع ما قال الشافعي:

أخي لن تنال العلم إلا بستة سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاء، وحرص، واجتهاد، وبُلْغَةٍ وصحبة أستاذٍ وطول زمان[٣٣٩]

٣- ومنها: اجتناب جميع المعاصي بتقوى الله تعالى؛ فإن ذلك من أعظم الوسائل إلى حصول العلم.

قال تعالى: [الأنفال: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً} [الأنفَال: ٢٩]

٤- منها: عدم الكبر والحياء عن طلب العلم، قال مجاهد: «لا يتعلم العلم مستحٍ ولا مستكبر».[٣٤٠]

٥- ومنها، بل أعظمها ولُبُّها: الإخلاص في طلب العلم، قال (ص): «من تعلم علماً مما يُبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»[٣٤١] يعني: ريحها.

٦- العلم بالعمل:[٣٤٢] لأن العلم لا يكون ركناً من أركان الحكمة ودعائمها إلا بالعمل، والإخلاص، والمتابعة.[٣٤٣]

هذه بعض الأسباب التي اتخذها ابن السنوسي حتى وصل إلى ما وصل إليه، وكان عظيم الاحترام للعلماء، ويرى أنه لا وصول إلى العلم النافع بعد توفيق الله إلا من خلالهم، وما أجمل ما قاله السخاوي: «من دخل في العلم وحده خرج وحده» أي: من دخل في طلب العلم بلا شيخ خرج منه بلا علم.[٣٤٤]

[٣٣٨] انظر: المنهل الروي الرائق، ص (٦، ٧).
[٣٣٩] انظر: المنهل الرائق، ص (٨، ١٢).
[٣٤٠] انظر: تفسير الإمام البغوي (٢٣٣/٣).
[٣٤١] انظر: تفسير السعدي (١٩٤/٥).
[٣٤٢] انظر: ديوان الشافعي، ص (١١٦).
[٣٤٣] انظر: البخاري مع الفتح، كتاب العلم، باب الحياء في العلم (٢٢٨/١).
[٣٤٤] انظر: أبو داود، باب في طلب العلم لغير الله (٣٢٣/٢).

ثانياً: الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية:

وهذا الكتاب ألفه ابن السنوسي في التاريخ، ويتحدث عن ملوك الأدارسة الذين حكموا المغرب والدول التي أقاموها، وفي مقدمته يتحدَّث عن فضل علم التاريخ، فنقل ما قاله المقريزي: «لا خفاء أن معرفة علم التاريخ المشتمل على علم الأنساب من الأمور المطلوبة، والمعارف المندوبة، لما يترتب عليه من الأحكام الشرعية والمعارف الدينية...»[٣٤٥] وذكر أن من الصحابة كان أبو بكر رضي الله عنه نسابة قريش، ومن أعلم الصحابة في معرفة القبائل وأصولها، وفروعها.

وتحدث عمن ألف في علم التاريخ. وذكر منهم: عبيد القاسم بن سلام، والبيهقي، وابن عبد البر، وابن حزم وغيرهم، ثم قال: وذلك دليل شرفه ورفعه قدره.[٣٤٦]

وهذا الكتاب يحتوي على مقدمة وست دول: الدولة الأولى: الفاسية وما في أيالتها، الدولة الثانية: التلمسانية وما في نواحيها، الدولة الثالثة: الغمارية وما في حكمها، الدولة الرابعة: السبتية، وما في حكمها، الدولة الخامسة: الأندلسية وما في حكمها، الدولة السادسة: الصحراوية وما في حكمها.[٣٤٧]

ثم أشار إلى المراجع التي تعين الطالب على الإلمام بهذه الدول فقال: «وسترى لك واحدة بياناً شافياً على ما عند صاحب القرطاس والمغرب، وما في العبر لابن خلدون التونسي، وما في سلاسل الفصول لابن خلدون التلمساني، وما في عمدة الطالب لابن عنبة».[٣٤٨]

قام ابن السنوسي في هذا الكتاب بسرد أخبار هذه الدول، وتطرق إلى تاريخ الفتح في المغرب، وإلى مجيء إدريس الأكبر إليه، ثم ختم كتابه

---

[٣٤٥] انظر: الحكمة في الدعوة إلى الله، سعيد القحطاني، ص (٥٣).

[٣٤٦] المصدر السابق نفسه.

[٣٤٧] انظر: كتب في الساحة الإسلامية، عائض القرني، ص (٩).

[٣٤٨] انظر: الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية، ص (٥).

بذكر أسماء حكام المسلمين من عهد الراشدين،[٣٤٩] وذكر خامسهم الحسن بن علي رضي الله عنهم، ثم أثبت ذكر خلفاء بني أمية جميعاً، حتى إذا فرغ من ذلك أتبعهم بخلفاء بني العباس،[٣٥٠] ونلاحظ في مقدمة الكتاب اعتقاد ابن السنوسي بوجوب كون الأئمة من قريش، وكان أسلوبه في كتابة هذا الكتاب على منوال أساليب مؤرخي المسلمين عامة، وهو فيه يقوم بالسرد دون التحليل والتعليل، ومادة الكتاب تدل على غزارة اطلاع ابن السنوسي[٣٥١] وتذوقه للشعر؛ حيث نجد مقتطفات جميلة من الأشعار، كقول إدريس بن إدريس لنفسه:

لو مال صبري بصبر الناس كلهم لكَلَّ في روعتي وظل في جزعي
بات الأحبة واستبدلت بعدهم همّاً مقيماً وسلماً غير مجتمع
كأنني حين يجري الهم ذكرهم على ضميري مجبول على الفزع
تأوي الهموم إذا حركت ذكرهم إلى جوارح جسم دائم الجزع[٣٥٢]

- وكقول أبي محجن الثقفي الذي تمثل به أبو المهاجر دينار قبل استشهاده مع عقبة:

كفى حزناً أن تطعن الخيل بالقنا وأترك مشدوداً عليَّ وثاقيا
إذا قمت عناني الحديد وأغلقت مصارع أبواب تصم المناديا[٣٥٣]

وكقول الإمام ابن غازي:

وفتح الغرب لسوس الأقصى موسى وطارق بما لا يحصى
وجاءنا إدريس عام قعب وبنيت فاس في عام قضب[٣٥٤]

---

[٣٤٩] المصدر السابق نفسه، ص (٧).

[٣٥٠] انظر: الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية، ص (٩).

[٣٥١] المصدر السابق نفسه.

[٣٥٢] انظر: الحركة السنوسية، ص (١٤٠).

[٣٥٣] انظر: السنوسية دين ودولة، ص (٤٢).

[٣٥٤] انظر: الحركة السنوسية، ص (١٤١).

– وكقول الحسين بن علي رضي الله عنهما:

وإن تكن الدنيا تعد نفيسة   فإن ثواب الله أعلى وأنبل
وإن تكن الأرزاق قسماً مقدراً   فقلة حزم المرء في الكسب أجمل
وإن تكن الأموال للترك جمعها   فما بال متروك به المرء يبخل[٣٥٥]

– وكقول الفقيه أبي عبد الله المغيسي في وصف فاس متشوقاً إليها، حين ولي القضاء بمدينة أزمور، حيث قال:

يا فاس حيَّا الله أرضك من ثرى   وسقاك من صَوْبِ الغمام المسْبِلِ
يا جنة الدنيا التي أربت على   حمص لمنظرها البهي الأجمل
غرف على غرف ويجري تحتها   ماء ألذ من الرحيق السلسل
وحدائق من سندس قد زُخْرِفَتْ   بجداول كالأيم أو كالفيصل
وبجامع القروي شرف ذكره   أنسي بذكراه بهيج مؤمل
وبصحنه زمن المصيف محاسن   فوق العش الغرب منه استقبل[٣٥٦]

– كما أنه في هذا الكتاب يتعرض لذم المبتدعة، كالرافضة والمعتزلة والجبرية، وقال: ذكر أهل العلم من فضائل المغرب أن الله حماه من فرق المبتدعة، كالمعتزلة، والرافضة، والجبرية،[٣٥٧] كما يعرّض بمذهب محمد بن تومرت عندما تعرض لشيوخه ورحلته في طلب العلم؛ حيث قال: «... وذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الايات، والأحاديث، بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن اتباعهم في التأويل، والأخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف في ترك التأويل، وإقرار المتشابهات كما جاءت، فمنع أهل المغرب من ذلك وحملهم على القول بالتأويل ،

والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد، وأعلن بإمامتهم،

---

[٣٥٥] انظر: الدرر السنية، ص (١٢).

[٣٥٦] المصدر السابق نفسه، ص (٣٠).

[٣٥٧] المصدر السابق نفسه، ص (٤١).

ووجوب تقليدهم، وألَّف العقائد على رأيهم؛ مثل: (المرشدة)[٣٥٨] في التوحيد، وكان من رأيه القول بعصمة الإمام على رأي الإمامية من الشيعة، وألف في ذلك كتابه في الإمامة الذي افتتحه بقوله: (أعز ما يطلب) وصار هذا المفتتح لقباً على ذلك الكتاب...»[٣٥٩]

إن ابن السنوسي في دراسته الطويلة لم يهمل الجانب التاريخي، لقناعته الراسخة بأهمية هذا العلم في تحقيق الفوائد التربوية، وإدراك السنن الربانية، ومعرفة معالم تاريخ الإنسانية، ومعرفة تاريخ الأنبياء، ومعرفة سيرة النبي (ص)، ومعرفة تاريخ الخلفاء الراشدين، وسير العلماء والمجاهدين والدعاة، وأثر الإسلام في حياة البشر، والتعرف على بعض الحقائق في حياة البشر، ككون الإنسان يحتاج إلى التذكير، ولابد من الصَّبْر على المشاق لتحقيق الأهداف النبيلة.

ثالثاً: إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقران:

تحدَّث ابن السنوسي في هذا الكتاب عن وجوب العمل بالحديث والقران الكريم، وقد صنَّفه في مقدمة، ومقصد، وخاتمة، أما المقدمة فقد بيَّن فيها جلالة مقدار الأئمة، فقال: اعلم أنه يجب على المسلمين، بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين، وبالخصوص موالاة العلماء العاملين، الذين حازوا بوراثة الأنبياء كل فخر، وصاروا نجوم هدى يُقتدى بهم في ظلمات البر والبحر، وأجمع العلماء على هدايتهم ودرايتهم، إذ كل أمة بعد بعث محمد (ص) علماؤها شرارها، إلا المسلمين؛ فعلماؤهم خيارهم، فإنهم خلفاء الرسول في أمته، والمحيون لما مات من سنته، بهم قام الكتاب وقاموا به، وبهم نطق وبأسراره نطقوا كل بحسبه، فلا يجوز لأحد أن يعتقد أن أحداً من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عامّاً يتعمّد مخالفة الرسول (ص) في شيء من سنته جل أو

[٣٥٨] انظر الدرر السنية، ص (٧٢).

[٣٥٩] المصدر السابق نفسه، ص (٩٩).

دق؛ كيف وهم محيوها والمتفقون اتفاقاً يقينيًّا على وجوب اتباعها، وأنه يؤخذ من قول كل أحد ويترك إلا قوله (ص).[٣٦٠]

إن ابن السنوسي سار على منهج أهل السنة والجماعة في نظرته إلى علماء الأمة، قال الطحاوي رحمه الله: «وعلماء السلف من السابقين، ومن بعدهم من التابعين، أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر، لا يذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل».

ثم اعتذر للعلماء الذين خالفوا ما صح عن النبي (ص)، وقال: لابد أن لهم عذراً، وجماع الأعذار ثلاثة:

١- عدم اعتقاده أن النبي (ص) قاله.

٢- عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول، ترجع إلى عشرة أسباب؛ هي: عدم بلوغ الحديث، عدم ثبوته، وضعفه بالأسباب المعروفة من فن مصطلح الحديث، أو اشتراط ما لا يشترط غيره، أو عدم الدلالة منه، أو عدم اعتبارها، أو معارضتها، بما يدل على أنها غير مرادة، أو معارضة الحديث بما يدل على ضعفه أو نسخه أو تأويله بما يصلح كونه معارضاً أو بما ليس من جنس المعارض، وشرع ابن السنوسي في ضرب الأمثلة من حياة الرسول (ص)، واجتهادات الصحابة الكرام[٣٦١] ثم تحدَّث عن إمكانية أن يقع العلماء والفقهاء والقضاة، وكذلك أعيان العلماء في الأخطاء المخالفة للسنة، فقال: «... فإنا لا نعتقد عصمة القوم، بل نجوِّز عليهم الذنوب ونرجو لهم مع ذلك أعلى الدرجات؛ لما اختصهم الله به من الأعمال الصالحة والأحوال السنية، وليسوا بأعلى درجة من الصحابة التي كانت بينهم وغيرها، ويؤيد ذلك تحذير سلف الأمة من الصحابة، والتابعين، وتابعيهم ولاسيما الأئمة الأربعة من مخالفة الحديث، وحضهم على

---

[٣٦٠] المصدر السابق نفسه، ص (٩٠).

[٣٦١] لقد ذكرت تفنيد عقائد المرشدة في كتابي: دولة الموحدين، ونقلت ما قاله ابن تيمية في الفتاوى.

وجوب العمل به مع مخالفة رأي كائن من كان».[٣٦٢] واستدل بأقوال بعض الصحابة في هذا المعنى؛ منها:

– عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: تمتع رسول الله (ص)، فقال عروة: نهى أبو بكر وعمر عن المتعة، فقال: أقول: قال رسول الله (ص)، ويقولون: قال أبو بكر وعمر! يوشك أن ينزل عليهم حجارة من السماء، وذكر أقوالاً للصحابة في هذا المعنى، ثم بين أن حافظ المغرب ابن عبد البر وصلها في مؤلفاته

بأسانيد جيدة، حذفها ابن السنوسي من باب الاختصار، وذكر أقوال الأئمة الأربعة، وبيَّن أن قولهم إذا خالفه سنة الرسول، فهو مردود؛ ومن ذلك:

– قيل لأبي حنيفة رضي الله عنه: إذا قلت قولاً وكتاب الله يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لكتاب الله، فقيل: إذا كان خبر رسول الله يخالفه؟ فقال: اتركوا قولي لخبر الرسول، فقيل: إذا كان قول الصحابي يخالفه ؟ قال: اتركوا قولي لقول الصحابي.[٣٦٣]

– قال مالك بن أنس: إنما أنا بشر أخطأى وأصيب، فانظروا في رأيي؛ فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه.[٣٦٤]

– وأما الشافعي فسأله رجل عن مسألة، فقال: يروى عن النبي (ص): أنه قال (كذا وكذا)، فقال له السائل: يا أبا عبد الله! أتقول بهذا؟ فارتعد الشافعي واصفرَّ وحال لونه وقال: ويحك! وأي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا رويت عن رسول الله شيئاً ولم أقل نعم على الرأس والعين، نعم على الرأس والعين، قال: وسمعته يقول: ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة لرسول الله (ص) وتعزب عنه، فمهما قلت من قول أو أصلت

---

[٣٦٢] انظر: الدرر السنية، ص (١١٩).

[٣٦٣] انظر: إيقاظ الوسنان، ص (١٢).

[٣٦٤] إيقاظ الوسنان، ص (١٢ إلى ٢٢).

من أصل وفيه عن رسول الله (ص) خلاف ما قلت؛ فالقول ما قال رسول الله (ص)، وهو قولي.[٣٦٥]

إن ابن السنوسي من خلال بحثه النزيه خرج بنتيجة مفادها: أن ما خالف الكتاب والسنة والإجماع من أقوال المجتهدين وارائهم ليس مذهباً لهم، ويتعين على المتمسكين بمذاهبهم أن يعتنوا بالكتاب والسنة وأقوال العلماء، ليعلموا بذلك ما هو مذهب لإمامهم خلاف ما لهج به المتأخِّرون من فقهاء المذاهب الأربعة؛ من اقتصارهم على المختصرات الخالية من الدليل، وإعراضهم كل الإعراض عن كتب الحديث، وأصول الحديث، والفقه؛ فهم على هذا أجهل الناس بمذاهب أئمتهم.[٣٦٦]

ونقل قولاً للإمام أحمد، قال: قال ناصر السنة الإمام أحمد بن حنبل لأبي داود وقد سأله: أيتبع الأوزاعي أم مالكاً؟ قال: لا تقلد في دينك أحداً من هؤلاء؛ ما جاء عن النبي (ص) وأصحابه فخذ به. وذكر أن الرجل مخير في التابعين، وقد فرق رضي الله عنه بين التقليد والاتباع؛ فقال أبو داود: سمعته يقول: الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي (ص) وأصحابه، ثم هو فيمن بعد من التابعين مخير، وقال لأبي داود: لا تقلدني ولا تقلد مالكاً ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري، وخذ من حيث أخذوا، وقال: من قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال.[٣٦٧]

إن ابن السنوسي في كتابه (إيقاظ الوسنان) حارب التقليد الأعمى والتعصب؛ لأنه رأى أن ذلك من أعظم أسباب التفرق والانحراف عن منهج الله الرباني، ومن أهم العوامل التي أدَّتْ إلى انتشار البدع والأهواء بين الناس، وفشت في أوساطهم، وحالت بينهم وبين سماع الحق والهدى، وتركوا بسببها طريق الكتاب والسنة المطهرة.

---

[٣٦٥] المصدر السابق نفسه، ص (٢٣).

[٣٦٦] إيقاظ الوسنان، ص (٢٣).

[٣٦٧] المصدر السابق نفسه، ص (٢٤).

إن التقليد الأعمى والتعصُّب، يؤديان إلى مهاوي الردى، ويقودان صاحبهما إلى مسالك الغواية والضلال، ويصدان عن اتباع النور والهدى، فتكون نتيجته تخبطاً وانتكاساً في الدنيا، وهلاكاً وخسراناً في الاخرة.[٣٦٨]

لقد انتشر مرض التعصب والتقليد في شعوب الأمة الإسلامية، لاسيما في العصور المتأخرة؛ فأصبح هو الأساس والأصل، ونتج عن تفشيه نتائج وخيمة وأمور جسيمة.[٣٦٩]

لقد حارب ابن السنوسي التقليد والتعصب، ورأى أن تلك الخطوة مهمة للأخذ بأسباب النهوض.

لقد تعرض ابن السنوسي في كتابه (إيقاظ الوسنان) لمن أعمته العصبية عن الحق وزعم: «أن الكتاب والسنة مشتركان بين اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار، إلا واحدة، وهي منحصرة في مقلدي الأربعة».[٣٧٠]

وناقش من قال بذلك القول، وطرح عليه أسئلة؛ منها: ما هو رأيه في من تمسَّك بالكتاب والسنة، من أصحاب القرون المفضلة الثلاثة؟ فإنهم ما قلدوا الأربعة حتى يخرجهم الاستثناء عن الحكم بما قبله، ويرد على أصحاب ذلك الزعم بقوله تعالى: [ال عمران: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا} [آل عِمرَان: ١٠٣]، {وَلاَ} [آل عِمرَان: ١٠٥] [ال عمران: {تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا} [آل عِمرَان: ١٠٥]، [البقرة: {فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ} [البَقَرَة: ٢١٣]

وفسر حبل الله بكتابه، واستدل بأحاديث شريفة، وبيَّن أن الفرقة الناجية ما كانت على ما كان عليه رسول الله (ص) وأصحابه،[٣٧١] وقال:

---

[٣٦٨] المصدر السابق نفسه، ص (٢٥).

[٣٦٩] المصدر السابق نفسه، ص (٢٧).

[٣٧٠] إيقاظ الوسنان، ص (٢٩).

[٣٧١] انظر: تفسير ابن كثير (٢/٢١٣).

فإن من توهَّم أن مذاهب الأئمة الأربعة هي ما كان عليه وأصحابه، كان ملتزماً أن كل ما خالفهم من الصحابة ومن بعدهم، وأصحاب المذاهب المشهورة مخطأى في جميع ما خالفهم فيه، وهم المصيبون في كل خلاف؛ فانظر: هل يستند هذا إلى نقل أو يقبله عقل(١)؟

وردّ على من كفَّر مسلماً بشبهة، وقال: وأعجب من هذا كله التكفير المرتب على الشبهة التي ستراها في عبث[٣٧٢] الحق غثاء دون مبالاة بقول الصادق (ص): «من كفر مسلماً فقد كفر»، وبقوله: «إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر؛ فقد باء بها أحدهما».

وذكر أقوال العلماء فقال: قال الرافعي في العزيز نقلاً عن التتمة: فإنه إذا قال لمسلم: يا كافر؛ بلا تأويل كفر؛ لأنه سمى الإسلام كفراً، ومثله للنووي في الروضة نقلاً عن المتولي، واعتمد ذلك المتأخرون كابن الرفعة، والقمولي، والنثيائي، والإسنوي، والأذرعي، وأبي زرعة، وصاحب الأنوار، وشارح الأنوار وغيرهم؛ جزموا به من غير عذر، ولم ينفرد المتولي بذلك، بل سبقه إليه ووافقه عليه جمع من الأصحاب؛ منهم: الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني، والحليمي، والشيخ نصر المقدسي، والغزالي، وابن دقيق العيد، بل قضية كلام هؤلاء أنه لا فرق بين أن يؤول أو لا، كما تدل عليه عباراتهم التي ذكرها عنهم العلامة ابن حجر في الأعلام؛ وقال فيه ما نصه:

ووقع في الحديث روايات لابأس بالإشارة إليها؛ فقد روى مسلم: «إذا كفَّر المسلم أخاه فقد باء بها أحدهما»، وفي رواية له: «أيما رجل قال لأخيه: يا كافر؛ فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال، وإلا رجعت عليه»، وفي رواية أيضاً: «ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر، ومن دعا رجلاً بالكفر، أو قال: عدو الله، وليس كذلك إلا حار عليه»، وفي رواية أبي عوانة: «فإن كان كما قال، وإلا باء بالكفر»، وفي رواية: «إذا قال لأخيه: يا كافر، فقد وجب الكفر على أحدهما»، ومعنى:

---

[٣٧٢] انظر: فقه التمكين في القران الكريم، لعلي محمد الصلابي، ص (٢٥١).

كفّر الرجل أخاه: وصفه بالكفر، ونسبه إليه في خبر؛ كرأيت كافراً، أو نداء؛ كيا كافر، أو اعتقاده الكفر فيه، كاعتقاد الخوارج كفر المؤمنين بالذنوب، وليس من ذلك تكفير جماعة من أهل الأهواء لما قام عندهم من الدليل على ذلك، ومعنى باء بها أحدهما: رجع بكلمة الكفر. انتهى من الأعلام بإيجاز.

وذكر فيها وجوهاً في تأويل الحديث إلى أن قال: الثالث: أنه محمول على الخوارج المكفرين للمؤمنين، وهذا نقله القاضي عياض وهو ضعيف؛ لأن المذهب الصحيح المختار الذي قاله الأكثرون، والمحققون: أن الخوارج لا يكفّرون كسائر أهل البدع.

وفي الدرة البهية في جواب سؤال عمن كفّر مسلماً بنحو هذا ما نصه، مع تغيير يسير في اللفظ: لم يدرِ هذا القائل مقدار ما قال، ولم يتنبه لما يلزمه في هذا الضلال من الوبال، وقد ورد: «إذا قال الشخص للشخص: يا كافر؛ فقد باء بها أحدهما». ثم تعجب منه كيف يتجرَّأ على تكفير المسلمين بما ذكر، فكأنه يريد قصر الإسلام على نفسه، وأنه ليس لمحمد (ص) أمة ناجية غيره وغير من وافقه على ما قال، وليته اعتبر بقوله تعالى: [النساء: {وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً} [النِّسَاء: ٩٤]، وقد تحرزت الأمة قديماً وحديثاً من تكفير المسلم، وحذروا من المبادرة فيه مهما أمكن، فقال حجة الإسلام الغزالي: الذي ينبغي أن يميل إليه المحصل الاحتراز من التكفير مهما وجد إليه سبيلاً؛ فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول: لا إله إلا الله خطأ، والخطأ في ترك الكافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم.

وقد قيل لمالك: أيكفر أهل الأهواء؟ فقال: هم من الكفر فروا، وقد سئل تقي الدين السبكي رحمه الله: عن حكم تكفير غلاة المبتدعين، فقال: اعلم أيها السائل

أن كل من خاف من الله عز وجل استعظم القول بالتكفير لمن يقول:

لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ إذ التكفير أمر هائل عظيم الخطر؛ لأن من كفّر شخصاً، فكأنه أخبر أن عاقبته في الآخرة الخلود في النار أبد الابدين، وأنه في الدنيا مباح الدم والمال، ولا يمكن من نكاح مسلمة، ولا تجري عليه أحكام المسلمين لا في حياته ولا بعد مماته، والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم امرأى مسلم؛ وفي الحديث: «لأن يخطأى الإمام في العفو، أحب إلى الله من أن يخطأى في العقوبة»، فما بقي الحكم بالتكفير إلا لمن صرح بالكفر واختاره ديناً وجحد الشهادة، وخرج من دين الإسلام جملة.[٣٧٣]

وذكر ابن السنوسي حكاية لطيفة تدل على أبعاد عميقة لفهم قضية التكفير؛ وهي: أن شخصاً بمصر وقع في عبارة موهمة للتكفير، فأفتى علماء مصر بتكفيره، فلما أرادوا قتله، قال السلطان: هل بقي أحد من العلماء لم يحضر؟ قالوا: نعم (الشيخ جلال الدين المحلِّي شارح المنهاج)، فأرسل إليه السلطان، فحضر فوجد الرجل في الحديد بين يدي السلطان، فقال الشيخ: ماذا هذا؟ فقالوا: كفر؛ فقال: ما مستند من أفتى بتكفيره، فبادر الشيخ صالح البلقيني، وقال: قد أفتى والدي شيخ الإسلام الشيخ سراج الدين في مثل ذلك بالتكفير؛ فقال: يا ولدي أتريد أن تقتل مسلماً موحداً يحب الله ورسوله لفتوى أبيك! حلوا عنه الحديد؛ فجردوه وأخذ الشيخ جلال الدين بيده وخرج والسلطان ينظر؛ فما تجرَّأ أحد يتكلم(١).

ثم بعد ذلك دخل ابن السنوسي في الباب الأول، وتحدث فيه على وجوب التمسك بالكتاب والسنة، وبيَّن أن دلالة الكتاب والسنة واحدة، وذكر أدلة وجوب اتباعهما وتقديمهما على رأي كل مجتهد، وتحدث عن عمل الأصوليين، والمحدثين، والفقهاء بالحديث، وطريقة كل قوم، أما في الباب الثاني: فبين حقيقة الاجتهاد وأنواعه، وفيما يشترط في المجتهد من الشروط الوصفية والإيقاعية، ووضح حرمة الاجتهاد مع النص في كل ما عمَّ وخص، وردَّ زعم من قال بانقطاع الاجتهاد، وذكر

---

[٣٧٣] انظر: إيقاظ الوسنان، ص (٣١).

الأدلة الشرعية التي تذم التقليد المذموم، وفنّد دعوة القائلين في انحصار التقليد للأئمة الأربعة.

إن دعوة ابن السنوسي لفتح باب الاجتهاد للقادرين عليه، ومحاربة التقليد المذموم، تعني: أنه بذلك حارب أسباب الفرقة الداخلية، كالجهل، واتباع الهوى، والابتداع، فالجهل من أعظم أسباب الوقوع في المحرمات جميعها من كفر وفسوق وعصيان، ومن أعظم الجهل القول على الله بغير علم، وقد جعله الله عز وجل أعلى مراتب المحرمات، وأعلى درجة من الإشراك به سبحانه، قال تعالى: [الأعراف: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ۝} [الأعرَاف: ٣٣]

إن ابن السنوسي دعا الناس، بأن يأخذوا الحق ويبحثوا عنه من مصدره الصحيح، كتاب الله وسنة رسوله (ص)، وبين في كتابه النفيس (إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقران)، أنّ أي حكم لم يقم عليه دليل ولا برهان من وحي الله؛ فإنه باطل مرفوض، وعلاج مرض الجهل بالدواء الناجع؛ ألا وهو العلم بكتاب الله وسنة رسوله (ص)، إن من أخطر الأمور أن يكون على مقدمة الحركات الإسلامية، قيادة تجهل كتاب الله، وسنة رسول الله (ص)، ولا تعطي للعلماء أي وزن أو اهتمام، بل تعمل على تهميشهم والنيل منهم، وتجعل من عقولها وأهوائها مصادر للاجتهادات الحركية، والفكرية، والسلوكية، ومن المعلوم: أن ما سوى الشرع موزون وليس بميزان، ومحكوم وليس بحاكم.[٣٧٤]

إن كتاب ابن السنوسي (إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقران) يدل الباحث على تأثره بالمنهج السلفي، ويظهر فيه تأثره بأفكار ابن تيمية الذي نادى قبله بستة قرون بالتمسك بالكتاب والسنة، وحارب التقليد الأعمى والتعصب المذهبي، ويبدو أن اطلاعه على كتب ابن تيمية، كان في زمن إقامته في الحجاز، كما تعرّف على ارائه من خلال

---

[٣٧٤] إيقاظ الوسنان، ص (٣٢).

احتكاكه بدعاة السلفية، من تلاميذ الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذين تبنوا كتب ابن تيمية وابن القيم، وكتب أهل السنة والجماعة عموماً، ولو قارن الباحث بين كتاب رفع الملام عن الأئمة الأعلام لابن تيمية، وإيقاظ الوسنان لوجد تأثر الثاني بالأول ظاهر العيان.

إن ابن السنوسي لم يكتفِ في دعوته لفتح باب الاجتهاد ومحاربة التقليد بالقول،

ولكنه قرن قوله بالعمل، حيث خالف مذهبه المالكي في عدة مسائل؛ منها: رفع اليدين في الصلاة، حكم القبض، حكم السكتات الثلاث، حكم الاستعاذة، حكم البسملة للفاتحة والسور، حكم التأمين، حكم التكبير لقيام الثالثة، حكم السلام، والخروج من الصلاة، حكم القنوت، ورفع اليدين فيه حال الدعاء، حكم تطويل الصلاة، وتقصيرها المشروعين،[٣٧٥] والمتطلع على كتابه (المسائل العشر) يرى قوته في إقامة الحجة على ما ذهب إليه؛ من خلال أحاديث الرسول (ص) وأقوال العلماء، ويذكر أدلته التي خالف فيها المذهب المالكي.

لقد نال ابن السنوسي رضا علماء المسلمين بسبب اجتهاده في الدين وعدم تقييده بمذهب من المذاهب، حيث جعل رائده العمل بالكتاب والسنة، ولم يقدم عليهما أقوال العلماء والفقهاء، وبسبب دعوته المخلصة التي أثرت في قبائل ليبية، والصحراء الكبرى وإفريقية، والتي أصبحت فيما بعد كتائب للجهاد في سبيل الله تعالى.[٣٧٦]

إن كتاب (إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقران) يوضح لنا معالم سلفية سنية في منهج الحركة السنوسية.

كانت خاتمة كتاب (إيقاظ الوسنان) في سنن أهل الله وسبيل عملهم؛ فبين فيها مجموعة من الأصول والقواعد في علم التصوف؛ منها:

---

[٣٧٥] ربما في ميزان الحق.

[٣٧٦] انظر: إيقاظ الوسنان، ص (٣٧).

* إن حكم أهل السلوك في هذا حكم المحدثين في العقائد والفروع، وهي عقيدة السلف.[٣٧٧]

* الطرق كلها مسدودة إلا على من اقتفى أثر الرسول (ص)[٣٧٨]، ونسب هذا القول للجنيد، وقال أيضاً: علمنا مقيد بالكتاب والسنة؛ فمن لم يستمع الحديث ويجالس الفقهاء ويأخذ أدبه من المتأدبين أفسد من يتبعه.

وقال سهل بن عبد الله التستري: بنيت أصولنا على ستة أشياء: كتاب الله، وسنة

رسوله، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الاثام، وأداء الحقوق.[٣٧٩]

وقال أبو عثمان الجبري: من أَمَّرَ السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أَمَّرَ الهوى نطق بالبدعة(١).

وقال أبو العباس بن عطاء الله: من ألزم نفسه اداب السنة؛ نوَّر الله قلبه بنور المعرفة.[٣٨٠]

ثم بين ابن السنوسي أنه لا مقام أشرف من متابعة الحبيب (ص) في الأفعال والأقوال والأوامر والأخلاق(٢).

وبين خطورة الهوى، واستدل بقول ابن عطاء في حكمه: لا يخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك، وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك(٢).

وقال أيضاً: «تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال»، وقال بعضهم: «نحت الجبال بالأظافر أيسر من زوال الهوى إذا تمكن»(٢)،

---

[٣٧٧] انظر: فقه التمكين، ص (٢٤٥).

[٣٧٨] انظر: المسائل العشر، ص (٥ إلى ٧٤).

[٣٧٩] انظر: السيد محمد رشيد رضا، محمد درنيقة، ص (٢٠٣).

[٣٨٠] انظر: إيقاظ الوسنان، ص (١٢٨).

قال تعالى: [الجاثية: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ} [الجَاثِيَة: ٣٢]

وبين ابن السنوسي: أن كل طريق لم يمشِ فيه الشارع (ص) فهو ظلام، ولا يكون أحد ممن يمشي فيه على يقين من السلامة، وعدم العطب؛ لأنه (ص) هو الإمام وهو النور، والمأموم إذا خرج عن اتباع إمامه وتعدّى ما حده له مشى في الظلام بقدر بعده عن شعاع نور إمامه، ولهذا تجد كلام أئمة المذاهب كلهم نوراً صرْفاً لا إشكال فيه؛ لقربهم من رسول الله (ص)، بخلاف غيرهم، ولهذا المعنى أشار (ص) بقوله: «رحم الله امرأً سمع مقالتي فوعاها، فأداها كما سمعها»، يعني: حرفاً بحرف من غير زيادة على ما شرعته، أو نقص عنه، فسّر (ص) بأن الابتداع هو الزيادة على التشريع.[٣٨١]

لقد كان التصوف عند ابن السنوسي وسيلة لتربية النفس وتزكيتها، والسمو بها نحو المعالي، وكان تصوفه له مقياس دقيق (كتاب الله، وسنة رسوله (ص))، فاهتم ابن السنوسي بالعلم الرباني، وتربية النفس، وهذا يظهر من خلال دراسة كتابه

(إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقران)، وقد ختم ذلك الكتاب بهذه العبارات الجميلة: «والله الهادي إلى الصواب، لا رب غيره، لا خير إلا خيره، عليه توكلت وإليه أنبت، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى اله وأصحابه الذين نالوا ذرى المجد بصحبته، وبلغوا كمال الكرم والشرف برؤيته، نسأل الله عز وجل أن يحشرنا في وفدهم إليه، وأن ينيلنا مما أعده لهم لديه، إنه كريم رحيم، حليم عظيم».[٣٨٢]

من خلال ما سبق نرى أن ابن السنوسي كان جريئاً في طرح أفكاره التي كانت على جانب كبير من الأهمية بالقياس إلى عصره الذي تجمَّد فيه الفكر، وتأخَّر فيه العلم، وابتعد الناس عن كتاب الله وسنة رسوله

[٣٨١] المصدر السابق نفسه، ص (١٣٠).

[٣٨٢] المصدر السابق نفسه.

(ص)، وكانت دعوته للتمسك بالكتاب والسنة مبنية على علم غزير، وحجج دامغة، وبراهين ساطعة، وكان متأدِّباً غاية التأدب مع العلماء، فهو لا ينكر فضل الأئمة، ولكنه يأبى الوقوف عند حدود ما قالوه ما دام بالإمكان الرجوع إلى النبع، والاطلاع على أحاديث قد لا يكونون وصلوا إليها، وما دام بالإمكان التفكير والاستنباط مع ملاحظة تغير الظروف.[٣٨٣]

كان ابن السنوسي المؤرخ يمتاز بغزارة معلوماته، ويعتز بتاريخ أجداده، ويؤمن بضرورة حصر الإمامة في قريش، ومع هذا ساند الدولة العثمانية حرصاً على وحدة الأمة، ودحر أعدائها، وكان أسلوبه في كتابة التاريخ على نمط مؤرخي المسلمين، ويقتصر على سرد الحوادث.

كان ابن السنوسي فقيهاً متصوفاً، اهتم بالعلوم الفقهية، وغاص في معرفة حقائق النفوس البشرية، واستنبط منهجاً تربويّاً لعلاج الأمراض النفسية، والرقي بها نحو الكمالات الإنسانية، مسترشداً بكتاب الله وسنة خير البرية.

المبحث الثالث
من أهم صفات ابن السنوسي

إن ابن السنوسي في سيرته العطرة اتصف بصفات الدعاة الربانيين، من الصدق، والإخلاص، والدعوة إلى الله على بصيرة، والصبر، والرحمة، والعفو، والعزيمة، والتواضع، والإرادة القوية التي تشمل قوة العزيمة، والهمة العالية، والنظام، والدقة، والزهد، والورع، والاستقامة... إلخ، ونحاول في هذا المبحث أن نركز على بعض الصفات التي تميزت بها شخصيته الرائدة.

---

[٣٨٣] المصدر السابق نفسه، ص (١٣١).

أولاً: الحلم:

إن الحلم ركن من أركان الحكمة، وقد وصف الله نفسه بصفة الحلم في عدة مواضع من القران الكريم، كقوله تعالى: {وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [آل عِمرَان: ٥٥١].

وقد بلغ (ص) في حلمه، وعفوه الغاية المثالية، ولكن ابن السنوسي شديد الاقتداء في كل أحواله وأقواله وأفعاله برسول الله (ص)، وكانت له مواقف كثيرة تدل على حلمه، وضبطه لنفسه منها: ما ذكره أحمد الشريف في رحلته رحمه الله تعالى: أن رجلاً من الطريقة الدرقاوية، أساء الأدب مع ابن السنوسي أثناء نزوله بسيوة، وقال لابن السنوسي: نحن نكسر رؤوس الرجال، فسمع بذلك أصحاب السنوسي وأرادوا أذيته (يعني: الرجل)، فقال لهم الأستاذ: اتركوه عنكم، واختفى الرجل خوفاً من الإخوان.[٣٨٤]

ثانياً: العفو والصفح عند المقدرة:

ومن الصفات التي ظهرت في شخصية ابن السنوسي: حبه للعفو والصفح، فعندما نشب خلاف حول أملاكه مع بني عمه في الجزائر، وطالب أبناء عمه بحقوقه، فامتنعوا، ورفع عليهم قضية وكسبها، ولم يدفع أولاد عمه المستحقات التي له، وقامت الحكومة بسجنهم، تنازل عن طلبه،[٣٨٥] وعندما ناصبه العداء بعض العلماء تعصباً واندفاعاً وجموداً، واتهموه بالكفر، والمروق عن الإسلام، فقال ابن السنوسي، عمن تولى الهجوم عليه: عفى الله عن الشيخ عليش سامحه الله.[٣٨٦]

---

[٣٨٤] إيقاظ الوسنان، ص (١٣٢، ١٣٣).

[٣٨٥] المصدر السابق نفسه، ص (١٣٩).

[٣٨٦] انظر: الحركة السنوسية، ص(١٥١).

ثالثاً: زهده:

كان ابن السنوسي زاهداً في الدنيا، راغباً في الاخرة، حريصاً على دعوة الناس للحق، ولم يحرص على جميع الأموال وحطام الدنيا الفاني، وله أشعار تدل على زهده، وعلى حقيقة نفسه المنصرفة إلى الله، المقبلة إلى صفاء الروح، الزاهدة في لذائذ الدنيا ومتعها، وذلك إذ يقول:

ألا إنما الدنيا غضارة أيكة ... إذا اخضر منها جانب جف جانب
هي الدار ما الامال إلا فجائع ... علينا ولا اللذات إلا العطائب
وما لذة الأولاد والمال والمنى ... لدينا ولا امال إلا المصائب
فلا تكتحل عيناك يوماً بعبرة ... على ذاهب منه فإنك ذاهب

- ومن أشعاره في التعبير عن زهده في الدنيا:

وهبني علمت الكيمياء ونلتها ... وأتقنتها صبغاً وأتقنتها صنعا
ولخصت تسيير الكواكب كلها ... ببحثي وتدقيقي ونلت بها مسعى
وملكت أموال البرايا بأسرها ... وجالت يدي في أصفهان إلى صنعا
أليس مصيري بعد ذلك كله ... إلى تحت هذا الترب في حالة شنعا
فقل للذي يمسي ويصبح همه ... لغير رضا الرحمن: يا خيبة المسعى[٣٨٧]

رابعاً: تواضعه:

ومن الصفات البارزة في شخصية ابن السنوسي صفة التواضع، فعندما دخل مكة، كان يسقي الناس ماء زمزم، واتخذها حرفة، وصار ملازماً لها فترة من الوقت، قربة إلى الله[٣٨٨]، وقد ذكر ابن علي في فوائده الجلية: أن ابن السنوسي كان ناذراً لله تعالى وقف نفسه على خدمة الكعبة المشرفة، تقرباً إلى الله تعالى وتواضعاً، ومجاهدة لنفسه، وكان عازماً على المضي، غير أن الله تعالى رفع قدره وهيأه لما هو أعم

[٣٨٧] انظر: الحركة السنوسية، ص (١٥٥، ١٥٦).
[٣٨٨] المصدر السابق نفسه، ص (٥٨).

وأنفع، ومن تواضع لله رفعه الله،[٣٨٩] وقام بالوفاء بنذره واشترك في خدمة الحرم بقدر ما يسره الله له.[٣٩٠]

لقد كان ابن السنوسي غاية في التواضع، وفي رسالة من رسائله إلى أحد إخوانه تظهر هذه الصفة جلية؛ حيث يقول: «والذي أوصي به نفسي وإخواني هو تقوى الله، وصية الله في الذين خلوا من قبل [النساء: ١٣١]؛ باتباع {وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ} [النِّسَاء: ١٣١]، واجتناب نواهيه، والوقوف عند حدوده بإعمار الظواهر بالمجاهدات، وإعمار البواطن بالمشاهدات، ...»[٣٩١]

فنلاحظ أن ابن السنوسي قرن نفسه بإخوانه مما يدل على تواضعه، وجعل نفسه كأي واحد منهم، ومقامه منهم أوضح من الشمس في رابعة النهار.

خامساً: العفة والترفع عما في أيدي الناس:

من الصفات البارزة في شخصية ابن السنوسي: العفة والترفع عما في أيدي الغير؛ فعندما حجَّت إلى مكة والدة عباس باشا حفيد محمد علي باشا حاكم مصر، وسمعت بتقوى ابن السنوسي، وولايته، ذهبت لزيارته في الزاوية فلم تجده، وجدت الشيخ عبد الله التواتي، فسألته: أنت الشيخ؟ فأجابها بالنفي، وأخبرها أن الشيخ في الطائف؛ فقصدت الطائف وطلبت مقابلته بإلحاح؛ فقابلها على مضض؛ فحدثته عن ابنها عباس وكيف يضطهده عمه إبراهيم باشا، وكيف أنها تخشى عليه

من عمه؛ ثم سألته أن يدعو لابنها، فدعا له بالتوفيق؛ فرغبت هي أن تقدم لابن السنوسي هدية، فمدت له صرة مملوءة ذهباً فرفضها؛ فلما ألحت أخبرها أنه لا يأخذ شيئاً، وأن بإمكانها أن تعرض الصرة على

---

[٣٨٩] انظر: السنوسي الكبير، ص (٢٦).

[٣٩٠] انظر: دراسات وصور، للحاجري، ص (٣٠٣).

[٣٩١] انظر: السنوسي الكبير، ص (١١).

التواتي في زاوية أبي قبيس؛ فعادت إلى مكة وقدمتها للتواتي؛ فرفضها حيث وصلته تعليمات من شيخه بالرفض، ولما ألحت طلب منها أن توزعها على الفقراء؛ لأن أتباع الزاوية ليسوا بحاجة، وعندما عادت إلى مصر توفي محمد علي وإبراهيم في سنة واحدة؛ فخلا كرسي الولاية واحتله ولدها.[٣٩٢]

وقد ربى ابن السنوسي أتباعه على العفة والترفع عمّا في أيدي الناس، وقد ذكرت قصة مرتضى فركاش وحسين الغرياني مع البدو الذين أهدوا إليهم إبلاً وبقراً وغنماً، وكيف ردها ابن السنوسي وبين لهم: أن مهمة بعثاتنا تنحصر في تلقين قواعد الدين، والتعريف به، لا لأن تقبل الهدايا والهبات والتبرعات، وطلب منهم أن لا يرهقوا البدو حتى بتكاليف الضيف، وكان يزود الدعاة بجميع ما يلزمهم،[٣٩٣] وكان يحث إخوانه من العلماء والشيوخ والدعاة، أن يتعلقوا بالله وحده؛ حيث يقول: «... وورد: من أحب شيئاً كان له عبداً، تعس عبد الدينار، وتعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميلة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، وفي الحِكَم: ما أحببت شيئاً إلا وكنت له عبداً، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبداً، وإياك أن تطلب على عملك جزاء اجلاً أو عاجلاً، فيكون دري يقينك في الله افلاً، أو تشهد أن لك في ذلك العمل أثراً، فتشرك بخالق القوى والقدر، فإن الإخلاص له مراتب، فرتبة إخلاص العوام عدم طلب الثناء والسمعة، ورتبة إخلاص الخواص عدم طلب الجزاء الاجل أو المقامات المرتفعة، ورتبة إخلاص خواص الخواص التبري من الحول والقوة، ...»[٣٩٤]

لقد كان ابن السنوسي يحذر من الانكسار في حب الدرهم والدينار، وكان يريد من إخوانه أن يتجردوا في أعمالهم ويجعلوها لله وحده.

---

[٣٩٢] انظر: الفوائد الجليلة (١/٢٠).

[٣٩٣] المصدر السابق نفسه (١/٢١).

[٣٩٤] انظر: السنوسي الكبير، ص (٩١).

سادساً: قوة الحجة، والقدرة على الإقناع والمناظرة:

عندما وجه علي عشقر والي طرابلس اتهاماته لابن السنوسي، استطاع ابن السنوسي أن يبدد جميع الاتهامات، وطلب من الوالي العثماني أن يجمعه مع العلماء في طرابلس، وتألف مجلس الوالي من كبار العلماء؛ منهم: أحمد المقرحي، وكان من أبرز العلماء وأقربهم مكانة عند الوالي العثماني، والشيخ القزيري البنغازي، وأخذ أعضاء المجلس العلمي يناقشون ابن السنوسي، وجاء رده حاسماً، وشاملاً، بل ومحرجاً لبعض العلماء، فأيقنوا أنهم أمام محيط من العلوم الراسخة، والحجج الدامغة، والبراهين الساطعة، ومن ذلك الحين انضم الشيخ أحمد المقرحي، والشيخ علي القزيري إلى الإخوان وتجردوا لخدمة الحركة السنوسية، وانضم أيضاً الوالي علي عشقر وأصبح من أتباع الطريقة السنوسية.[٣٩٥]

وكان من أساليبه في الإقناع: ضرب الأمثلة العلمية الحية، وكان ذات مرة في مجلسه بمكة يحف به بعض الزوار، فدخل شخص أجنبي له مظهره الملفت للنظر، وحيا الحاضرين ثم وجه سؤالاً علميًّا معقداً إلى ابن السنوسي، كأنه يريد منه التعجيز، وكان ابن السنوسي مشغولاً بعمل باشره، وطلب السائل سرعة الجواب بصورة لفتت نظر الحاضرين، ففهم ابن السنوسي السائل وطمأنه بسرعة الإجابة، واستدعى تلميذه عبد الله التواتي وكان يقوم بنصيبه في العمل، وكان يومها يقوم بـ (عجن الطين) أثناء القيام بعملية بناء زاوية مكة، وكان يرتدي لباس العمال، ولما استدعاه ابن السنوسي جاء مسرعاً بملابس العمل، وقد علق الطين الذي كان يقوم بعجنه في رجليه وهندامه، فقال له ابن السنوسي: أجب سائلنا هذا عن سؤاله، كذا وكذا، واسترسل عبد الله في الإجابة الشاملة من ذاكرته، ولم يترك ثغرة في السؤال، وجاء بمختلف الأقوال في المسألة، ثم ردها إلى حقيقتها، فتعجب الناس، وتحير السائل ثم اقتنع وقال: لا يصح أن يكون مثل هذا الرجل الفاضل عاملاً وبهذه الصورة، فمن حقه

---

[٣٩٥] انظر: الحركة السنوسية، ص (٩٧).

أن يتصدر المجالس، فأجابه ابن السنوسي بقوله: إن جماعتنا كلهم على هذا الغرار، ومن لم يصل منهم إلى هذا المستوى، فهو في طريقه إليه، وهذا العمل الذي تعيبه عليهم لم يكن معيباً لهم أو لينقص من شأنهم

وقيمتهم، إنهم يعملون كما يأمر الإسلام لرفعة شأن المسلمين، وإننا نعدهم لمجد الإسلام، ولرفعة شأنه، فاعتذر السائل على ما ظهر منه.[٣٩٦]

سابعاً: شعوره بالمسؤولية:

كان ابن السنوسي يستشعر مسؤوليته وواجبه المنوط به نحو عباد الله، والأمانة التي تحملها لهدايتهم وإرشادهم، فكان ذلك دافعاً له للقيام بواجبه وأداء رسالته، وكانت هذه الصفة واضحة في شخصيته، وكان يستشعر بأنه مأمور واجب الدعوة إلى الله، وفي خطواته التي سار عليها، وشعوره بهذه الصفة، جعلته لا يعرف المستحيل، وكان لا يأمر بأمر إلا وقد نفذه على نفسه وأحب الناس إليه، وأقربهم منه،[٣٩٧] وكان يقول لإخوانه: ليس هناك على همة العاملين ما يسمونه مستحيلاً إذا ما أخلصوا في عملهم وصدقت عزيمتهم، واتخذوا من القران الكريم دليلاً، وعرفوا معانيه وتدبروها كما يجب أن يتدبروها.[٣٩٨]

ثامناً: حليته:

كان أزهر اللون، مدور الوجه، أقنى الأنف، خفيف العارضين واللحية، أشقر الشعر معتدل القامة، رقيق الحاجبين أزجهما، واسع الثغر، فصيح اللسان، جهوري الصوت مع رقة فيه، واسع العينين وفي

---

[٣٩٦] انظر: السنوسي الكبير، ص (٨٧).

[٣٩٧] المصدر السابق نفسه، ص (٨٩).

[٣٩٨] انظر: السنوسي الكبير، ص (١٠٤).

إحداهما انكسار لا يكاد يظهر، طويل العنق، عريض الصدر والمنكبين، من راه مرة هابه، وإذا خالطه وكلمه ألفه وأحبه.[٣٩٩]

تاسعاً: هوايته:

كان يهوى اقتناء الخيل، ويحسن ركوبها، إلى درجة عالية من المهارة، وكان يستطيع التقاط بعض الشيء من الأرض من على ظهر الجواد في أثناء عدوه، كما كان يستطيع الوقوف على رجليه، وعلى رأسه على ظهر الجواد أثناء عدوه، ويستطيع إصابة ما يريده من المرمى، وكان يشجع أتباعه وإخوانه على تعلم الفروسية، ويقول لهم: إن ذلك من صميم السنّة.[٤٠٠]

وفاته:

كان ابن السنوسي يشعر بالمرض منذ مدة، وكان يصارعه بالصبر، وقوة العزيمة، فلم يركن للراحة، ويخضع لوطأة المرض، وشرع في إتمام ما عزم على إقامته، وحاول أن يتغلب على المتاعب والأمراض وكان يمهد الأمور لتولي ابنه محمد المهدي أمر زعامة الحركة السنوسية، ونجح في ذلك، وأقنع الإخوان، وزعماء القبائل بذلك، واشتد عليه المرض في شهر شعبان (١٢٧٥ هـ) حتى صار يغيب عن إحساسه، وكان يقول: «أهل الله حملونا شيئاً كثيراً لو نزل على الجبال الراسيات لما أطاقته»،[٤٠١] ثم ارتفع بعد ذلك المرض منتصف محرم عام ستة وسبعين، ثم تزايد عليه الألم، والأسقام، وصار يغيب أحياناً، ويفيق أحياناً إلى أن دعاه مولاه يوم الأربعاء من صفر الخير بعد طلوع الشمس،[٤٠٢] وهكذا انتقل إلى جوار ربه.

---

[٣٩٩] المصدر السابق نفسه، ص (٩٨، ٩٩).

[٤٠٠] انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص (١٨٠).

[٤٠١] انظر: السنوسي الكبير، ص (١١٧).

[٤٠٢] انظر: الفوائد الجليلة (٨٩/١).

وقبل الدفن اجتمع الإخوان في المسجد يوم الخميس، وقام فيهم عمران بن بركة خطيباً، فألقى كلمة قال فيها: «... حمداً لمن قضى على جميع العباد بالموت، وسدد سهمه للإصابة في جميع الوقت، فلا حيف عن سلوك سبيله ولا مناص، ولا محيد عن الوقوع في شَرَكِهِ ولا خلاص، فلم ينج منه أمير ولا وزير، ولا غني ولا فقير، ولا شريف ولا وضيع، ولا دنيء ولا رفيع، حكم بذلك على سائر رسله وأنبيائه، وأهل حضرته من أصفيائه وأوليائه، وعلى الموت نفسه بعد إبقاء المقادير بالموت؛ فلا محيص عنه ولا فوت، وجعله منة يفتدى بها من أسرار الأكدار، وجُنة يتقى بها من سهام الاغترار، ...»[٤٠٣]

وبعد أن دفن ابن السنوسي رحمه الله، تولى أمر الحركة ابنه من بعده (محمد المهدي)، فقام بإرسال خبر وفاة ابن السنوسي إلى شيوخ الزوايا في مختلف الأقطار، وكان فيها: «... إنه من عبد ربه سبحانه محمد المهدي بن السيد محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسن الإدريسي إلى الأجلاء والأبرار الأصفياء

الأخيار: أخينا السيد محمد بن إبراهيم الغماري، وأخينا إسماعيل بن رمضان، وأخينا وهبة، وكافة إخواننا أهل مكة سلمهم الله امين، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته ومرضاته، وبعد: فقد وصلتنا كتبكم التي أرسلت باسم الوالد رحمه الله تعالى، وسقى ثراه، وأكرم نزله ومثواه، وكنا قبل هذا أرسلنا إليكم كتبنا، وأخبرناكم فيها بما قدره الله وقضاه، وأبرمه في أزله وأمضاه، ونسأله تعالى أن يجعلنا من عباده الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنَّا لله وإنا إليه راجعون.

واستطرد محمد المهدي في رسالته إلى أن قال: كونوا على ما كنتم عليه من الدلالة على الله تعالى بالحال وبالمقال، وصابروا ورابطوا، وتواصوا بالصبر، واذكروا عباد الله فيه، وجاهدوا في الله حق

---

[٤٠٣] المصدر السابق نفسه.

جهاده، وكونوا يداً واحدة على من سواكم، وفي الله إخواناً، وعلى البر والتقوى أعواناً، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، وسلموا منا على كافة الإخوان والمحبين من أهل مكة والمعابد والوادي والطائف وغيرهم». [٤٠٤]

وقد رثاه الشعراء، وهذه قصيدة عبد الرحيم المحبوب يبكي فيها ابن السنوسي حيث يقول:

ما بال عينك لا بالنوم تكتحل	ودمعها لا يزال اليوم ينهمل
كأنها سُمِلَتْ بالشوك أو كحلت	من الغضى بشواظ كاد يشتعل
تخالُها مزنة قد لاح بارقها	فأخْضَلَ الأرضَ منها صيّبٌ هَطِلُ
والوجه أسفع والأعضاء ناحلة	والقلب في شرك الأحزان مختبل
والجنب إذ تدعه حال لمضطجع	كان الوطاءُ له السّعْدانُ والأَسَلُ
تئن في لجج الأحلاك من نكد	منه ترى راحة أن يحضر الأجل
أمن تذكر أوزارٍ رسفت لها	أو زار بالطيف من تهوى ولم يصل
أم ذا لفقد حبيب كنت تألفه	وازورَّ دهرُك أم قد خانك الأمل؟
يا لهف نفسي على ما كان مسكنهم	قلبي وهم إن مضوا سفر به مهل
كانوا الغياث لملهوف ومنتجعاً	للمجدبين إذا ما مسهم محل
شدوا الرحال ولم يستأذنوا أحداً	وظل شوقاً لهم يبكيهم الطلل
تبكيهم السنة الغراء من عصر	ما أن بمثلهم قد مسها ثكل
يبكيهم ما حوى (كشف الظنون) وما	يروي (الجوامع) مع ما ساره المثل
مع ما روى (حجة الإسلام) من حِكَم	وأعلن الشيخ من رمز له قفل
من (للصحاح) (وشمس العلم) بعدهمو	أو (للشفاء) و(للقاموس) يحتفل
من (للجلالين) و(الكشاف) ينقذه	و(البحر) و(النهر) و(الأنوار) ينتخل؟
من (للعلوم) على أقصى تنوعها	من (للحلوم) إذا أشفت بها العلل؟
من (للمكارم) و(الاثار) يؤثرها	عن الجدود الأُلى سارت بهم مثل؟

[٤٠٤] انظر: الحركة السنوسية، ص (١٢٤).

والغور والنجد من أرض الحجاز وما ضاهى (قبيساً) بها من فقدهم عطل[٤٠٥] إلى أن قال:

فالصبر أولى وعند الله محتسب أن المصائب إن تعظم لها بدل
توارت الشمس عن عين الحسود بها أو ذاك رفق ببدر ناله الخجل
وذاك عام شروع الخطب قلت إذاً ما بال عيناك لا بالنوم تكتحل[٤٠٦]

– وهذه قصيدة ألقاها شاعر ليبية أحمد رفيق المهدوي عام (١٩٥٦م) بمناسبة مرور مئة عام على وفاة ابن السنوسي:

خلدوا ذكرى أمام المصلحين سيد المجتهدين العارفين
الإمام، ابن السنوسي، الذي فاق صنف العلماء العاملين
عبقري قد تسامى للعلا بجلال العلم والدين المتين
وبإصلاح ترى اثاره لم تزل تُهْدَى على مر السنين
نشر الدين بعزم صارم وجهاد كجهاد المرسلين
وهدى قوماً على غير هدى بين جهل وضلال عائشين
في صحارى يلفح القيظ بها كشواظ النار فيها الساكنين
وبلاد في غمار مطبق بظلام البؤس، والغيم المشين
عمها ديناً ودنيا فغدا أهلها من علماء المسلمين!
وبنى فيها (زوايا) أصبحت منهلاً عذباً لورد الظامئين
ومنارات تشع العلم من قابس عن نور رب العالمين
بالتاليف التي من فيضها (سلسبيل) (المنهل) الصافي المعين
و(شفاء الصدر) من رَيْنِ الهوى و(بإيقاظ لوسنان) مهين
وشروح لعلوم وَضَّحَتْ ما عصى من مشكلات الأولين
بينت ما جاءنا عن جده من علوم، وأحاديث، ودين
هذه اثاره من علمه كلها تدعو إلى الحق اليقين[٤٠٧]

---

[٤٠٥] المصدر السابق نفسه.

[٤٠٦] المصدر السابق نفسه.

[٤٠٧] انظر: السنوسي الكبير، ص (١٣٨).

– هذا ما استطعت جمعه وتلخيصه عن ابن السنوسي رحمه الله تعالى، وما أردت بالكتابة عن حياته إلا إحياء سير المصلحين، والدعاة العاملين، والعلماء الراسخين، لتعلم الأجيال الصاعدة أن لها تاريخاً عريقاً ضارباً في أعماق الزمن يزخر بأمجاد الإسلام، وأن ابن السنوسي ممن واصلوا نهج الصحابة والتابعين في الدعوة إلى الله، وأن سيرته ليست عنا ببعيدة، لعل هذه الصفحات المشرقة تصل إلى قلوب دعاة الإسلام في ليبية، وفي الأمة، فيقتبسوا من سيرته ما يحثهم على مواصلة السير للدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله، وما أردت بذلك إلا وجه الله تعالى هو حسبي عليه توكلت وإليه أنبت.

انتهيت من هذه الترجمة في العشر الأواخر من شهر رمضان، فاستبشرت بذلك خيراً، وتذكرت رؤيا رأيتها عندما كنت في المعتقل السياسي بطرابلس الغرب عام (١٩٨٣ م)؛ حيث رأيت ابن السنوسي في منامي وقدم لي كأساً مملوءة بالحليب فشربته، فإني أحمد الله على أن وفقني لكتابة هذا الكتاب، والفضل لله وحده من قبل ومن بعد، وأختم هذا الكتاب بهذه الأبيات التي سليت بها نفسي، عندما حذرني بعض الإخوة من نشر ما يتعلق بأمجاد السنوسية، لأن ذلك يثير أعداءهم ضدي، وأنت لا حول لك ولا قوة، فأجبتهم: ما أردت بكتابي إلا نصرة الإسلام، وقلت لهم بأن هذه الأمجاد ليست خاصة بالسنوسية، بل هي لكل مسلم، وتلوت قول الله تعالى: [يوسف: {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يُوسُف: ٤٦]

أما الأبيات فهي:

لا تَطْلُبَنْ من غير ربك حاجة ... إن كنت بالرحمن ذا إيمان
ومن الذي يستبدل الضعفاء والـ ... فقراء والبخلاء بالرحمن
أو يشتري الظلمات بالأنوار أو ... يرضى يعود بأخسر الخسران
فَوِّضْ إلى المعبود أمرَك كله ... وافزع إلى المولى بغير توانِ

واقرع إذا نام الأنام وغلقوا ... أبوابهم لا بالنوال الهاني
باب الذي بسط اليدين بليله ... ونهاره لتدارك العصيان
ويداه مبسوطان للإحسان ما ... قبضت يد خوفاً من النقصان
باب الذي إن لم تسله فَضْلَهُ ... يغضب فكيف يَرُدُّ بالحرمان
باب المجيب إذا دعاه مرتج ... لاجٍ إليه ما له من ثاني
باب الذي يغنيك عن زيد وعن ... عمرو وعن ثان وعن أعوان
باب الذي لا خير إلا عنده ... بيديه كل منى وكل أمان
باب الذي يُرْجَى لكل ملمَّةٍ ... لعظائم الالام والحَدَثَانِ
الحي قيوم الخلائق كلها ... الواسع الرُّحْمَى عظيم الشان

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك

الخلاصة

١- أصيبت الدولة العثمانية في القرنين الماضيين بداء الأمم؛ كالحسد، والبغضاء، واستبداد الملوك، وخيانة الأمراء، وغِشّهم للأمة، وإخلاد الشعب إلى الراحة والدعة، وكان شر ما أصيبت به الدولة الجمود في العلم، وفي صناعة الحرب، وفي تنظيم الجيوش.

٢- كانت الأحزاب العلمانية، والجمعيات السرية، والعصبيات القومية تنخر في كيان الدولة، فظهرت الدعوة إلى القومية الطورانية، والعربية، والكردية.... وبدأت الثورات تتفجر في البلدان، والحركات الانفصالية تتكاثر، والدول الأوروبية تدعمها وتستعد لتقسيم تركة الرجل المريض..

٣- أصبحت الأمة تعاني من الاثار التي ترتبت عن ابتعادها عن شرع الله، وأصيبت الناحية الاجتماعية بتفشي الجهل، والمظالم بين الناس، وصراع الأمراء والولاة على حطام الدنيا الزائل، وأصبحت الأمة في ليل حالك، وظلام دامس.

٤- جمد المسلمون في علوم دينهم؛ فليس لديهم إلا ترديد بعض الكتب الفقهية، والنحوية، والصرفية ونحوها، وجمدوا على فقه المذاهب، وجل همّهم التعمق في الحواشي، وحفظ المتون، دون القدرة على الاجتهاد.

٥- أصبح لكل مذهب من المذاهب الفقهية مفتٍ وإمامٍ، وتعددت

الجماعات في المسجد الواحد، كل ينتصر لمذهبه، وكل يصلي خلف إمام مذهبه، وبذلك يقف المسلمون لصلاة الجماعة وراء أكثر من إمام حسب المذاهب المتواجدة في ذلك المسجد.

٦- انتشر التصوُّف المنحرف في أرجاء البلاد الإسلامية، شرقها وغربها، عربيها

وعجميها، وضاع مفهوم العبادة الصحيح، ومفهوم الولاء والبراء، وانحرفت الأمة عن كتاب ربها وسنة رسولها (ص).

٧- بدأت الدول الأوروبية تستقطع من العالم الإسلامي بلداناً كلما أتيحت لها الفرصة.

٨- اهتز العالم الإسلامي لاحتلال الصليبيين لأجزاء من الوطن الإسلامي اهتزازاً عنيفاً، كما تأثر باحتكاكه بالغرب، واطلاعه على تقدمه، من هذا التحدي نبعت حركات الإصلاح.

٩- تتابعت حركات الإصلاح في العالم الإسلامي منذ النصف الثاني للقرن الثامن عشر، بتأثير عوامل عديدة؛ منها: إحساس بعض العلماء الربانيين بسوء الأوضاع في العالم الإسلامي واحتلال أجزاء منه.

١٠- قامت حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد، وكان الدافع لها إحساس مؤسسها بانحطاط المسلمين، وتأخرهم.

١١- تعد حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب البداية الحقيقية لما حدث في العالم الإسلامي من يقظة جاءت بعد سبات طويل، وما تمخض عنها من صحوة مباركة، ورجعة إلى الدين.

١٢- ظهر الإمام محمد بن علي السنوسي بدعوته الإسلامية بعد وفاة محمد بن عبد الوهاب بعشرات السنين.

١٣- ولد الإمام محمد بن علي السنوسي عام (١٢٠٢ هـ)، صبيحة يوم الإثنين الموافق الثاني عشر من ربيع الأول عند طلوع الفجر، ولذلك سماه والده محمداً تيمناً باسم النبي (ص).

١٤- بعد وفاة والده تولت عمته فاطمة تربيته وتنشئته تنشئة صالحة، وكانت من فضليات أهل زمانها، ومتبحرة في العلوم، ومنقطعة للتدريس والوعظ.

١٥- بعد وفاة عمته عام (١٢٠٩ هـ) بسبب الطاعون تولى تربيته ابن عمه الشيخ محمد السنوسي، الذي تولاه بعد وفاة عمته، وأتم على ابن عمه حفظ القران الكريم برواياته السبع مع علم رسم الخط للمصحف، والضبط، وقرأ عليه الرسالات

الاتية: مورد الظمان، المصابيح، العقيلية، الندى، الجزرية، الهداية المرضية في القراءة المكية، حرز الأماني للشاطبي.

١٦- بعد وفاة ابن عمه (١٢١٩ هـ) جلس للأخذ من علماء مستغانم لمدة سنتين كاملتين، ثم توجه إلى بلدة مازونة، ومكث بها عاماً، ثم رحل إلى مدينة تلمسان، وأقام بها ما يقارب السنة، وتتلمذ على كبار شيوخها.

١٧- كان تفكيره في حال الأمة مبكراً، واجتهد في البحث عن العلل والأسباب التي أدت إلى التدهور والضعف المخيف في كيان الأمة، وذكر أن من أسباب هذا الضياع: فقدان القيادة الراشدة، وغياب العلماء الربانيين، وانعدام الغيرة الدينية، والانشغال بالخلافات التي فرقتهم شيعاً وجماعات... إلخ.

١٨- رأى ابن السنوسي أن الإيمان هو القضية الأولى والأساسية لهذه الأمة، فإذا تخلف المسلمون عن غيرهم في وسائل الحياة الحرة الكريمة؛ فمرد ذلك إلى انحرافهم عن فهم الإسلام فهماً سليماً.

١٩- ولا سبيل إلى إصلاح حالهم ومالهم إلا بالإيمان على الوجه الذي بيَّنه الله في كتابه، ورسوله (ص) في سنته، وهو أن يكون طاقة دافعة إلى العمل، وقوة محركة للبناء، وحافزاً طبيعيّاً للتفوق.

٢٠- رأى أهمية العلم في نهوض الأفراد والجماعات والأمم، لأن العلم ظهير الإيمان، وأساس العمل الصالح، ودليل العبادة.

٢١- سافر إلى فاس ليزداد في طلب العلم، وبقي في المغرب الأقصى سبع سنين متتالية، وكانت تجربته في فاس ثرية.

٢٢- وبعد ذلك ترك المغرب الأقصى وتوجَّه نحو المشرق، فمرَّ بتونس وليبية، ثم دخل القاهرة، وكان ذلك عام (١٢٣٩ هـ/١٨٢٤ م).

٢٣- كانت زيارته لمصر قد رسخت في نفسه ضعف دولة الخلافة من جهة، وزاد ضعفها بظهور حكومة محمد علي باشا على مسرح الأحداث في مصر، وقد وصل إلى قناعة مهمة في الإصلاح والنهوض.

٢٤- لقد خبر ابن السنوسي أوضاع الدولة العثمانية في وطنه الأول الجزائر؛ حيث تسلط الولاة الأتراك وحكمهم الاستبدادي، وعجز الدولة عن منعهم من

الظلم، وجاء إلى القاهرة فرأى حكم محمد علي باشا وانفراده بشؤون مصر، فزاد اقتناعاً بعجز الدولة وضعفها.

٢٥- دخل ابن السنوسي الحجاز عام (١٢٤٠ هـ/١٨٢٥ م)، ونزل مكة، وكانت تلك الزيارة لمكة ذات أثر كبير في قيام الدعوة السنوسية وظهور شأنها.

٢٦- اهتم ابن السنوسي بالقضية الجزائرية، وعمل على إذكاء جذوة الجهاد في نفوس أبناء الجزائر ضد فرنسة، وحرص على المشاركة فيه بنفسه، وأعد لذلك العدة، إلا أن الظروف والعوائق التي كانت في طريقه منعته من ذلك، وعمل على إمداد تلاميذه بالأسلحة والمال، وحرض أتباعه على القتال، واستمر أتباع السنوسية، والشعب الليبي في دعم حركة الجهاد حتى تم دحر الاحتلال الفرنسي.

٢٧- إن المفتاح الكبير لقبائل برقة، هو: قناعتها بأن ابن السنوسي ولي من أولياء الله الصالحين، ولذلك سمعت لنصائحه، وأطاعت أوامره، فأرشدهم إلى كتاب الله وسنة رسوله (ص).

٢٨- كانت زاوية البيضاء في الجبل الأخضر أول الزوايا التي أسسها ابن السنوسي، وشرع يعلم الناس فيها، ويذكرهم بالله ويرشدهم إلى

طريق النجاة في الدنيا والاخرة، وبدأت القبائل تتوافد إليه تطلب زيارته لها تبركاً به، وتطلب إقامة الزاوية فيه، وأحياناً ينتدب بعض الإخوان لذلك، وهكذا بدأت القبائل تتسابق والزوايا تنتشر.

٢٩- توافرت في قبائل برقة ظروف ملائمة لظهور الحركات السنوسية بوصفها حركة إسلامية شاملة؛ منها: انفصالها عن الأقطار المجاورة بالصحارى والفيافي التي تحيط بها، تتألف تلك القبائل من قبائل عربية بدوية تربطها أنماط حياة اجتماعية متجانسة، ويقوم ذلك النظام على عصبيات دموية مشتركة، وتقاليد وأعراف متشابهة، كانت بعيدة عن سيطرة المدن، وكانت القبضة العثمانية عليها ضعيفة... إلخ.

٣٠- ظل ابن السنوسي خمس سنين ينشأى الزوايا وينظمها، ويرسم مناهج الدعوة ومبادئها، ويبث دعوته الإصلاحية عن طريق الزوايا.

٣١- عاد بعد هذه السنوات الخمس إلى الحجاز، المركز الأول لدعوته، ومنذ

ذلك الوقت كان للدعوة مركزان رئيسان: شرقي في الحجاز، وغربي في برقة، وعن هذين المركزين أخذت الدعوة السنوسية تنتشر بوساطة الزوايا هنا وهناك.

٣٢- طالت مدة غياب ابن السنوسي في الحجاز واشتد القلق في ليبية لطول غيبته، وسافر إلى الحجاز أكثر من وفد ليبي ليلتمس منه أن يعود، وكانوا يسافرون غالباً في موسم الحج.

٣٣- رجع ابن السنوسي إلى ليبية، واختار الجغبوب كمقر لقيادة الحركة السنوسية.

٣٤- استطاع ابن السنوسي أن يختار من بين المسلمين مجموعة خيرة من العلماء، والفقهاء، والدعاة ؛ممن اتصفوا بالتميز الإيماني، والتفوق الروحي، والرصيد العلمي، والزاد الثقافي، ورجاحة العقل، وقوة الحجة، ورحابة الصدر، وسماحة النفس، وأصبحوا من أعمدة الحركة السنوسية أثناء حياته وبعد وفاته.

٣٥- قام عدد كبير بنصرة وتأييد الحركة السنوسية من العلماء، والفقهاء والقادة والشيوخ؛ ومن أشهر هؤلاء الإخوان الذين ساندوا ووقفوا مع ابن السنوسي في حركته الواسعة: محمد عبد الله التواتي، أحمد أبو القاسم التواتي، علي بن عبد المولى، أحمد بن فرج الله، محمد بن الشفيع، أحمد المقرحي، وعمران بن بركة الفيتوري، وغيرهم كثير.

٣٦- استطاع ابن السنوسي بتوفيق الله تعالى أن يجعل من الإخوان والقبائل في الصحراء الكبرى مجتمعاً متماسكاً، متوحداً في عقيدته وتصوراته ومنهجه، فانعكس ذلك في توادهم وتراحمهم فيما بينهم، وأصبحوا كالجسد الواحد الذي يخفق فيه قلب واحد، وتسري فيه روح واحدة، ويتأثر كل عضو فيه بما يصيب بقية الأعضاء.

٣٧- إن الأصول التي تساهم في توحيد المجتمع هي: وحدة العقيدة، وتحكيم الكتاب والسنة، وصدق الانتماء إلى الإسلام، وطلب الحق والتحري في ذلك، وتحقيق الأخوة بين أفراد المجتمع.

٣٨- يظهر البعد التنظيمي في شخصية ابن السنوسي في بناء الزوايا التي يتربَّى فيها أتباعه، والمنهج التربوي الذي ساروا عليه.

٣٩- كان نظام الزوايا معروفاً في العالم الإسلامي، والشمال الإفريقي، واستطاع ابن السنوسي بعقليته التنظيمية أن يطور مفهوم الزوايا؛ بحيث أصبحت تمثل النواة الأولى لمجتمع تحكمه سلطة، وعليه واجبات اجتماعية واقتصادية وسياسية، ودعوية وجهادية.

٤٠- انتهج ابن السنوسي منهجاً تربويّاً استمده من كتاب الله وسنة رسوله (ص)، ومن خبرته بالطرق الصوفية التي درس جُلَّها، وانتقد أخطاءها، وعمل على طريقة خاصة يسلكها أتباعه.

٤١- إن الصوفي الحقيقي في رأيه من يتقيد بالكتاب والسنة، وقد جعل للمريدين مراتب في السلوك يتدربون عليها؛ أولها: تصحيح العقيدة بميزان أهل السنة والجماعة، أن يتعلم المريد ما يحتاج إليه من المسائل الفقهية المتعلقة بظاهر البدن على مذهب من المذاهب الأربعة،

أن يتوجه المريد إلى تزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، وتصفية القلب، وتنقية السر... إلخ.

٤٢- يظهر البعد السياسي عند ابن السنوسي في تعامله الحكيم مع الدولة العثمانية؛ حيث رأى في الدولة العثمانية دولة الخلافة ضرورة لازمة لوحدة الأمة، والدفاع عن كيانها، وأنه لابد من معاضدتها والوقوف بجانبها، ويظهر أيضاً في حملة التوعية التي قام بها ضد الغزو القادم للأمة من قبل الأوروبيين، وتنظيمه للزوايا، وتعبئة الأنصار؛ بغرس الثقة في دينهم وعقيدتهم، والثقة بقيادتهم، وتأخير الصدام مع الأوروبيين حتى يكتمل.

٤٣- كان أسلوب ابن السنوسي في الدعوة إلى الله مستمدّاً من كتاب الله وسنة رسوله (ص)، وقد نجح في إرشاد الطرق الصوفية المنحرفة، وتعامل مع الرقيق من الأفارقة بأسلوب رفيع، فاشتراهم وأعتقهم، وعلمهم ثم أرسلهم دعاة إلى قبائلهم، واهتم بدعوة القبائل وزعمائها، واستطاع أن يجعل منهم دعاة إلى الله تعالى، واعتمد في أسلوبه على ضرب الأمثال، واستخدم القصة، واستعمل الشدة في محلها.

٤٤ إن فهم أفكار ابن السنوسي يمكننا الوصول إليها من خلال كتبه، ومن أهمها: كتاب المسائل العشر، السلسبيل المعين، إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقران، ورسالة مقدمة موطأ الإمام مالك، وغيرها.

٤٥- كانت كتب ابن السنوسي في أكثرها تتناول المباحث الفقهية والصوفية، وفيها كتاب أو كتابين يتناولان مواضيع تاريخية.

٤٦ إن ابن السنوسي في دراسته الطويلة لم يهمل الجانب التاريخي؛ لقناعته الراسخة بأهمية هذا العلم في تحقيق الفوائد التربوية، وإدراك السنن الربانية، ومعرفة معالم تاريخ الإنسانية، ومعرفة تاريخ الأنبياء، ومعرفة سيرة النبي (ص) ومعرفة تاريخ الخلفاء الراشدين، وسير العلماء والمجاهدين والدعاة.... وكانت ثقافته التاريخية تمتاز بغزارة المعلومات، ويعتز بتاريخ أجداده، ويؤمن بضرورة حصر الإمامة في

قريش، وكان أسلوبه في كتابة التاريخ على نمط مؤرخي المسلمين، ويقتصر على سرد الحوادث.

٤٧- كان ابن السنوسي فقيهاً متصوفّاً، اهتم بالعلوم الفقهية، وغاص في معرفة حقائق النفوس البشرية، واستنبط منهجاً تربويّاً لعلاج الأمراض النفسية، والرقي بها نحو الكمالات الإنسانية.

٤٨- اتصف ابن السنوسي بصفات الدعاة الربانيين؛ من الصدق، والإخلاص، والدعوة على بصيرة، والصبر، والرحمة، والعفو، والعزيمة، والتواضع، والإرادة القوية التي تشمل قوة العزيمة، والهمة العالية، والنظام، والدقة، والزهد، والورع، والاستقامة... إلخ.

٤٩- إن هذا المجهود المتواضع قابل للنقد والتوجيه، وما هي إلا محاولة جادة لإزاحة الركام عن صفحات مشرقة من تاريخ بلادنا الحبيبة التي كانت ونرجو من الله أن تكون مركزاً لدعوة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وما ذلك على الله بعزيز ويقولون: متى هو ؟ قل: عسى أن يكون قريباً.

هذه هي الخلاصة التي وصلت إليها، وقد ملت إلى الاختصار الشديد خوفاً من الإطالة والإطناب.

وأسأل الله العلي العظيم رب العرش الكريم أن يتقبل هذا الجهد المتواضع قبولاً حسناً، وأن يبارك فيه، وأن يجعله من أعمالي الصالحة التي أتقرب بها إليه.

وأختم الجزء الأول من الكتاب السابع بقول الله تعالى:

{الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ} [الحَشر: ١٠]

ويقول الشاعر:

أنا الفقير إلى رب البريات　　أنا المسيكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي　　والخير إن يأتينا من عنده ياتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة　　ولا عن النفس لي دفع المضرات
والفقر لي وصف ذات لازم أبداً　　كما الغنى أبداً وصف له ذاتي
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم　وكلهم عنده عبد له ات

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت
أستغفرك وأتوب إليك
واخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين
انتهى الجزء الأول من هذا الكتاب، ويليه الجزء الثاني